رواية

بَر الضِيف

القَسَم

يحيي صفوت

ساحر الكتب

بَرْ الضيف

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

بَرْ الضيف

القَسَم

يحيى صفوت

الطبعة الأولى , القاهرة ٢٠١٩ م

غلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: ٢٦١٤٧ /٢٠١٨

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٦١٢-٦

جميع حقوق النشر محفوظة, ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب, أو جزء منه, أو نقله بأي شكل من الأشكال, أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات, ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا, دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: ١٢ ش عبد الهادي الطحان , من ش الشيخ منصور, المرج الغربية , القاهرة , مصر

هاتف: ٠١١١١٩٤٧٩٥٧

بريد إلكتروني: daroktobi@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها, ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

بَرْ الضيف

القَسَم

رواية

يحيى صفوت

دار اكتب للنشر والتوزيع

أي تشابه في الأسماء هو بمحض الصدفة, ولا يمت للواقع بصلة..

أما الأحداث فهذا شيء آخر, وسأترك للقاريء الحكم في هذا

* * *

قسم مع الأيام صار منسيّا

لكنا نحن لا ننسى

قصدنا بيوتًا باتت قبورًا

وجعلنا صراخكم همسًا

١

لا توجد بلد أو قرية في القطر المصري أغرب من تلك التي تقع على أطراف محافظة الجيزة. لا تجهد نفسك في محاولة الوصول إلى معلومات عنها فهي بلدة خارج السجلات الحكومية،خارج كل النواميس والمعارف. بر الضيف قرية اتفق الجميع على نسيانها.. حتى أهلها.

لو اضطرتك الظروف أن تذهب لبر الضيف ستجد أن الوصول إليها ليس سهلًا على الإطلاق. فبالرغم أنها تقع على أحد أفرع النيل مباشرة، لكنها تختفي خلف غابة من الأشجار العملاقة التي لا توحي بوجود قرية بأكملها خلفها.

حتى لو نجحت بطريقة ما للوصول إليها فستجد أنها لا ترحب بالغرباء. لا يتسم أهل بر الضيف بالكرم و(الجدعنة) التي تشتهر بها المناطق الريفية. حتى أنهم خصصوا ساحة في منتصف المسافة التي تفصل بيوتهم عن الطريق العمومي لعمليات البيع والشراء. ساحة مربعة لا تتعدى الخمسين مترًا محاطة بسور من السلك الشائك والأشجار لمنع أي شخص من التجول بحرية في حدائق المانجو المحيطة. تتراص بها الأعشاش التي

تخدم كمحال وفي منتصفها حلقة من الباعة غير الودودين يفترشون الأرض.

كان هذا سلوك سكان القرية منذ قديم الأزل لكنهم ازدادوا عزلة بعد الواقعة الشهيرة التي حدثت فيها منذ أكثر من ربع قرن. كان هذا من أسباب انعدام شعبية بر الضيف، ولذلك لم يكن يقصدها التجار إلا نادرًا وبأعداد قليلة للغاية.

لكن بر الضيف ما زالت قائمة رغم القصص المخيفة، رغم العزلة الذاتية، رغم أنف الجميع.

* * *

الساعة الخامسة عصرًا..

نظرات مليئة بالتساؤل تابعت ثلاثة رجال وهم يرتجلون من سيارة أجرة سبعة راكبين. أحدهم طويل الوجه والبنية رفيعها، ذو شارب كث. الثاني قصير، سمين، حليق الوجه، أما ثالثهم فهو متوسط الطول لكنه أغلظهم ملامح، وأعرضهم جثة. تقدم الأخير إلى السائق ليتكلم معه. هز السائق رأسه وأشار إلى ساعة يده، فبادله الفلاح الصلب الموافقة.

التفت لرفقائه مشيراً لهم بالتقدم للساحة حيث تنتظرهم وجوه قاسية وأعين تنضح بالتربص.

من هؤلاء؟

إن كانوا تجاراً، فثلاثة لهو عدد كبير لم يره أهل القرية منذ زمن. فمعظم مرتادي ساحة السوق الصغيرة التي تقع خارج القرية يأتون فرادى. وإن كانوا زائرين فبالتأكيد ليس مرغوباً في وجودهم.

سرعان ما لاحظ ثلاثتهم أنظار الخفراء التي تتابعهم فبدؤوا في التجول في المكان. السوق عبارة عن ساحة دائرية تحيط بها أرض المانجو من جميع الاتجاهات إلا من مدقٍّ صغير لدخول السيارات وفي الجهة المقابلة له يوجد باب خشبي يؤدي إلى مدق آخر مستتر. ما إن انخرط الثلاثة في عمليات التفاوض على أسعار الخضراوات حتى فقد أهل القرية اهتمامهم بهم.

– ها؟ قولنا إيه؟ نوزِّن كام كيلو؟

سأل البائع العجوز الجالس خلف فرشة خضراوات. أمامه يقف الزائر الضخم الذي انتبه له، وقال له بذهن شارد:

– لأ خلاص. تشكر.

مصحوبًا بلعنات البائع وسبابه، ذهب الضخم إلى عشة من الخوص بها امرأة عجوز تعرض تشكيلة من الخضراوات والفاكهة. في تلك العشة وقف رفيقاه يفاوضان البائعة العجوز على سعر الجرجير.

– خد يا..

نادى عليهم فاستجابا وذهبا إليه تاركين البائعة الغاضبة.

في طريقه إلى خارج العشة اصطدم الطويل المقفّع بمصباح معلق. اهتز المصباح على أثر الصدمة لكنه لم يقع، بل وقعت صفيحة معدنية كانت مثبتة على أحد جوانبه.

– أنا أسف معلهش.

اعتذر وحاول إعادة المصباح لوضعه، فصاحت به البائعة أن يتركه. تعجب الرجال الثلاثة من رد فعلها المبالغ فيه، ونظر الاثنان لمفتول العضلات، فأمرهما بترك الأمر. التفت القصير المدكوك للصفيحة المعدنية وهَمّ بالتقاطها فسبقته البائعة العجوز وأخذتها.

– ملكش صالح باللّمبة. خليك في حالك.

بغضب تقدم ناحيتها فأمسك الطويل بذراعه قائلًا للمرأة:

– معلهش آسفين يا حاجّة. يالّا يا عوض.

تبادل عوض والبائعة العجوز نظرات نارية قبل أن يستسلم لرفيقه وذهب معه لكبيرهم الذي استقبلهم قائلًا بحزم:

– مش عايز مشاكل مع أهل البلد. احنا نقضي مصلحتنا من سكات. كفاية الحكاوي اللي بنسمعها عنها.

وقعت عيناه على البائعة العجوز فلم يجد مفرًّا من التساؤل:

– بتعمل إيه دي؟

التفت رفيقاه لها فوجداها تفعل شيئًا لم يستطيعا تفسيره. بيدين مرتعشتين ثبتت المصباح الذي كان ما زال يهتز من أثر الصدمة و هو يتدلى من الإفريز الخشبي للعشّة. ثم وضعت الصفيحة المعدنية على أحد جوانبه.

– هي بتعمل كده ليه؟ الصفيحة دي إيه لازمتها؟ دى هتمنع النور.

سأل الطويل لكن لم يرد عليه أحد منهما.

أمسك عوض بذراعه وهمس:

– هي دي بس الحاجة الغريبة يا إسماعيل؟ ركّز إكده حواليك.

بدأت شمس المغيب في إلقاء ضوئها الناري الواهن على تفاصيل الساحة. الإيقاع البطيء للباعة والمشترين وحركة الخفراء الثقيلة جعلت كل شيء كأنما يتم عرضه بالتصوير البطيء. حتى الحمام الرابض على الأفرع خارج الساحة لا يأتي بأي نوع من الحركات، كأنه جزء من لوحة. فقط ينظر إليهم.

عجز إسماعيل عن تفسير ما يراه فهمس:

– واخد بالي. المكان كله لبَش.

تدخل كبيرهم قائلًا: حاجة غريبة جوي. كل الأنوار عليها نفس الصفيحة ومن نفس الناحية.

جال إسماعيل ببصره في المكان ليجد ما قاله كبيرهم صحيحًا.

– أنا مش مرتاح للناس دي يا صبحي.

ضيق صبحي عينيه وقال بحذر: مش بس كده. واخدلي بالك إن مافيش ولا عيّل شفناه من ساعة ما جينا.

نظر إسماعيل وعوض حولهما في الساحة، ثم تبادلا النظرات الحائرة. بالفعل، سكان البلد الموجودون أغلبهم فوق الأربعين وتتضاءل النسبة كلما قلَّ السن. لا يروا إلا عدداً ضئيلًا من الشباب ولا يتذكرون إن كان رأوا طفلة أم طفلًا في مكان ما.

بلع إسماعيل ريقه وقال: أنا مش..

قاطعه عوض بعصبية:

– مش مرتاح. عارفين. إحنا مش جايين نتمرجع. شغلانة تأخذ يومين هناخد فيها ألفين جنيه. مرتاحين بجي ولا مش مرتاحين، هنخلصها.

نظر إسماعيل لصبحي فوجده يحدق إليه بقوة. رحمه عوض من نظرة الأخير عندما أمسك بذراع صبحي وأومأ برأسه ليشير إلى الخفراء الشّدّاد المنتشرين في المكان. في وجود أمني لا يتلاءم مع النشاط التجاري الضعيف بالساحة الصغيرة، انتشر الخفراء الذين يصل عددهم إلي عشرة في الساحة. ها هو أحدهم يقترب منهم، يبدو من هيبته بين أقرانه وطريقة تعامله معهم أنه كبير

الخفراء. متوسط الطول قصير الرقبة غليظها، ذو شارب رفيع وكتفين عريضتين. بنبرة صارمة قال:

– يالّا يا رجالة جَبَرت. اللي اشترى اشترى خلاص.

هتف عوض وقد زادت العصبية في نبرته:

– هي إيه اللي جبرت!؟ إحنا لسه مخلصناش.

رد عليه كبير الخفراء من بين أسنانه:

– هو إنتوا ابتديتوا تشتروا من أساسه؟ جاعدين من الصبح تتنططوا من الفرشة دي للفرشة دي ومن العشّة دي للعشّة ديكها من غير متشتروا حزمة فجل.

انكمش عوض ونظر لصبحي الذي أسرع قائلًا:

– هنشتري دلوقت. احنا كنّا بناخد فكرة.

بنبرة أكثر عدوانية رد عليه كبير الخفراء:

– ما جولنا جبرت. المغرب جه وإنتوا عارفين ده معناه إيه.

نظر الثلاثة لبعضهم البعض وظهر القلق على ملامحهم. فنظر لهم الخفير بنظرة مليئة بالشك

وقال:

– يعني جايين تشتروا من هنا مخصوص، مع إن بضاعتنا.. يعني.. ممكن تلاجوها في حتت أقرب وأسهل، ومش عارفين سلو بلدنا؟.

– لأ. عارفين بس كنّا طمعانين تستنوا علينا شوية.

قالها الضخم بابتسامة حاول أن تكون لطيفة، لكنه فشل في ذلك تماماً. هنا صاح بهم الخفير وقد ضاق بهم ذرعًا:

– يبقى متعرفوش سلو بلدنا!! يالا يا جدع منك له!! محدش بِيُجْعُد في بر الضيف بعد المغرب.

عندها تذكر ثلاثتهم أعجب معلومة قالها لهم من بعثهم هنا: لا يُسمح لأحد بالوجود في بر الضيف، ولا حتى في ساحة السوق، عند قدوم الليل. رجّح البعض هذا السلوك إلى أن جميع أهل البلد يذهبون للنوم مبكرًا، أي يصلُّون العشاء وينامون.

لكن هل يفعل ذلك جميعهم؟

رغم أن هذا كان تفسيرًا ضعيفًا وصعب التصديق، لكنه كان أقرب المبررات للمنطق. فقد كانت هناك

أقاويل أخرى، روايات تتحدث عن أشياء تحدث في البلد ليلًا لا يجب أن يراها الغريب، لا يجب أن يراها أحد لو تحرَّينا الدقة. وقد تمادى البعض في القول إن أهل القرية أنفسهم يغلّقون أبوابهم حتى الصباح، ويبقى ما يحدث في الخارج سرًّا عظيمًا. تخص هذه الروايات حدائق المانجو المحيطة بالقرية بأنها صاحبة النصيب الأعظم في ما يحدث ليلًا.

صوت أذان المغرب يصدي من بعيد. قام كبير الخفراء بحركة سريعة أنزل بها البندقية من فوق كتفه وسددها إليهم وهو يصيح:

– على عربيتكم يالّا وإلا قسمًا ب...

صوت ارتطام عنيف قطع حديثهم. التفت كبير الخفراء إلى مصدر الصوت فوجد على مدخل الساحة السيارة السبعة راكبين التي أتى بها الثلاثة الذين يحادثهم محتضنة شجرة من نوع الكزورين العملاق. أسرع الحميع للحادث، يتعجبون ويضربون كفًّا بأخرى.

بدؤوا في إخراج السائق الذي بدأت أسئلة من نوع (انت شارب إيه يا عّم الحج؟) تنهال عليه.

هتف كبير الخفراء بهم:

– طلّعوه هو و عربيته برّه يا رجاله، الليل جه. وقفِّلوا البوابة اللي على الطريق.

بدأ الخفراء يدفعون السيارة في الممر الضيق المؤدي للطريق العمومي بينما ساعد اثنان منهم السائق على السير بجوار السيارة.

التفت كبير الخفراء للساحة باحثًا عن الثلاثة وهتف بأحد رجاله:

– التلاتة اللي جم مع العربية دي فين؟ طلعوا معاها؟.

– لا محدش طلع غير السواق. تلاقيهم سبقوه يا ناجي.

لم يقتنع ناجي بالإجابة وجال بنظره في أنحاء الساحة. لقد بدأ الظلام ينتشر في المكان، ولم تساعد المصابيح التي يشع ضوؤها في ثلاثة اتجاهات فقط على الرؤية. سمع أحد الخفراء يناديه فالتفت إليه ليجده يقف بين عشّة والسلك الشائك الممتد خلفها.

– في إيه يا مجاهد؟

– بص إكده.

نظر ناجي لما يشير إليه مجاهد فوجد فتحة في السلك الشائك تكفي لعبور شخص.

– يا ولاد ال..

ثم رفع عينيه لينظر إلى حقل المانجو الذي كاد أن يسيطر عليه الظلام تمامًا، وقال بصوت مهموم:

– فتحوا عينيكوا يا رجالة. العيال دول إتسلتوا جوه جنينة المانجه. ربنا يستر وميعملوش مصيبة تقع على دماغنا.. ودماغهم.

وآخر نظرة منه كانت للقماشة البيضاء المتسخة التي ربطت حول ساق إحدى شجرات المانجو.

– بلغوا أهل البلد. عندينا ضيوف.

* * *

داخل حديقة المانجو، توقف الرجال الثلاثة كي يلتقطوا أنفاسهم. جلس عوض على الأرض الطينية وأسند ظهره على شجرة ضخمة بينما انحنى إسماعيل ليستند بكفيه على ركبتيه. نظر الأخير لكرش عوض وهو يصعد ويهبط. هَمّ بقول تعليق ساخر، لكنه سمع صبحي يخاطبه قائلًا:

– إسماعيل، بص على الجرّار شوفه شغال والا لأ.

التفت له فرآه يشير إلى شيء معدني ضخم يربض بين الشجيرات. رغم أن ضوء السماء الأزرق قد بدأ في الانتقال إلى اللون الأسود، لكنه تمكن من رؤية الجرار المغطى بالأغصان. تعليق آخر هَمّ بقوله لكنه آثر السكوت. جال بفكره خاطر: إن هذه الأشجار العملاقة مقلقة حقًّا.

نظر صبحي إلى الجهة التي أقبلوا منها كي يتيقن من أن أحداً لا يتبعهم. انتزعه عوض من تركيزه بسؤاله:

– إلّا هوه إيه ده يا صبحي؟

نظر صبحي إلى ما يشير إليه عوض، إلى القماشة الكبيرة المتسخة المربوطة حول جذع شجرة.

– وهنا كمان.

أشار إلى شجرة أخرى على مقربة منهم.

لم يرد صبحي، وظلت عيناه مثبتتين على القماشة المربوطة حول جزع شجرة المانجو. بدا له إنها أقرب إلى ملاءة سرير بيضاء. هنا تذكر آخر معلومة في قائمة عجائب بر الضيف، المعلومة التي كاد بسببها أن يعتذر عن هذه العملية. هو لا يُؤْمِن بمثل هذه الأشياء ولكن ما سمعه كان مخيفاً. رغم

أنه لم يبلغ رفقاءه بما سمعه، لكنه قط لم ينسَ ما قاله من بعثه لهذه القرية عن السبب الرهيب الذي وُضعت بسببه هذه الأقمشة.

* * *

٢

صباح الأربعاء بعد مرور أسبوعين..

في الطابق الثاني بعمارة ثمانينية ذات طوابق أربع تقع على ناصية على الكورنيش دق منبه المحمول. خرجت يد قوية دكناء البشرة كثيفة الشعر من تحت الغطاء في محاولة عشوائية للوصول إليه انتهت بوقوعه من فوق الكومودينو.

زمجر النائم وتمتم بكلمات غاضبة، ثم أخرج رأسه من تحت الوسادة ونظر جانبه فوجد نصف السرير الخاص بزوجته فارغًا. خرج بنصفه العلوي من الفراش، وانقض على الأرض باحثًا عن هذا المزعج الصغير الذي ما زال يغرّد بأنغام تدعوه للتفاؤل الإجباري. بعد مجهود مضنٍ وجد محموله مختبئًا داخل خُفِّه فالتقطه وأطفأ الجرس. قام من فراشه ونظر في المحمول فوجد اثنتي عشرة مكالمة من النقيب أيمن والصول سعفان ونمرة أخرى غير مسجلة، استنتج أنها التليفون الأرضي الخاص بالقسم.

شدّ قامته الممتلئة شيئًا ما والقوية ونظر بعين مرهقة في المرآة لينمّق شارب رشدي أباظة الذي يتوسط وجهه الدائري. ثم بدون تردد اتصل بأيمن

وهو يفرك وجهه كي يفيق. جرس واحد فقط رد بعدها أيمن.

– Good morning يا إيهاب باشا Sorry لو كنت صحّيت جنابك.

وضع إيهاب المحمول على إذنه قائلًا:

– إصتبح يا أيمن وإعدلّي لسانك وبلاش الزفت الإنجليزي بتاعك ده. إيه اللي حصل؟ أنا سايبكوا من خمس ساعات بس.

استمع إيهاب بتركيز لما يقوله أيمن وقد نجح في إيقاظه تمامًا.

– طب إنت عملت إيه في اللي هرب ده؟

– ..

– يعني إيه اختفى؟

قالها إيهاب بغضب:

– ..

– طيب عملت إيه في العربية نفسها؟

– ..

– الركاب قالوا إيه عن اللي جِري ده؟ فيه أوصاف ليه؟

– ..

– مش عايزين يتكلموا إزّاي يعني!!؟ يبقوا مدبرين حاجة وهرّبوها مع اللي هرب.

– ..

– بقولك إيه إنت هتجنني على الصبح. مش إنت جَرّجَرّتهم على القسم وقَطَرت الميكروباص؟

– ..

– خلاص. هلبس وأجيلك.

أنهى المكالمة وخرج من غرفة النوم ليقف في ردهة لا تتعدى الأمتار الأربعة. في نهاية الردهة باب غرفة مفتوح يخرج منه نور أبيض باهت. اقترب من الغرفة وتناهى إلى مسامعه صوت تكة فأرة الكمبيوتر. وقف على باب الغرفة الفارغة إلا من جهاز كمبيوتر يرقد على مكتب صغير تجلس أمامه امرأة ذات شعر بني كثيف في روب أحمر

أدكن. نظر إلى شاشة الكمبيوتر أمامها وقرأ عنوان الصفحة:

(أفضل الطرق الطبيعية لمعالجة تشوهات الرحم).

ابتسم بحزن وتقهقر دون أن يشعرها بوجوده.

ذهب إلى المطبخ وافتعل ضوضاء في أثناء صب المياه من الصنبور إلى الغلاية الكهربية. سمع صوت إغلاق البرنامج المشغل للكومبيوتر ثم خطواتها وهي تخرج متجهة إليه.

– صباح الخير يا إيهاب. متقولش إنك نازل تاني؟ إنت لسه راجع مبقالكش كام ساعة.

التفت لينظر لزوجته وتأمل ملامحها الرقيقة الهادئة ووجها الطويل الذي يذكر من يراها بميرقت أمين. ابتسم بحنان وتجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء.

– فيه جِنان في القسم على الصبح يا سلمى. ده غير إن الظابط الجديد بتاع المعادي خريج المدارس الأجنبية هيجنني بالإنجليزي بتاعه ده.

ضحكت باقتضاب رغم عنها ودخلت المطبخ لتصب له كوب الشاي.

– بس شكله بيحبك. على طول بيفكر إزاي يبروزك عند رؤسائك. مش هنسى لما جتله الفرصة إنه يظهر في قضية المعدِّية لكنه نسبلك كل الفضل.

اقترب منها وقبّل رأسها بحنان جعلها تغلق عينيها لتمنع نفسها من انجراف عاطفي ينتهي بانفجارها بالبكاء.

– بيحبني أو بيتملقني، المهم يبطَّل الإنجليزي بتاعه ده. الضباط بتوعي مافيش حاجة في دماغهم اليومين دول غير حركة الترقيات الشهر اللي جاي. أنا بقى مش هموت على الترقية، أنا مبسوط بمكاني ده. لو اترقّيت هيبقي شغل أكتر واحتمال أتنقل وأبعد عنك أكتر من الّازم.

فرد زراعيه الغليظتين متثائبًا وأخذ كوب الشاي وخرج من المطبخ وهو يقول:

– وبعدين ساعات بتِفلِت منه حاجات عجيبة. زي النهارده كده.

تبعته إلى داخل غرفة النوم وجلست على السرير وهو يقوم بتغيير ملابسه:

– حصل إيه؟ سألته باهتمام.

رد عليها بحزم مصطنع:

– هو أنا فهمت حاجة منه؟ إستنني لما أرجع يمكن الموضوع يطلع هايف.

أنهى كلامه وهو سارح في تفاصيل مكالمة أيمن. لقد ظن أنه بعد كل هذا العمر والحياة العملية الحافلة أنه قد رأى وسمع كل شيء.

حتى الآن.

حتى اللحظة التي حكى له أيمن عمّا واجهوه من ساعتين.. على أطراف القاهرة.

* * *

٣

قبل ذلك بساعتين..

– يا عم فُوْق يا عم.

انتزعت هذه الصيحة عسكريًّا رفيع البنية مستطيل الوجه من إغفاءته، وتنبَّه إلى أنه يستند إلى الحاجز الأمني، ويسد الطريق على سيارة النقل. اعتدل في وقفته وفتح عينيه بصعوبة ليحدّق إلى السائق الغاضب. بآلية مد يده ليجر الحاجز مفسحًا له الطريق. عبرت السيارة الكمين وتركته وحده يحدق إلى الشارع المظلم الذي أضافت أعمدة الإنارة ذات الضوء البرتقالي لونًا كئيبًا عليه.

بدأ الوقت يمر بطيئًا من جديد. لقد ظل لساعات وساعات في نفس المكان وعلى نفس الوضع وأصبح على وشك الانبطاح على وجهه من الإعياء. فقد امتدت فترة الخدمة لما يزيد عن الأربع عشرة ساعة متواصلة. والآن وقد أصبح للإرهاق عنده مفهوم جديد، فإنه يتحتم على صالح،العسكري المخضرم ذي السنوات الثلاث في الخدمة، إيجاد طريقة للبقاء على وعيه دون أن يأخذ الحاجز الأمني في يده ويحتضن الأسفلت.

لقد اعتاد مثل هذه الوقفات في أماكن متفرقة في أنحاء الجمهورية، لكن هذا المكان مختلف، إنه يضغط على أعصابه. ليس فقط بسبب برودة الجو وكآبة المنظر، لكنه يقف على أطراف القاهرة حيث لا يوجد مطعم أو حتى كشك يبتاع منه ما يسد به جوعه أو يسلي به وقته. بالإضافة إلى أنه أخطر موقع خدم فيه. فمعظم مواجهات أفراد الكمين تكون مع سائقي نقل منتشين أو آخرين هاربين من العدالة في طريقهم إلى خارج العاصمة أو خاطفين يتسللون برهينتهم. معظمها مواجهات خطيرة تنتهي أحيانًا بإصابات بالغة أو حتى مقتل شخص ما.

لقد انتهت خدمته منذ أكثر من أربع ساعات ولم يظهر بدلاؤهم بعد. ها هو الخط الأبيض الرفيع يظهر في الأفق ليضيء الأرض الزراعية المحيطة بالعمارات الحمراء بطوبها البني وأعمدتها الرمادية المكشوفة.

إن حدود المحافظات حيث تلتقي المدنية مع الريف لها طابع خاص، حتى هذه الأماكن لم تتركها الروح المصرية في حالها وأضافت لها مواصفات خاصة. فالمباني مختلفة الارتفاعات والمساحات بعشوائية مطلقة. أغلبها على الطوب الأحمر، ويبدو أن أسطحها قد أصبحت تربة خصبة تصلح لنمو أطباق الدش.

ظل صالح يتابع الظهور البطيء للغابة الطوبية حوله، والتي بدا له أنها انتصرت على المساحة الخضراء حتى سمع صوت حشرجة خلفه.صوت كركرة موتور سيارة قديمة افتقر للزيت فبات على وشك الانهيار. نظر خلفه فوجد الصول سعفان نائمًا على الكرسي تحت المظلة ورأسه ملقًى على ظهره كما لو كان عنقه قد دُقّ. لولا صوت الغطيط لظن صالح أن رأس الصول سعفان قد انفصل عن جسده.

خلف سعفان يقف البوكس الذي يرقد في مؤخرته اثنان من زملاء صالح. أما في كابينة القيادة فقد سطع ضوء أبيض على وجه ضابط في أواخر العشرينيات حليق الذقن، خفيف الشارب، مربع الوجه أبيضه، تدل ملامحه على أصول أرستقراطية. على كتفه نجمتان، وعلى أنفه نظارة يستخدمها في متابعة المحمول.

راقب صالح السيارات التي بدأت يزداد عددها على الطريق في كلا الاتجاهين. تمنى أن يرى سيارة الدورية التي بات يحلم أنها تأتي حاملة من يخلصه من نباطشية المائة عام تلك.

لكنه رأى شيئًا آخر.

إن هذا الميكروباص يذكره بشيء.

أخذ يفكر..

أيوه. أنا شفته إمبارح العصر لما إستلمت النوبة. الدنيا كانت فوق بعضها ومحدش إهتم بميكروباص راكن على جنب الطريق. أطنّش؟ آه أطنِّش. الجو برد و شوية وهتيجي الدورية التانية وتتعامل هي بقى.

نفير سيارة نقل انتزعه من تساؤلاته وقد لاحظ الرجل الجالس بجانب السائق فزع صالح فخاطبه مداعباً: صباح العسل. عسل واللّه يا دفعة.

زجره السائق وأشار للصول دائري الهيئة ذي الكرش العظيمة والشارب الفخيم الجالس تحت الشمسية. كان الأخير ينظر إليهم متوعداً بعد أن أيقظه النفير هو الآخر.

هب الصول سعفان واقفًا وأشار لسائق النقل أن يقف. لم يكن الحاجز الأمني يسمح بأن يهرب السائق على أية حال فاضطر للوقوف.

– شِدّ الحاجز ده وحطه أودّام العربية.

أسرع صالح بجر الحاجز كي يسد الطريق تمامًا أمام سيارة النقل.

أمسك الصول بمراية السيارة وقال للسائق: رخصك يا عسل. شاربه الكث يكاد يخفي كلتا شفتيه، وليس فقط العليا حتى لا تكاد تُرى وهو يتكلم.

– إتفضل يا باشا. باستسلام أعطى السائق رخصته الصولَ ونظر لزميله وهو يعض على شفتيه غيظًا.

انكمش زميله في مقعده ثم قال مخاطبًا الشرطي: صباح الجمال يا باشا. معلش قلقناك.

لم ينظر الصول له،وإنما أخذ يفحص الرخص وكان على وشك قول شيء، لكنه سمع الضابط ينادي عليه: خليه يركن على جنب يا سعفان. وهاتلي رخصه.

– ليه كده يا باشا. قالها الراكب بجوار السائق وهو يخرج رأسه من شباك الكابينة.

– إخرس بقي! صرخ فيه السائق بغضب.

– إيه يا عّم مالك؟ رد عليه الراكب بلكنته الساحلية. بصبّح على الباشا.

دار سعفان حول الكابينة وفتح باب الراكب بعنف: إنزل يابن ال..

– يا باشا ليه بس؟

نزل الضابط من البوكس وصاح: هاتولي الواد ده.

أمسك سعفان بتلابيب الراكب وأخرجه من الكابينة:

– يالا ياض يا بن ال.. معايا!

راقب السائق الموقف دون أدنى محاولة من التدخل، خبرته في التعامل في مثل هذه المواقف تنصحه بالصمت. جر الصول سعفان الراكب النحيف بذقنه العشوائية وملبسه الذي جعله يبدو كأحد ضحايا إعصار، اتجه معَه إلى الضابط.

– إنت مبرشم يالا؟ مبلبع إيه؟ سأله الضابط بعنف.

– واللّه ياباشا ولا حاجة ده أنا كنت بصبح على العسكري.

حانت من الضابط نظرة خاطفة إلى صالح وعقد حاجبيه عندما لاحظ انشغال الأخير عمّا يحدث.

– يا سيادة اللوا. ناداه ساخرًا. يا صالح! يا ريت سيادتك تيجي تنورنا هنا.

لم يرد عليه صالح مما أثار حفيظة الضابط.

– Damn it إنت يا سي زفت!!

لم يرد عليه هذه المرة أيضًا.

– يا باشا!

كان هذا نداء السائق للصول، لكنه رآه هو والضابط وأيضًا زميله البورسعيدي ينظرون إلى ما يحدق إليه العسكري بثبات مقلق. نظر في مرآة السيارة فوجد الميكروباص الرابض على جانب الطريق الذي أصبح محط أنظارهم. ساعد ضوء الفجر على رؤيته بوضوح. هناك من يجلس فيه.

سأل الضابط: إيه حكاية الميكروباص ده يا سعفان؟

لم يجد الصول سعفان ما يجيب به على الضابط فتقدم ناحية صالح المتسمِّر عند الحاجز الأمني وسأله السؤال ذاته.

التفت إليه صالح بعينين حمراوين يملؤهما الفضول: ده واقف كده من إمبارح سيادتك.

– ده فيه ناس جوّه الميكروباص. ركبوا إمتى دول؟ تساءل الضابط.

رد صالح:

– يمكن بالليل سيادتك. مهو أصل عمود النور اللي الميكروباص راكن عنده مكانش شغّال إمبارح. كانت ضلمة كُحل تحتيه.

اقترب منه الضابط وقال:

– روح خلّي السواق بتاعه يطلع بيه ويجيلنا.

باستحياء قال سائق النقل:

– طب باشا ممكن رخصتي أنا علشان أتكل على اللّه. أصلي ممنوع أمشي في البلد الصبح، ومعايا نقله مهمة.

لم يرد عليه أحد أو حتى يلتفت إليه. أطلق زفيرًا غاضبًا وحرّك السيارة لجانب الطريق. نزل منها واتجه إلى الحاجز حيث يقف زميله والضابط. تابع ثلاثتهم الصول سعفان وهو يتقدم العسكري بحذر ناحية الميكروباص.

بدأ الفضول يتسلل إلى سائق النقل فحول نظره إلى المركبة محاولًا معرفة هوية من بها.

اقترب الصول والعسكري من الميكروباص فرأوا شخصًا خلف عجلة القيادة. في المؤخّرة يجلس

شخصان لا يستطيعان تحديد هويتهما. رفع يده ليشير للسائق بأن يتقدم ناحيته.

– إسحب سلاحك يا سعفان.

صاح الضابط وأسرع للبوكس يقرع جانبه.

– قوم يا دفعة إنت وهو بسرعة.

راقبه سائق النقل وزميله السأحلى وقد تراجعا إلى مقاعد المتفرجين في هذا المشهد المثير.

وضع سعفان يده على سلاحه وأنزل صالح بندقيته من على كتفه ووجّهها للأمام.

نادى سعفان قائلًا:

– إتحرك من مكانك يا جدع إنت!

لم يرد عليه سائق الميكروباص أو يقوم بأي حركة توحي أنه سمعه من أساسه. فقط ظل ممسكًا عجلة القيادة بكلتا يديه وظهره مفرود كأنه ملسوع. ملتفحًا هو بكوفيّه قطن بيضاء جاحظ العينين لا يطرف له رمش. خلفه بدأت هوية الركاب تتضح. ميّز سعفان فلاحين أحدهما رفيع وطويل والآخر قصير لا يكاد يرى من موقعهم لكن واضح

أنه بدين نوع ما. أما السائق فهو عريض المنكبين غليظ الملامح.

يجلس الرجال الثلاثة بصمت، أنظارهم موجهه للأمام غير منتبهين لاقتراب الشرطي.

توقف سعفان على بعد أمتار من الميكروباص القديم وخلفه بمسافة مماثلة توقف صالح.

شيء واحد يدور في ذهن العسكري: ده أنا فاضللي تلات أسابيع وأخلص خدمتي.. كملها بالستر يا رب.

– أيمن باشا!

نادي سعفان على الضابط الذي عبر لتوه الحاجز الأمني متجهاً إليه وأشار خلف الميكروباص لفلّاحه قادمة من وراء الميكروباص كي تبتعد عن الميكروباص وتعبر للممشي الذي ينتصف الطريق.

– ياصالح إجري ورا متخليش حد يعدي جنب الميكروباص لغاية ما نفهم إيه اللي بيحصل.

استغل العسكري الفرصة كي يبتعد عن مصدر الخطر. عبر لمنتصف الطريق وسار حتى بات خلف الميكروباص ثم عبر الطريق مجدداً ليصبح خلفه

تماماً. بدأ في توجيه المارة ليعبروا للرصيف الذي يتوسط الطريق مما تسبب في تجمع الناس ولفت الانتباه.

في الناحية المقابلة من الطريق وقفت الحشود عند محل لتصليح الإطارات يتابعون ما يحدث. كذلك فعل الفلاحين في الزراعات المجاورة للطريق من ناحية الميكروباص.

– أيمن باشا الوضع غريب جداّ.

قالها سعفان للضابط عندما وصل الأخير إليه.

أخرج أيمن مسدسه وتقدم صائحًا:

– إنت يا بني آدم! إرفع إيدك خليني أشوفها!!

لم يرد عليه السائق ولم يحرك إصبعًا.

عندما بات أيمن على قرب مترين أو أقل من السائق سمع صوت المذياع يصدي.

(القمح الليلة ليلة عيده. يا رب تبارك تبارك وتزيده..)

كان الصوت ضعيفًا غير منتظم كما لو كان يخرج من راديو بطاريته على وشك النفاد.

من وراء أيمن جاء تعليق سعفان:

– دول مشغلين الراديو. إيه الجِنان ده؟

عند صالح، خلف الميكروباص، تكدس الناس ونجح بعضهم في الاقتراب من مؤخرة الميكروباص بسبب انشغال صالح بمتابعة ما يحدث. توقف من كان في طريقه لقضاء مصالحه في أماكن متفرقة حول المشهد. لكن لم يقترب أحد لأقل من عشرين مترًا.

قنبلة ولا إرهابيين وإلا إيه؟ تساءل البعض بينما أبدى قليل منهم شجاعة وأعرب عن استعداده للتضحية فداء للإمساك بالإرهابيين.

– آخر إنذار!!

صرخ أيمن في السائق ورفع مسدسه ليسدده إلى رأسه وصرخ:

– إنزل حالًا.

– الباب إتفتح. صرخت سيدة تقف بجانب صالح وكادت أن تتسبب في انفلات مثانة الأخير.

تحرك أيمن وسعفان اللذان كانا في مواجهة الميكروباص خطوة لليسار. حاولوا من موقعهم

الجديد رؤية من يفتح الباب الذي ما زال يتحرك ببطء. نظر أيمن للركاب والسائق فرأى أن كلًا في مكانه لم يتحرك.

– إيه ده؟ هو فيه حد تاني جوّه مش شايفينه ولا إيه؟

سأل أيمن وقد بدأ التوتر يظهر في صوته. تابعه كل من يرى المشهد وهو يتحرك ببطء متجهًا إلى باب الميكروباص. قبل وصوله فُتِح الباب على مصراعيه مرة واحدة وقفز شيء ما في وجهه ليوقعه أرضًا ثم اختفى في الأرض الزراعية خلفه.

لحظة مرت كالدهر والجميع يحدقون إلى تلك البقعة.

– Shit. وقّف عندك!

صاح أيمن وهو ينتفض واقفًا. وصل إليه سعفان والتفت الاثنان لشجيرات الأرز وهي تهتز أثر مرور شيء ما من خلالها بسرعة.

– كان إيه ده يا باشا؟ – No clue خليك هنا.

كان أمر أيمن لسعفان قبل أن ينطلق عبر شجيرات الأرز خلف هذا الشيء. أخذ ينادي على الفلاحين

الذين يقفون على حدود الأرض حيث يتجه الشيء.

– امسكوه! حد يمسكه.

تقهقر الفلاحون فزعًا وهم يتابعون اقتراب هذا الذي يشق طريقه وسط الشجيرات بتلك السرعة. بعضهم أطلق لساقيه العنان بينما راقب الشجاع منهم اقترابه بقلق شديد. أمر أحدهم الأطفال بالابتعاد عن المكان وتسلح بعضهم بالمناجل والسافوريات. اقتربت اهتزازات الزرع منهم واستعدوا للمواجهة بأيدٍ مرتعشة وصيحات ملتاعة. وراء هذا الشيء كان أيمن يلهث محاولًا اللحاق به وقد شكّ في كون ما يطارده إنسان فهو لا يرتفع فوق شجيرات الأرز. تجسدت له الفرصة لرؤيتهفي شكل قناة مياه. شعر الفلاحون بهذا أيضًا فعندما يعبر هذا الشيء تلك القناة فسوف يرونه.

أمتار قليلة.

أيمن يكاد أن يقع على الأرض من الإعياء.

أيدي الفلاحين ترتعش وصيحاتهم تزداد حدة. عين سعفان وصالح وكل من في محيط المكان عالقة بهذه القناة التي تقطع الطريق على هذا الشيء.

متر واحد.

توقف أيمن عن الركض وسدد فوهة مسدسه لهذا الفراغ الذي سيظهر فيه هذا الشيء الآن.

الاهتزاز في الزرع يصل للقناة ثم..

لا شيء.

لم يظهر أي شيء. توقف الزرع عن الحركة وبدا للجميع أنه تبخر أو توقف قبل القناة تمامًا.

– إطلع من الزرع! صاح أيمن.

لم يأتِ رد.

بشجاعة يُحسدون عليها أحاط الفلاحون بتلك البقعة وضيقوا عليها الحصار. فأقصى ما يتخيلونه هو أن يكون هذا الشيء ذئبًا مثلًا. لذلك وَجِب قتله مهما تكلف الأمر.

لكنهم لم يجدوا شيئًا.

عندما يئس الجميع من العثور على شيء وانفض الجمع وسط تساؤلات واستنتاجات لا نهائية رجع أيمن للميكروباص. هناك وجد الأمر أعقد مما كان

يتخيل. فالمشهد داخل العربة كان لا يقل غموضاً عن الشيء الذي هرب منه.

* * *

٤

بنفس العقار الذي يسكن به المقدم إيهاب الدماطي يقطن صديقه وأخو زوجته المهندس يوسف القطّان. للدقة يقطن يوسف في الطابق الذي يعلو طابق إيهاب، في شقة متماثلة مع شقة الأخير.

في منامته الزرقاء وقف رجل رياضي البنية أمام مرآة الحمام يستمع إلى خرير مياه الصنبور بشجن. قال مخاطبًا نفسه:

– معلش يا يوسف. النهارده الأربع فاضل يوم واحد والأسبوع يخلص.

تأمل الوجه المثلث الوسيم ذا الأنف المدبب والفم الرفيع الذي ينظر إليه من المرآة.

– نحلق والا..

غمز لنفسه وأنهى سؤاله: نحلق؟

– شكلك رايق يا يوسف.

نظر في المرآة لامرأة ذات شعر أسود قصي. وجهها قلبي الشكل يحتوي على عينين جميلتين

وابتسامة خلابة بين غمّازتين فاتنتين.

وضعت يدها على خصرها واستطردت: بس إنت حتروّق نفسك لمين بالظبط؟ إوعى تكون هتقابل زبونات فاتنات؟

قهقه ورد قائلًا: يا ساتر يا رب هو فيه في شغلانتي دي زبونات أصلًا لما يكون فيه فاتنات؟ يعني مفرفش شوية مع نفسي؟ ثم أنا أصلًا معرفكيش. مين سيادتك ولابسه بيجامة مراتي الخضرا ليه؟

لمح في يدها كف صغير فتبين له إنها تجر وراءها طفلًا لا يتعدى السادسة من عمره في زي مدرسة رمادي في أزرق. ظهر الطفل ذو الشعر الأسود الطويل والعينين اللتين تشبهان عيني أمه في المرآة. ابتسم هو الآخر وقد بدا عليه أنه مستمتع بمزاح والديه.

– أنا أم الواد ده. وإلا متعرفوش ده كمان؟

ردت بابتسامة تصنعت فيها الغلاسة.

التفت لهما وتصنّع الجدية وقطب حاجبيه قائلًا:

– لأ ده أنا اعرفه كويس. إسمه سمير أو مخيمر. مش متذكر. بس هو ساكن في الأوضة اللي

جنبي. أهلًا يا أستاذ مخيمر.

ببراءة علق الولد، ولسان حاله يقول إنتوا هتجننوني وإلا إيه على الصبح.

– أنا حسن يا بابا.

– إيه ده؟ بجد؟ حسن إبني؟

– شكلكوا هتطولّوا. قول باي باي لبابا يا حسّوكة و بوسُه يالّا وإلا هتتأخر علي المدرسة. الأتوبيس مستنيك تحت.

انطلق حسن ليحتضن والده وشنطة المدرسة تتهادى على ظهره يمينًا ويسارًا.

– عايز أقعد معاكوا يا بابا.

انحنى يوسف ليقبل ابنه.

– النهارده آخر يوم دراسة والإجازة جايّة وهنلعب لمّا نقول يا بس. وكمان بعد بكرة عيد ميلادك وهنبهدل الدنيا. يالّا باي باي يا حبيبي.

اعتدل يوسف وترك حسن لأمه التي أسرعت به لباب الشقة المفتوح. على باب الشقة وقفت سيدة ضخمة الجثة، زوجة السيد المحترم بواب العمارة.

ارتسمت ابتسامة عريضة علي وجهها الممتلئ ومدت كفها السمينة لتلتقف كف حسن الصغيرة.

– بسرعة والنبي يا أم أحمد. الأتوبيس واقف بقاله عشر دقايق.

– عينيا يا ست ليلي.

تناهى إلى مسامعهم صوت رفيع بدرجة مزعجة يدوي في منور السلم:

– يا أم أحمد!! فيه أوتوبيس مدارس سادد الشارع. ممكن عربية تحاول تتفاداه و تحك عربيتي.. قصدي عربيّات السكان.

صاحت ليلى:

– ثواني يا سيادة القبطان. الدنيا مش هتتهد. حسن نازل أهوه.

جاء يوسف مسرعًا وهو يضحك وقال:

– خفّي عليه يا ليلى.

ليلى بعصبية:

– مانتاش شايف. هيتهبل علي عربيّاته يا عيني.

صاح يوسف في المنور:

– حسن نازل أهوه يا أنور بيه. معلش..

منع نفسه عن الضحك بصعوبة و عاد أدراجه إلى الحمام.

هتف أنور بغضب:

– شكرًا يا باشمهندس. ثم سمعوا باب شقته يغلق بعنف. أشارت ليلى لأم أحمد كي تأخذ حسن وتنزل.

– وهو في طريقه للحمام دخل يوسف المطبخ بسرعة ومدّ يده أعلى وحدة الأطباق. التقط علبة سجائر قديمة وأخرج منها سيجارة ثم خبأ العلبة مكانها أعلى الوحدة مرة أخرى. وضع السيجارة في جيبه وخرج من المطبخ متجهًا إلى الحمام. سمع باب الشقة يغلق فنادى على زوجته ولكنه سمع صوتها في الصالة تتحدث مع شخص ما.

– النهارده عايزاكي تُنكُتي الأُوضه بتاعت حسن يا اعتماد والنبي. عايزاها بتلمع علشان بكرة جايين ناس يبصوا عليها.

– ليلى!

عاود يوسف النداء و هو واقف يحلق ذقنه

– يا لولو!

سمع صوت قدميها تقتربان.

– نعم نعم. معلش. كنت عايز حاجة؟

التفت لينظر لوجهها الذي أطل عليه من الباب وغمازتيها تزينان ابتسامتها.

– برضه مصممه على موضوع بيع أوضة حسن القديمة؟

– أيون. ردت بمرح.

– مش إحنا إتفقنا نجيبله واحدة جديدة في عيد ميلاده؟ أنا خلاص نزّلت الإعلان علي النت.

تنهد يوسف قائلًا:

– ماشي. بس قررتي هتجيبيله بديل منين؟

– أيوه. النهارده هلف أنا وسلمى في المول اللي قريب ده.

– سلمى؟ سلمى أختي؟ سألها باستغراب.

– هي اللي صممت. إنت عارف بتحب حسن قد إيه.

مسح وجهه بالمرشفة وأجابها:

– عارف. يا رب يعوّضها هي وإيهاب بالخلف الصالح.

* * *

٥

دفع يوسف الباب الزجاجي الرئيسي لمقر عمله ودلف وعلى كتفه حقيبة الكمبيوتر المحمول.

– صباح الفل يا باشمهندس يوسف.

نظر يوسف إلى مصدر السؤال فوجد رجل مسنّ ذي شعر أبيض مصفف على جنب ولحية ليست حليقة بدقة. يقف الرجل على يساره في ممر قصير به مطبخ صغير وباب للحمّام. له وجه مستطيل به عينان غائرتان يظِلُّهما حاجبان كثّان تنظران إليه بلا أدنى تفاعل.

– صباح الخير يا هارون. القهوة بقى.

– عيني. واستدار هارون كي يشعل النار تحت السبرتاية.

اتجه يوسف إلى غرفة مكتبه مارًّا بمكتب السكرتيرة رقيقة الملامح ذات الحجاب البسيط. كانت منهمكة في الكتابة على الكمبيوتر.

– إزيك يا رضوى؟ الدكتور شريف جه؟

بدون أن تتوقف عن الكتابة حولت نظرها الي يوسف في تمكّن عالي: الحمد للّه. آه هو جوّه ومعاه كلاينت.

ابتسم يوسف محاولًا ألا تبدو ابتسامته ساخرة من كيفية نطق رضوى بكلمة زبون بالإنجليزية. تركها واتجه يمينًا إلى غرفة مكتبه في آخر الممر. عند دخوله الغرفة علم على الفور أن أحد ما دخل قبله. فعلى المكتب المتوسط الحجم يرقد ملف سميك.

– أحلى هدية لأجمد فورمة.

قالها من وضع كفه على كتف يوسف. أقارب وأصدقاء يوسف المقربين ينادونه أحيانًا بلقب (فورمة) بسبب اهتمامه الشديد بالرياضة.

التفت يوسف لرجل أدكن البشرة ذي اللحية على الموضة. وجهه دائري، وجسده ممتلئ ذو طول مماثل له. يرتدي بنطلونًا وقميصًا تكاد أزراره تنطلق كالرصاص كاشفة كرشه للعيان.

خلع يوسف جاكت البدلة الرمادية ووضعها على الكرسي قائلًا:

– مش عايز هدايا يا عادل وحياة أبوك. بتاع مين الملف ده؟

– دي هدية من دكتور شريف شخصيًّا. قضية لسه طازة أصحابها مطلعوش لسه من مكتبه.

– هم عنده جوه؟ سأل يوسف باستغراب وهو يعدل هندام قميصه الذي يظهر جسده الممشوق تحته.

– تخيَّل؟ القضية جاتلنا إمبارح ومتعرفش عرفوا إزاي وجُمّ تاني يوم.

– عايزين إيه المجانين دول؟ هم مش خايفين يلبسوا قضية رشوة؟

هز عادل كتفه وقال وهو يدخل مكتبه الملاصق لمكتب يوسف:

– يالا يا عمّ. بس متنسناش بقي في نسبتنا من السبُّوبة. شكلها قضية سُقع.

وقف يوسف على باب مكتب زميله عاقداً حاجبيه مصطنعًا الجدية: هبقى أشوفك بحاجة.

– تشوفني بحاجة؟ رد عادل ضاحكًا. إنت بس..

قطع كلامه عند سماعه السكرتيرة رضوى تنادي على يوسف:

– يا باشمهندس يوسف. الدكتور عايزك.

سمعوا صوت باب مكتب الدكتور شريف يفتح فانتفض عادل من جلسته ومال بجسده الضخم ليرى من سيخرج منه.

عجوز ضئيلة الحجم أنيقة بطريقة مبالغ فيها ذات شعر كستنائي مطعّم بكثافة من الشعر الأبيض خرجت من مكتب دكتور شريف. خرج خلفها رجل عملاق يرتدي بدلة سوداء تكاد تتمزق من على جسده المكدس بالعضلات.

استدارت لتحدث الدكتور شريف الذي لا يظهر منه شيء خلف البودي جارد:

– شاكرة يا دكتور علي وقتك وأرجو إني مكنش عطّلتك.

حاولت الابتسام لكن كمية أحمر الشفاه الذي تضعه حال دون تحرك شفتيها بسهولة فغيرت رأيها واتجهت للباب الزجاجي. أسرع الديناصور البشري بفتح الباب لها.

– نورتينا يا هانم. كان رد دكتور شريف وهو ما زال ممسك بباب مكتبه.

– إتفضل يا باشمهندس يوسف. قالت رضوى وهي تشير لمكتب دكتور شريف.

قبل أن تخرج السيدة الشمطاء من الباب الزجاجي حالت منها نظرة ليوسف بادلها بواحدة خالية من التعبير واتجه لمكتب مديره.

– يالّا يا هانم. هنستني كتير على الباب؟

قالها هارون بقسوة وهو يقفل الباب الزجاجي تقريبًا في وجهها. عبر زجاج الباب، وقف الساعي العجوز ممسكًا صينية القهوة يتبادل نظرة طويلة مع الحارس انتهت بأن جرّت المرأة العجوز حارسها من ذراعه وانصرفا. تعجب يوسف من هذه العدائية بين هارون والضيوف لكنه تجاهل الأمر. اتجه لمكتب الدكتور شريف لكن ليس قبل أن يلقي نظرة خاطفة علي نفسه في زجاج باب المكتب ليراجع مظهره.

– نجم يا ولاد واللّه.

التفت لمصدر تلك الجملة ليجد صديقه عادلًا ينظر إليه مبتسمًا فزجره بإيماءة من رأسه ودلف مكتب مديره.

جلس يوسف قبالة مديره يراقبه وهو ينهي محادثة تليفونية مع الوزارة. وضع هارون القهوة وانصرف. دكتور شريف عبد الباقي رجل قصير في الخمسين من عمره قوقازي من النوع الذي يبدو أنه وُلِدَ وعلى وجهه النظارة. غير متزوج وهذا قد يرجع لأنه يملأ فكرَهُ شيء واحد: الأنتيكات والمباني الأثرية والتراث المعماري. لهذا فمكتبه يعتبر مرجع لوزارة الآثار في قضايا المباني القديمة. عندما يأتي الاحتياج لمن يحدد العمر والأهمية التاريخية لمبنى ما يأتي دور مكتب دكتور شريف.

– متقلقش مش هحسسها بحاجة. بس أنا كان لازم أقول لسعادتك اللي حصل.

– ..

– العفو. ده واجبنا. أنا إدّيت الملف لأنضف مهندس عندي.

– ..

– كل اللي عندي عينهم مليانة و ولاد ناس. متقلقش حضرتك. اللي أنا إخترته كمان أكتر واحد عينه مليانة. إبن أصول بجد.

– ..

– ماشي يافندم. وعليكم السلام.

أنهى شريف المكالمة ووضع محموله علي المكتب. نظر ليوسف وأشار إلى قهوته.

– إشرب قهوتك.

تجهم وجه يوسف عند سماعه هذه العبارة: إبن أصول بجد. لكنه تناساها وإرتشف من قهوته قائلًا:

– كده أنا فهمت. هي مفتحتش سكة أو جسّت النبض يا دكتور؟

– الحقيقة لأ. شوية كلام يؤكد وجهة نظرها إن الفيلا بتاعتها معدتش المية سنة ومعمارها مش أثري وحاجات من دي. قلتلها هنشوف ومتقلقش، لو ليها حق هتَخْده.

وضع يوسف فنجان القهوة على الطبق وضرب سطح المكتب برفق ووقف فاردًا قامته قائلًا:

– ماشي. مع إني مشغول بعمارة الدقي وقصر المنصورية. إنما حاضر. هخلص معاييناتي النهارده وأبص في الموضوع بكره.

حملق في وجه رئيسه الذي زاد اكفهراره.

– إيه يا دكتور. فيه حاجة؟

ظل شريف صامتًا لثوانٍ ثم أجاب بنبرة جادة:

– الأرض بتاعة الڤيلا دي تساوي مية وخمسين مليون يا يوسف.

اتسعت عين يوسف ولكن شريف أكمل: مش بس كده. المشروع اللي الست دي ناويه تعمله عليها وصلني إنه بتكلفة فوق المليار. فخلّي بالك. دي أكبر قضية جت المكتب لحد دلوقتي. ممكن الضغط يبقي زيادة المرة دي. عايزك تتابع معايا خطوة خطوة وبلّغني لو حاولوا يتصلوا بيك.

يلعن أبو دي هدية.. قالها يوسف في ذهنه.

٦

مرت ساعات على ليلى وسلمى و هم يتنقلان من محل لآخر في المول التجاري. أعياهما المجهود فاستقرا في مطعم للوجبات السريعة في الدور الأرضي للمول. بعد وجبة خفيفة طلبا مشروباً ساخناً واندمجا في تفاصيل عيد الميلاد.

في فترة من فترات الصمت التي تخللت حديثهما انشغلت سلمى في متابعة موضوع ما على صفحة التواصل الاجتماعي. تأملتها ليلى وعلى وجهها ابتسامة حانية.رفعت سلمى عينيها من على شاشة المحمول وابتسمت لصديقتها قائلة:

فيه إيه؟

– حقيقي أنا حظي حلو. أخدت زوج وأخت في شَروة واحدة.

– حماتك يا بنت. أنا حماااتك.

قالتها سلمى مازحة.

قهقهت ليلى ووضعت يدها على فمها من الخجل وهي تنظر حولها بإحراج حين شعرت أنها ضحكت بصوت عالٍ. ثم استدركت قائلة:

– حماتي مين يا بنتي بس؟ وعمتك اللي ساكنة فوقينا على السطوح دي؟ دي بقي حماتنا إحنا الأربعة.

أيدت سلمى كلام صديقتها وقالت:

– آه واللّه. عمتي دي بتفكرني بآل كابون. حاجة كده زي ال God Mother. مبتهزرش الست دي.

– طالعالها إنتي شوية على فكرة يا سلمى.

– إزاي يعني؟

– جد كده وهزارك قليل. ولمّا بتهزري برضه بتبقى جد.

– يا سلام. كان رد سلمى الساخر.

– يا بنتي ده المكوجي بيخاف يجيبلكوا إنتي وعمتك المكوه بتاعتكوا وبيجيبهالي أنا.

ضحكا حتى دمعت عيناهما. لم يتوقفا إلا عندما دق محمول ليلي. قرأت اسم يوسف.

– واللّه أخوكي ده فيه شيء للّه.

ضحكت سلمى ودفنت عينيها في المحمول مرة أخرى.

– أيوه يا سوفو. أيوه يا حبيبي.

– ..

– أنا في المول مع أختك.

– ..

ضحكت بطريقتها المميزة. عضت شفتيها وأغمضت عينيها بقوة ووضعت يدها على السماعة. همست لسلمى التي تركت المحمول لتلتفت لها:

– بيسألني على الڤيزا.

كتمت صديقتها الضحكة واستمعت لحديث ليلى مع أخيها.

– لأ مخلصتهاش واللّه. دي حاجات بسيطة خالص. ما صرفتش كتير.

– ..

– مش مصدقني طب كلّم سلمى.

أعطت سلمى المحمول فالتقطته الأخيرة وقالت بطريقتها الرزينة:

– أيوه يا يوسف.

صوت يوسف مرتفع من الطرف الآخر.

– يابني هي مش هتبيع الأوضة القديمة؟ متقلقش. أنا معاها.

– ..

قاومت الابتسام وقالت:

– يا بني واللّه.. الڤيزا لسه..

لم تتماك نفسها فابتسمت ومدت يدها بالمحمول لليلى:

– خدي كلميه إنتي. هاروح الحمّام.

أخذت منها ليلى المحمول وقالت: أيوه يا سوفو.

– ..

ذابت ابتسامتها وردت بنبرة جدية وصوت منخفض وهي ترمق سلمى التي ابتعدت عنها.

أعطت سلمى المحمول فالتقطته الأخيرة وقالت بطريقتها الرزينة:

– أيوه يا يوسف.

صوت يوسف مرتفع من الطرف الآخر.

– يابني هي مش هتبيع الأوضة القديمة؟ متقلقش. أنا معاها.

– ..

قاومت الابتسام وقالت:

– يا بني واللّه.. الڤيزا لسه..

لم تتمالك نفسها فابتسمت ومدت يدها بالمحمول لليلى:

– خدي كلميه إنتي. هاروح الحمّام.

أخذت منها ليلى المحمول وقالت: أيوه يا سوفو.

– ..

ذابت ابتسامتها وردت بنبرة جدية وصوت منخفض وهي ترمق سلمى التي ابتعدت عنها.

– أعمِلّها إيه يعني أختك دي يا يوسف؟ مكنش ينفع. لو كنت جيت من غيرها كانت فعلًا هتزعل وتزوّد الحساسية عندها. هي متعاملة مع الموضوع عادي من زمان وبتعتبر حسن إبنها. وهي فعلًا عمته يعني زيي بالظبط.

– ..

– بص إنسى الموضوع ده. سلمى خلاص تأقلمت علي وضعها هي وإيهاب.

– ..

– لأ هي مش زعلانه. أعتقد. يعني من إمتى أختك دي بيبان عليها أصلًا؟ خلاص بأه علشان جاييه. يلا سلام.

نادت على النادل:

– الحساب لو سمحت.

في نفس اللحظة التي نظرت ليلى فيها حولها بحثًا عن النادل، تباطأت سلمى ونظرت لنفسها في زجاج المحل المجاور. مسحت وجهها لتتأكد من خلوه من آثار الدموع.

٧

في زيه الميري، جلس إيهاب خلف مكتبه وعلى وجهه تعبير صارم. يحدق بشرود في صورة قابعة على مكتبه لضابط أشيب يشبهه إلى حد كبير ذي نسر على كتفيه. الصورة للضابط وهو يجلس على مكتبه وكؤوس بأحجام مختلفة متراصة عليه. هناك وسط الكؤوس زجاجة غريبة الشكل كأنها ساعة رملية تبدو للوهلة الأولى كجائزة ما. أخذ يستمع إلى عرض الأحوال من نقيب يجلس أمامه قوي البنية أبيض الوجه حليق الرأس تمامًا. توقف الأخير عن سرد الأحوال وتوجه إلى إيهاب بالسؤال:

– إيهاب بيه، سيادتك معايا؟

– أيوه معاك. كمّل يا سعيد.

التفت سعيد للصورة وقال:

– والد سيادتك، مش كده؟

– أيوة. قالها إيهاب وهو يرجع ليريح ظهره على الكرسي.

– كان ماسك فين؟

أجاب إيهاب باقتضاب ونفاد صبر:

– في الجيزة. كمّل يابني.

تنحنح سعيد ونظر مجدداً للدفتر الذي بيده. قبل أن يكمل قال إيهاب:

– عدِّي الكلام ده وهاتلي موضوع الكمين بتاع النهارده.

أغلق سعيد الدفتر قائلًا:

– هو لسه ماتحطّش في الأحوال سيادتك. دول يادوبك لسه مدخلين الركاب الحجز وبينزلوا الميكروباص من على الونش بره.

هب إيهاب واقفًا وقال:

– يعني وصلوا وما قلتليش يا سعيد وقاعد تاكل دماغي بنشّالين وخناقات ستات مع إجوازها. يالا بينا.

* * *

عاقداً يده أمام صدره، استند إيهاب إلى باب مبنى القسم أعلى السلم. القسم عبارة عن ڤيلا قديمة مكونة من طابقين استُخدمت لخدمة الجهاز

الأمني المصري. أخذ يراقب ضمن مجموعة من الضباط أقل رتبة، من بينهم سعيد، إنزال الميكروباص من مؤخرة سيارة الإنقاذ التابعة للداخلية. عملية معقّدة أشبه بولادة قيصرية لأنثى الماموث المنقرض. جنازير وتروس صدئة تئن في محاولة الاستجابة ليد التحكم التي يسيطر عليها عسكري متمكّن لكنه لا يرحم سنها. يتعجله الصول سعفان فالمقدم إيهاب ومعه لفيف من الضباط ينتظرون بفارغ الصبر الكشف على الميكروباص.

هو يعلم جيداً طباع المقدم إيهاب, فهو أكثر الضباط جدية رأس قوة القسم والصبر ليس من أفضل شيمه.

زمجر إيهاب وهم بنَهْر المجموعة المعنية بالعملية البسيطة لكن لفت انتباهه صوت نباح كلاب غاضبة. باب غرفة الكلاب على يمين السلم فُتِح ليخرج منه عسكري ووراءه رأي إيهاب الكلاب في حالة هياج. رجّ نباحهم أنحاء المكان. ما إن أغلق العسكري الباب حتى تضاءل صدى النباح وراءه.

– مالهم دول يا وليد؟ سأل إيهاب.

رد عليه ضابط ضخم الجثة فاره القامة:

– مش عارفين سيادتك. من ساعة ما الميكروباص ده بالناس بتوعه وصلوا القسم والكلاب مش على بعضهم.

من خلفهم ظهر النقيب أيمن لينضم للمجموعة الواقفة أعلى السلم وتبادل نظرة قلقة مع سعيد.

دون أن يلتفت إليه قال إيهاب:

– ودِّتهُم التخشيبة يا أيمن؟ – Done من بدري سيادتك. بس..

التفت إليه إيهاب وسأله: بس إيه؟

– ممكن حضرتك تيجي تبص؟

نظر إيهاب للميكروباص ورأى أن عملية الإنزال قد واجهت بعض المشكلات كانت نتيجتها أن تعلق الميكروباص نصفه في الهواء والنصف الآخر على مؤخرة الونش. أخذ نفسًا عميقًا واستدار ليدخل القسم قائلًا لأيمن:

– تعال ورّيني إيه المشكلة.

* * *

بنفس الوضع، وقف إيهاب عاقداً يديه أمام صدره وحوله ذات اللفيف من الضباط. وقفوا جميعهم يتناوبون النظر داخل الزنزانة رقم ٣ من خلال نافذتها الصغيرة.

– هم على وضعهم كده من ساعت ما جبتوهم؟ سأل إيهاب.

رد أيمن قائلًا:

– تقريبًا. حاولنا نعرف منهم أي حاجة مكانوش بيردوا فاضطرينا نحطهم في الحجز لغاية ما سيادتك تيجي. كانوا مستسلمىن تمامًا لينا وإحنا بنسحبهم واحد واحد من الميكروباص للزنزانة. زي ما يكونوا منومين مغناطيسيًّا.

أضاف النقيب وليد بصوته الأجش:

– حتى وإحنا بنستجوبهم سيادتك، مكانوش بيتفاعلوا مع وسائلنا. يعني.. احم.. شوية التلطيش البسيط مكانوش بيحسوا بيه. أكيد شاربين حاجة سيادتك.

استمع إيهاب لمعاونيه وهو يتأمل الموقف العجيب داخل الزنزانة.

استطرد أيمن:

– دخَّلنا السواق الأول. أول ما دخل وقف مطرح ما حطيناه متحركش خطوة ولا عبَّر المساجين و هما بيستقبلوه أو، زي بيقولوا، بيحَفِّلوا عليه. شتموه وزَقوه وخبطوه ولا الهوا. راح الصول سعفان، ونظر إلى سعفان الذي رفع يده بهَطَل أن (أنا) فنهَرَه أيمن بعصبية وأكمل: راح الصول سعفان قاعّدُه علي جنب في نفس المكان اللي سيادتك شايفه ده. في ال corner.

إيهاب من بين أسنانه:

– بلاش زفت إنجليزي. وبعدين؟

أيمن مستطرداً:

– الأتنين التانيين نفس القصة. جرجرناهم لمكانهم ده ومن ساعتها وهم زي التماثيل مبيتحركوش. زي ما سيادتك شايف كده.

قبل أن يكمل أيمن كلامه هتف أحد المسجونين من داخل الزنزانة:

– يا باشا والنبي يا تحبسنا في زنزانة تانية يا تحبسهم هم. إيه يا باشا القلق ده؟

– إنت هتمشي القسم على مزاج أهلك؟!

صرخ فيه أيمن أما إيهاب فرمق المسجون بتأنٍّ وقد لاحظ التوتر الذي يعتريه. خبرته تقول أن هذا المجرم عتيد الإجرام.. خائف.

نظر إيهاب للركن الذي أشار إليه أيمن فرأى ثلاثة رجال في زي فلاحي يجلسون دون حراك على الأريكة الإسمنتية. أحدهم طويل رفيع والثاني بدين قصير أما الثالث فهو ضخم الجثة عريض المنكبين. حالتهم مزرية وعيونهم ثابتة على الأرض أمامهم.

– يا باشا طب ودّيني حبس إنفرادي.

التفت إيهاب للمتحدث فوجده مجرم آخر من النوع الذي يتنفس أذى للخلق ورأى علامات الخوف ذاتها في ملامحه. دار بعينيه في وجوه باقي المساجين فوجد حالتهم أسوأ. عيونهم على الشباك الباب الصغير ولسان حالهم متفق مع ما يقوله كبيرهم.

– ياد يابن..

انفجر الصول سعفان هذه المرَّة وخطا باتجاه الزنزانة.

– إستنى يا سعفان.

تدخل إيهاب في الحديث بلهجة حازمة وهادئة.
خرّجلي كل المساجين ووزعهم علي التخشيبة وسيبلي التلاتة الجداد هنا.

– يسلم فُمك يا سيد الباشاوات. صاح أحد المساجين.

***

من داخل الزنزانة راقب إيهاب عملية إخلاء. وقف في الركن الأيمن المجاور للباب في وقفته المعتادة، يداه معقودتان أمام صدره وكتفه مستندة إلى الحائط. عيناه ثابتتان على الركاب الثلاثة الجالسين دون حراك في الركن المقابل.

– تمام يا باشا.

بلّغه سعفان معلنًا بفخر نجاحه في عملية نقل المساجين إلى زنزانة أخرى. نظر إيهاب بطرف عينيه إليه فوجد قميصه يتدلى فوق كرشه والإرهاق بادٍ على ملامحه لكنه أيضًا لاحظ نظرات الصول القلقة إلى الركاب.

– أيمن!

نادى إيهاب بصوت متوسط الارتفاع ولكنه كان كفيلًا أن يجعل الصول ترتعد أوصاله ويهتز كرشه. ثم أغمض عينيه محاولًا السيطرة على نفسه.

– متتعدل يا سعفان. أمره إيهاب بلهجته الحازمة.دول شوية عيال مبرشمين. إمسك نفسك شوية.

– حاضر يا باشا. حاضر.

كان رد سعفان ثم ضرب تعظيم سلام وغادر الزنزانة مسرعًا. في طريقه اصطدم بأيمن الذي سبّه غاضبًا بالإنجليزية وهو يدلف الزنزانة. مد يده لإيهاب بثلاث بطاقات شخصية.

– بطايق العيال دول سيادتك.

لاحظ إيهاب أنه أيضًا عيناه على النزلاء الثلاثة. أخذ البطاقات من أيمن وقال:

– لأ. واضح إن الموضوع ضاغط على أعصابكوا. روح سلّم نبطشيتك لوليد وروّح.

– حاضر يا إيهاب باشا Thank you.

– هعديهالك المره دي. يلا روح. بس أطلب الطبيب الشرعي الأول.

– حاضر. التفت أيمن ليغادر لكن استوقفه نداء إيهاب.

– أيمن. سؤال قبل ما تمشي. إنت شفت اللي هرب من الميكروباص؟

تلعثم أيمن في الرد.

– واللّه سيادتك. مش عارف.

– يعني ولا لمحت شكله إيه حتى؟

– الحقيقة أنا حاسس إنه كان كلب أو حيوان في حجمه. مش عارف إزّاي كلب يفتح الباب بس اللي لمحته كان حاجة شبه كده. ده غير أنه كان قصير في طول شجر الرز اللي جرى فيه.

– كلب؟ تساءل إيهاب بضيق. ماشي. روّح إنت.

تابعه إيهاب وهو يبتعد ثم التفت لينظر في الزنزانة. الآن وقد صار وحيداً مع أغرب نزلاء رآهم في مهنته، وقف يراقبهم. في الجهة المقابلة له، بعيداً عن المصباح الوحيد الذي يتوسط سقف الزنزانة ذات الأربعين متراً مربعاً، ما زال الرجال الثلاثة

يجلسون في أماكنهم لا يتحركون. عيونهم محدّقة لمكان ما على الأرض أمامهم.

نظر في البطاقات وقرأ الأسماء.

– عوض وإسماعيل وصبحي. إيه حكايتكوا؟ همس إيهاب لنفسه ثم خرج وأغلق الزنزانة.

* * *

٨

– غيّر القناة. بلاش الأغاني العجيبة دي. إنت عارف إني مبحبش الأغاني القديمة.

بعصبية قال يوسف لسائق عمته عند سماعه صوت محمد رشدي يشدو بأغنية ما. مد السائق يده ليغلق المذياع فهدأ يوسف والتفت ليتأمل النيل. تجري مياه النهر بجواره والسيارة ذات الدفع الرباعي التي يركبها ثابتة في مكانها لا تتحرك.

– يعني أنا لو كنت ركبت مركب كنت وصلت البيت من ساعة.

أرخى الكرافتة وأغلق عينيه مريحًا رأسه على المسند الخلفي للسيارة. في كف يده جهاز رياضي صغير لتقوية عضلات اليد يستخدمه عن طريق بسط كفه وقبضه. في يده الأخرى سيجارة غير مشعلة يقلبها بين أصابعه بنفس إيقاع استخدامه لجهاز التقوية باليد الأخرى.

صوت هادئ عقّب على كلامه.

– هو الكورنيش بيبقى زحمة في الوقت ده يا باشمهندس.

رد يوسف:

– عارف بس النهارده زيادة شويه.

– لسه بتكره الأغاني القديمة يا باشمهندس؟

– لسّه. قالها يوسف باقتضاب دون أن يفتح عينيه.

– بس بقالك كتير مجبتش معاك الشغل البيت.

فتح يوسف عينيه لينظر في مرآة السيارة. تطل عليه عينان عميقتان تحت حاجبين كثّين في وجه مثلث عجوز ذي أنف طويل وشارب كث. كلٌّ من شعره وشاربه مصبوغان بالحناء مما أعطاه طابع كالهنود. حوَّل نظره للملف الراقد بجانبه على الكنبة، والذي كُتب عليه بخط عربي جميل (بيت المعادي).

– قضية مستعجلة ولبَش شوية. عايز أخلَص منها بأسرع وقت.

– ربنا يعينك. طبعًا علشان تفضي لعيد ميلاد البيه الصغير. كل سنة وأنتم طيبين.

– شكرًا يا هارون. وأنت طيب.

– مالك يا يوسف يابني؟

صحيح مالك يا يوسف؟ سأل نفسه. إيه اللي حصل غيّر مودك كده؟

تذكر كلام شريف.. إبن أصول.

ما معنى هذه الكلمة؟ هل ترمز إلى غني أهله أم إلي مركزهم الاجتماعي المرموق؟ هل تعني أن جذوره ممتدة ومعروف أصولها من أجيال مضت؟ أم تعني أن أهله ذوو سمعة جيدة أم أنهم أهل كرم؟

إنه يكره هذا التصنيف فهو لا يشعر بأصوله تلك. والفضل في هذا هو شخص واحد. شخص واحد يقف بينه وبين (أصوله). شخص واحد يحجب عنه تاريخ عائلته ويجعله يشعر بعدم الانتماء. هذا الشخص هو عمته.. توحيدة عبد العظيم القطّان. عمته التي يعتبرها أباه وأمه هي من يعلم كل شيء عن ماضيهم الغامض، ولسبب ما أكثر غموضاً منعت يوسف وأخته سلمى من معرفة أي شيء عنه.

هذا الشعور طالما ربض في أعماق يوسف وشكّل جزءاً كبيراً من شخصيته. على الرغم أنه يعلم بعراقة عائلته لكن الإرث الذي احتفظ به هو نفوذهم وثروتهم. فهو لا يشعر بالانتماء إلى الريف

حيث قريته التي تركها وهو في الرابعة ولا إلى القاهرة التي لم يولد فيها.

إنه يكره هذا التصنيف.

فهو يرى أن كل إنسان له أصول ولا يرى ما يميزه عن أحد إلا أفعاله ومكتسباته الشخصية.

قطع هارون حبل أفكاره.

– خلّي بالك يا يوسف يابني لحسن رجلك تيجي في الخيّة وترجع تشرب سجاير تاني.

– ماتخافش يا هارون. دي بتساعدني أهدى بس. مش هولعها. السيجارة اللي في إيدي دي بقالها فوق السنة. ثم أغلق عينيه مجدداً لكنه ما إن فعل حتى دق هاتفه. أخرجه ليجد المتصل نمرة غير مُسجلة.

– ألو؟

–..

– مساء النور. مين معايا؟

–..

– أيوه أنا المهندس يوسف. مين معايا يا فندم؟

–..

– حاجّة سميّة مين؟

تجهم وجهه واعتدل في جلسته.

– أهلًا وسهلًا. خير يا فندم.

استمع يوسف لحديث طويل لم يبدُ لهارون السائق الذي راقبه في المرآة أنه راق له. بعد أكثر من عشر دقائق تحركت فيها السيارة عشر أمتار قال يوسف:

– دي تفاصيل مهمة فعلًا يا هانم بس هي مش في الملف؟

–..

– مش كلها ليه؟ المفروض إن كل المعلومات تكون في ملف القضية علشان نعرف نحكم مظبوط.

–..

– عمومًا كون إن حضرتك معاكي صور بتوضح إن المبنى مكنش موجود سنة ١٩٦٠ يبقي أكيد المعاينة حتوضح الكلام ده. يبقى بالتالي المفروض متقلقيش.

–..

– معلومات تانية إيه؟ سأل محدثته وقد قطب حاجبيه باستياء. بدأت السيارة في التحرك بسرعة تاريخية حتى أن السائق حول عصا التحكم بالفتيس للمستوى الثاني.

– مينفعش حضرتك نتقابل ولا حتى المكالمة دي المفروض تحصل. بس أنا هسبّق بحسن النية وأعتبر إنها لفتة لطيفة من حضرتك للمساعدة. بس لو سمحتي متتكررش تاني.

–..

– معلش أعذريني. شكرًا. السلام عليكو.

أنهى المكالمة بشيء من العصبية وألقى المحمول على الكنبة بجانبه.

– شكلها قضية غَبرة.

* * *

أوقف هارون السيارة بجانب العمارة وسحب يوسف ملف القضية وشنطة الكمبيوتر المحمول ونزل من السيارة تاركًا الأداة الرياضية.

صوت ذو نبرة رفيعة أشبه بأداء كارتون أطفال ناداه من ورائه:

– يا باشمهندس لو سمحت!

التفت ليجد جاره العجوز ذا الجسد الرفيع والظهر المحني.

وجهه يختفي خلف نظارة سميكة لكن رغم كبر سنه الواضح يبدو أنه يتمتع بصحة جيدة. يرتدي بذلة سبعينية وحذاء ستّينيًّا جعلت يوسف يبتسم مما أثار حفيظة محدثه أكثر مما جاء به.

– مش فاهم إنت مبتسم على طول ليه كده؟ هو فيه حاجة في جيلكوا تفرّح؟ طب فرحنا معاك.

قالها وهو يترك باب سيارته ذات الماركة الأمريكية والموديل القديم ويتقدم ناحيته. لكنه عاد لسيارته بسرعة ناظرًا لكل من حوله بارتياب كأنه يخشى على سيارته من السرقة. بشك رمق هذه المرأة العجوز التي تمشي بصعوبة بجانب سيارته.

أشار يوسف لهارون بالانطلاق بالسيارة وتقدم إلى جاره.

– صعب شوية إن الست دي تكون عايزة تسرق عربيتك. خير يا أستاذ أنور؟

ازداد صوت أنور حدة:

– إحنا مش قلنا حضرتك، وإترَجّيتكوا واحد واحد. لو سمحتوا محدّش يسدّ باب العمارة.

فتح يوسف عينيه غير مصدّق. لكن أنور أسرع موضحًا موقفه – مش قصدي على دلوقتي يا باشمهندس. الصبح جت عربية مع المدام بتاعة حضرتك شايلة عفش ووقفت يجي ساعة بتنزّل في حاجات.

– ساعة بتنزّل في عفش! صاح يوسف ونظر إلى بلكونة بيته في الدور الثاني.

نهارك إسود يا ليلى. شكلك خربتي بيتي. عيد ميلاد واد عنده خمس سينين ده والا بتجهزيه علشان هيتجوز.

– يا باشمهندس.

انتبه يوسف إلى محدثه.

– معلش لا مؤاخذة.

– حضرتك معايا والّا لأ؟

نظر يوسف لمشهد يحدث خلف أنور جعله يسترد ابتسامته.

– تمام يا فندم. حاضر. عينيه.

انتفخت أوداج أنور غضبًا.

– على العموم أنا كنت..

حانت من أنور التفاته خلفه، للمكان الذي كان ينوي أن يركن سيارته فيه، ليجد السيارة ذات الدفع الرباعي الذي نزل منها يوسف لتوه رابضة في نفس المكان.

– يا بن ال..

هتف أنور وأسرع لسيارة يوسف، ولكنه توقف بغتة عندما نزل منها هارون بجسده الفاره الطول.

– واللّه لأشتكيك لتوحيدة هانم. واللّه يا هارون ما هتعدي المرة دي. واللّه ل..

كف عن صراخه عندما التفت إليه السائق الضخم وأغلق باب سيارته بقوة، انتفض على أثرها أنور وتراجع خطوتين.

– إيه؟ بتخوفني بطولك ده؟ ده وأنا في الخدمة كان تحتيا ألف واحد زيك. ده أنا..

– طاب سلام أنا بقى.

قالها يوسف لكن أنور لم يسمعه بل ظل على مسافة آمنة من السائق يتوعد ويصرخ.

قبل إن يدخل يوسف عمارته دق محموله.

– أيوه يا حيدة. لأ مفيش. الخناقة بتاعة أنور بتاعت كل يوم. بس المرة دي مع السواق بتاعك.

– ..

نظر للدور الأخير بعمارته الذي هو نفسه السطح فرأى امرأة عجوز ذات شعر أبيض كالثلج ووجه دائري نحت الزمن فيه أسراره تقف بجوار السور. نظرها موجّه للأمام ويدها ممسكة بالسور واليد الأخرى واضعه المحمول على أذنها.

– أنا شايفك أهو. طبخلنا إيه يا عمتي؟

–..

ضحك وقال: هعدي عليكي. سابقيني لحد باب شقتك.

ودخل عمارته جريًا.

٩

صعد يوسف سلم العمارة قفزًا. هذا هو الطابق الأول الذي يسكن فيه القبطان المتقاعد أنور السيد القمصي وحرمه الغائبة الحاضرة دكتوره سوسن. في نفس الطابق يقطن الأستاذ خليل حنّا. وهذا هو الدور الذي يقطن به إيهاب صديق طفولته وزوج أخته. وهو نفس الطابق الذي يسكن فيه أستاذ فاروق وحرمه.

ما إن وصل إلى الدور الثالث والذي يسكن فيه حتى رأى سلمى تخرج من شقته وهي تودّع ليلى.

– إستنى متقفليش. صاح بصوت لاهث.

– بِسْم اللّه الرحمن الرحيم. رعبتني يا يوسف.

قالت سلمى وهي تضرب صدرها بكفها.

ضحكت ليلي وقالت:

– هات هات. بتسابق عمتك تاني؟

أعطاها يوسف شنطته وملف القضية وطار للدور العلوي وسط قهقهة المرأتين.

مقطوع النفس، تباطأ يوسف وهو يعبر الطابق الذي لا يسكنه أحد لسبب لا يعلمه و الذي يقع بين طابقه والسطح. لقد بنى والد إيهاب، العميد يسري الدماطي، ربع سطح العمارة كشقة لتوحيدة القطّان عمة يوسف وأعطاها ربعًا آخر كي تستخدمه كحديقة نباتات وعشة حمام. أما النصف الخلفي فيخدم على المشاع لسكان العقار. صعد يوسف الدرج الأخير وهو يكاد يقع من الإعياء ثم سمعها تقول له بنبرة لا يميز فيها المزاح من الجد:

– رياضة إيه بقى يا إبن أخويا اللي بتلعبها وإنت بتنهج من ستة أدوار.

رفع عينيه ليرى عمته تقف على باب شقتها.

– خم..خمسة. رد بنفس مقطوع. نظر إليها مليًّا وهز رأسه متعجبًا.

– يعني أنا رياضي, وأخدت أقل من دقيقة علشان أطلعلك وبرضه سبقتيني. أمال لو كنتي عندك عشرين سنة كنت عملتي فيَّ إيه؟

لملمت رداءها النبيتي اللون واستدارت لتدخل قائلة:

– ما أنا عندي عشرين سنة يا ولد. تعال أدخل يا دلّوعة عمته.

ركع يوسف عند دخوله الشقة محاولًا التقاط أنفاسه وسند بيده علي كرسي السفرة العتيق ذو الظهر العالي. رفع عينه ليرى عمته وقد استندت إلى عكازها وتركت المدخل الذي هو نفسه غرفة الطعام.

اتجهت لكرسيها المفضل بجانب الجرامافون الذي يرقد على طاولة أنيقة في الصالون. يجلس الجرامافون بجانب النيش الشهير الذي تضع فيه عمته متعلقاتها الممنوعة اللمس.

قالت له عمته:

– بعد بكره الجمعة وهروح لجدك القرافة.

تمكن أخيرًا من التقاط نفسه وذهب إليها قائلًا:

– إشمعنى يعني؟ ده إنتي بقالك فوق السنة ما رحتيش. كده مش هتلحقي عيد ميلاد حسن.

لم ترد عليه. فهي كعادتها تلقي بالمعلومة دون انتظار رد أو تعقيب أو موافقة. تنهد يوسف قائلًا:

– ليلي وسلمى كانوا مع بعض النهارده.

– عارفة. قالت وهي تجلس وتوجه عينيها إلى الشيش المؤدي إلى السطح.

– كانوا بيشتروا حاجات عيد ميلاد حسن.

جرّ أحد كراسي السفرة ووضعه بجانبها. لاحظ صينية عليها فنجانا قهوة أحدهما فارغ والآخر نصف فارغ. الأبخرة توضح أن القهوة ما زالت ساخنة.

– إنتي كان عندك ضيوف؟

لم ترد على سؤاله وقالت:

– بنت حلال أختك. والواد إيهاب ده إبن حلال.

يعرف يوسف أنه لن يستطيع إجبار عمته على إجابة سؤاله عن فناجين القهوة فجاراها قائلًا:

– مش إنتي اللي مربياه. مين يشهد للعروسة.

– بلدي قوي إنت يا إبن القطّان.

ضحك يوسف من تعليقها والنبرة الجادة التي تتكلم بها دومًا حتى وهي تمزح. وإن كان في أحيان كثيرة لا يستطيع التمييز بين المزاح والجد في حديثها.

– ربنا يرزقهم العيل اللي نفسهم فيه. قال يوسف.

عقّبت توحيدة سريعًا:

– كده أحسنلهم.

تعجب يوسف وهم بالاعتراض لكنها أضافت:

– اللي ربك يكتبه هو الأصلح. الرزق لمّا بيجي أو بيتقطع بيبقي في الآخر إختبار. فبلع كلماته.

– زي موضوع القضية اللي جاتلك النهارده. إيه حكايتها يابن علي؟

– هو هارون لحق يبلغك؟

ثم تدارك شيئًا.

– هو أصلًا مطلعش لسه. قالك بالتليفون؟ للدرجة دي الدقة في توصيل الأخبار؟ أنا عديت التلاتين سنة من شوية حلوين يا عمتي وزي ما إنتي شايفة...

قطع جملته وهو يرفع ذراعه ليريها عضلاته مازحًا.

– فورمة شديدة. يعني ما يتخافش عليّا.

ملامحها ظلت صارمة مما جعله يتخلى عن هزله ويقول:

– لسه معرفش. بس بدايتها مش تمام. ملايين متلتلة بين إيديا وبقرار مني ممكن أولع فيهم وأطيرهم.

ظلت صامتة لفترة طويلة لم يسمع فيها يوسف إلا أصوات الحمام على السطح. نظر للخارج فوجد أسراب الحمام قد عادت إلى عشها بنظام رباني عجيب ورأى السماء قد اتشحت بالسواد معلنة بدء حكم المساء. حانت منه نظرة خاطفة للسلم الخشبي الذي يتوسط السطح والذي لا يقود لأي مكان. فقط ينتهي في الفراغ بالقرب من السور كأنه كان مخطط له أن يصل لبناء لم يتم. في نهاية السلم يتدلى مصباح مثبت به صفيحة. كان هذا السلم من ألغاز عمته التي لم يستطع أحد معرفة سبب تمسكها به.

قام من جلسته وقد شعر أن عمته قد ذهبت في النوم برغم عينها المفتوحة.

– طيب هأنزل لليلي قبل ما تموتني.

مد شفتيه ليقبل الشعر الثلجي اللون ثم سمع الجرامافون يحشرج وأغنية ما تكافح كي تتنفس.

عندما وصل لباب الشقة سمع لهجة فلاحي نادرًا ما تستخدمها عمته:

– إعتذر عن الجضية دي يا يوسف. الإمتحانات جايه كتير يا ولدي. اللي تقدر تفاديه منها فاديه. خصوصًا اللي عياره تجيل زي إكده.

– هفكر يا عمتي متقلقيش.

دخل يوسف شقته ويُصدم من كم الأشخاص والحركة التي تملأ البيت. عمال يدهنون الحوائط وآخرون ينقلون الأثاث. هذه زوجة عُوده البواب تقود عملية التنظيف وتغليف الثمين بمساعدة امرأتين في لباس فلاحي مماثل لما ترتديه. استنتج يوسف أنهما زوجتا بوابين من العمارات القريبة. هذا وإن كان لا يستطيع التأكد من هوية المرأة الكبيرة في السن التي تستند إلى البوفيه والإرهاق بادٍ عليها بشدة. لم يسعه إلا أن يلحظ الخلخال الذهبي التي ترتديه في قدمها اليسرى مما جعله يبتسم و يعقد حاجبيه باستغراب.

وقف يوسف غير مصدق ما يراه حتى ظهرت زوجته من وسط المعركة كقائدة أسطورية مسلّحة بمقشّة. باقتدار تحسد عليه، أخذت تعطي الأوامر الصارمة للجيش الذي احتل بيتهم.

– إحم.. ليلي.

على استحياء ناداها فهو يخشى أن تنتبه إليه إحدى الكلاركات المتنكرة في زي فلاحي فترفعه وتغلّفه كما تفعل مع الكومودينو.

– إزيك يا يوسف. على أوضتك لو سمحت.

رفع حاجبيه مصعوقًا وكرر نداءه:

– ليلى. بتعملوا إيه؟

لم تنتبه له حيث أنها أخرجت من حلقومها صيحة أشبه بفرقعة إطار سيارة.

– بتعمل إيه؟!! مين قالك إن الجزء ده هيتدهن بيستاچ؟

بهدوء وحنكة من يعلم زوجته جيداً اعتدل يوسف يمينًا ومد الخُطى لغرفة نومه. ما إن دخلها تراءى إلى مسمعه رنين هاتفه الذي يبدو أنه كان يدق منذ برهة لكن الموقعة الحربية بالصالة منعته من سماعه.

– إيوه يا بوب. معلش.

وضع يده على إذنه ليمنع صوت المكنسة الكهربية من مشاركتهم الحديث.

– مفيش. ليلى بتهد البيت.

–..

– تجديدات و كدة. أنا فعلًا كنت وعدتها إننا نجدد الشقة وشكلها استغلت عيد ميلاد حسن. المهم مالك يا إيهاب؟ صوتك ماله؟

–..

– طيب ماشي. لما تخلص كلمني ننزل شوية على القهوة.

–..

– هتروّح دلوقتي؟ طيب ساعة كده وهنزلّك. إتفرج على الماتش وهجيلك في أخره.

ارتمى على السرير ثم رفع رأسه لينظر لنفسه في مرآة الدولاب. للحظات تأمل وجهه ثم قام ليقف ونظر الي نفسه مجدداً في المرآة. أمسك عضلاته وشد عليها القميص كي تظهر بشكل أوضح.

فجأة دخلت ليلى فأنزل ذراعه من وضعها وسألها سريعًا والإحراج واضح عليه.

– أهلًا يا ست زانوبيا. ممكن أعرف إيه اللي بيحصل؟

ابتسمت وسألته:

– كنت واقف بتعمل إيه؟ بتقيس الجونلّة؟

– بلاش خفة دم. رد مصطنعًا الغضب. كل ده علشان عيد ميلاد ولد عنده خمس سنين.

ردت ببساطة: أيوه. إنت ناسي إتفاقنا؟

– لأ مش ناسي بس شكلك خربتي بيتنا. أنور قالي إن فيه عربية وقفت ساعة بتنزل عفش. هوّه فين ده؟

– ساعة؟ إيه المبالغة دي؟ ده يدوبك وقف عشر دقايق ينزل مكتب حسن الجديد.

تغير موقف يوسف وأضاء وجهه وسأل بنبرة طفولية:

– مكتب جديد؟ فين..فين؟

– أيوه ماهو داخل إبتدائي السنه اللي جايه وقلت أجيبهوله من دلوقت. تعالي إتفرج عليه.

وخرجا ضاحكين.

***

١٠

وقف كل من النقيب سعيد والنقيب وليد يتجاذبان أطراف الحديث مع إيهاب على مدخل القسم.

– على فكرة سيادتك، مكالمة واحدة من معاليك للواء راشد ممكن تفرق كتير معانا في حركة الترقيات الشهر اللي جاي.

كانت هذه مقولة وليد الذي اعتدل واقفًا بعد أن كان مستنداً إلى نافذة سيارة إيهاب.

– إيهاب باشا مش هيكلم حد يا وليد. قالها سعيد برزانة.

– خصوصاً من صديق والده.

– صحيح الكلام ده سيادتك؟ قالها وليد مخاطباً إيهاب.

لكن إيهاب ظل صامتًا يفكر.

العميد يسري الدماطي.

الضابط الذي تم تكريمه بعد وفاته وتم ترقيته من رائد إلى عميد.

الضابط الذي آوى توحيدة القطّان وأولاد أخيها دون أن يعرف أحد السبب.

الضابط الذي سطع اسمه لليلة واحدة ثم أصبح بعدها منسيًّا بالأمر.

ثم إذا ذُكر اسمه أمام رؤساء القطاعات نظر بعضهم لبعضٍ في صمت كأنما ذُكر شيء محرم.

والده..

الذي أقسم يومًا أنه سيذهب لمأمورية سريعة ولن يتأخر، لكنه لم يره بعدها.

العميد يسري الدماطي.. الضابط الذي اختفى. وليومنا هذا لم يعلم أحد ما الذي حدث له.

خلف مقود سيارته اليابانية الصنع، جلس إيهاب وهو ينصت إلى مرؤوسيه بذهن شارد. أشعل محرك سيارته وأضاء المصابيح الأمامية استعدادًا للتحرك.

مهلًا. هل هناك أحد في الميكروباص الرابض أمامه في ظلمة حديقة القسم؟

– إيهاب باشا.

قالها وليد محاولًا لفت انتباه قائده. أمسك سعيد بيديه وأومأ برأسه مشيرًا لما يحدق إليه إيهاب. بدون سابق إنذار، تحرك إيهاب بالسيارة ليواجه الميكروباص ثم أضاء النور العالي.

تبادل وليد وسعيد النظرات والتفتا لإيهاب.

– في إيه سيادتك؟

إيهاب: هو في حد في الميكروباص؟

التفتا إلى المركبة ودققا النظر في محتواها. لا شيء سوى بعض الظلال يلقيها ضوء سيارة إيهاب.

– مش شايف حد جوّه سيادتك. رد سعيد.

نظر إيهاب مرة أخرى للميكروباص لكنه لا يرى شيئًا.

– طيب. خلاص. روحوا على أشغالكوا ونتكلم في موضوع الترقيات دي بعدين.

ضرب سعيد تعظيم سلام وقال: تمام سيادتك.

تحرك إيهاب بالسيارة متجهًا خارج القسم وهو ما زال شارد الذهن. لا يدري ما هذا الشعور الغامض

الذي يعتريه ولكنه يجعله..

طاخ..

جفل إيهاب و التفت لمصدر الصوت. بدا له أن باب سيارته الخلفي قد أغلق بعنف.

هل كان مفتوحًا؟ من أغلقه؟

نظر للأريكة خلفه فلم يجد أحدًا. نظر حوله فلم يجد أحدًا بالقرب من السيارة.

– حد قفل باب العربية بتاعتي دلوقتي؟

سأل العسكري الوحيد القريب منه والواقف عند مدخل القسم.

نظر العسكري حوله بعدم فهم وتلعثم قائلًا:

– آآ..لأ سيادتك مشفتش حد.

نظر إيهاب مرة أخرى داخل سيارته وهز رأسه قائلًا:

– ماشي.

ثم انطلق متجهًا إلى منزله. لم تمر ثوانٍ ودق محموله.

– أيوه يا سعيد؟

–..

– لأ أنا ما شفتش الإخبارية. هم قالولك كام دكتور جاي؟

–..

– ياه ده كونسولتو. الموضوع كبير فعلاً ومحتاج كذا تخصص. هيجوا إمتى؟

–..

– كويس.

–..

– فيه إيه؟

–..

– لأ. مكانش فيه حد في العربية معايا وانا خارج من القسم.

–..

نظر في المرآة ورد قائلًا:

– لأ مافيش حد قاعد على الكنبة ورا. يمكن بيتهيألك.

–..

– تصبح على خير.

أنهى المكالمة ورمى المحمول علي الكرسي بجانبه والتفت لينظر مرة أخرى للأريكة. لكنه لم ير أحداً.

اللعنة على هذا الشعور.

* * *

يدخل إيهاب بسيارته جراج العمارة من الكورنيش. منزَلق ذو درجة حادة يؤدي إلى دهاليز من الأعمدة الخرسانية كالمتاهة. بعد مناورات عدّة استطاع الوصول إلى مكانه المعتاد. نزل من السيارة ووضع مفتاحه كعادته على السيارة المُغطاة بجانبه كي يلملم أشياءه المبعثرة على الكرسي والكنبة.

طق..

صوت باب سيارة يُغلَق. التفت لينظر في المكان فلم يجد إلا القبطان أنور واقف أمام سيارته الثانية- الألمانية الصنع ذات الموديل القديم. وضع أنور يديه في وسطه وتحرك خطوة يمينًا. تأمل الجانب الأيسر للسيارة بتغزُّل ثم فعل نفس الشيء للجانب الأيمن.

– ما شاء اللّه عربية عظيمة يا سيادة القبطان.

انتفض أنور ودار حول نفسه دورة كاملة يبحث عن مصدر الصوت كراقص باليه. عقد حاجبيه عندما رأى إيهاب على بعد ثلاثة صفوف من السيارات يفصلها عمود خرساني.

– شكرًا يا إيهاب بيه.

كان رده من بين أسنانه. واستدار متجهًا إلى باب السيارة ليركبها. سمع إيهاب موتور السيارة القديم يعترض على إيقاظه في هذا الوقت فهمس لنفسه: دلوقتي يقعد يسخنها ساعة ويقفلها ويطلع.

هز رأسه مستنكرًا ومدّ يده ليأخذ مفتاحه من فوق السيارة المُغطّاة.

تيت..تيت..

صوت جهاز تحكم يغلق سيارة. التفت ليرى أنور يلمع سيارته بمنديل فتبسّم وانطلق صاعداً لبيته تاركًا أنور في خلوته الشرعية مع سيارته المفضلة نمرة اثنين.

– دي موديل ١٩٨٥.

كان إيهاب قد صعد السلم وبات في الدور الأرضي. تسمر مكانه عند سماعه أنور يقول هذه الجملة.

– هاها. واللّه بحاول. أصل الموديل ده نادر. كانت الجملة بصوت أنور.

هو بيكلم مين؟ تساءل إيهاب.

ثم سمع أنور ينهي حواره: وإنت من أهله.

هز إيهاب رأسه وهمس لنفسه: رايحة منك خالص يا أنور.

***

II

توقف إيهاب في منور العمارة ليقرر: هل يصعد ليشارك زوجته وحدة شقتهم أو يلجأ إلى القهوة في الجهة المقابلة في التو والحال؟

تفاصيل الْيَوْم الطويل تلقي على كتفه همّا رماديّا ثقيلًا. لا يدري ما سبب هذا الإحساس الكئيب الذي تسلل إليه منذ أن رأى محتوى تلك الزنزانة.

منذ إن رأى الركاب الثلاثة.

وكلاب القسم.. ما الذي حل بهم؟

قرر أنه يحتاج إلى فاصل قصير بين تلك المشكلة وتلك.

مهلًا.. هل سلمى أصبحت مشكلة؟

بالطبع لا، فمشاعره تجاه زوجته تزداد قوة يومًا بعد يوم. فوجودها الهادئ الراضي في حياته يعطي التناقض الضروري الذي يعدل الكفّة أمام كل ما يراه في عمله. ولكنها تصبح واحدة أخرى عندما تحلّق فوق كوكب ابن أخيها.

فهي تحلّق وحيدة.

وتحلق بعيداً.

حسنًا، هي القهوة إذًا.

أخرج محموله الذي كادت بطاريته أن تنفد وهاتف يوسف ليخبره بقراره هذا. فتح باب العمارة الحديدي، واتجه ليعبر الشارع للقهوة البلدي التي هي بمثابة ملاذه الوحيد. جلس على أبعد طاولة عن جموع الزبائن كعادته.

جاء إليه قهوجي بجلباب بني اللون. أسمر هو بشعر أسود كثيف ووجه مربع قوي. على كتفه منشفة صفراء ويمسك صينية بمهارة كأنها خيطت في كفه. خاطب إيهاب ببرود ذي معيار مضبوط.

– القهوة يا إيهاب بيه؟

– لأ هاتلي مشروب مُفرِح يا هارون. عايز حاجة تغيّر المود.

بدون أيِّ اختلاف في تعبيرات وجهه استدار القهوجي هارون وذهب تجاه المطبخ صائحًا:

– وعندك واحد سحلب لإيهاب بيه!!

– لأ سحلب لأ.

كان رد إيهاب لكن يبدو أن شخصية القهوجي كانت أقوى. فقد تجاهله تمامًا وشرع في ممارسة عمله بمهنية خالية من التفاعل.

تمتم إيهاب بحنق: يابن ال...

لكنه قبل أن يزيّن جملته بوصف قبيح لوالد القهوجي لمح بطرف عينه زوجته سلمى في شرفتها.

ما الذي تفعلينه في هذا الجو البارد يا سلمى؟

مدثّرة نفسها بروب منزلي ثقيل بينما تحرك رياح الشتاء شعرها الطويل كما يحلو لها. كانت سارحة تمامًا في النيل.

شرد في هذا المشهد لدرجة أنه لم يشعر بهارون القهوجي وهو يضع كوب السحلب بعنف على الطاولة المربعة المعدنية.

– موبايلك.

تنبه إيهاب للقهوجي الذي قال كلمته تلك وعاود ممارسة عمله. نظر إلى محموله فوجد رسالة من سلمى لم يستطع أن يقرأها قبل أن تموت بطارية المحمول تمامًا.

نظر لشرفة منزله ليجد أن سلمى لم تعد هناك. لكن لفت انتباهه شيء آخر.

ما هذا الخيال المنعكس على العمارة؟

دقق إيهاب النظر فيما يبدو أنه خيال لشيء بأذرع طويلة ورأس صغير.

يتحرك الظل ككائن أسطوري عملاق يتسلق المبنى.

نظر حوله محاولًا معرفة مصدر هذا الخيال لكنه لم يتمكن من العثور على مصدر ضوء يمكن أن يسبب هذا الظل.

عاود النظر مجدداً لكن الظل كان قد اختفى.

– لأ ده انا تعبان بجد. قام بدفع الحساب وذهب إلى بيته.

* * *

١٢

لاحقًا تلك الليلة..

– دي أغنية عبد الوهاب.

تمتم يوسف لنفسه. لقد عاد لتوه من الجيم، ولكنه قبل أن يدخل شقته استوقفه صوت الأغنية. خرجت ليلى مرتدية منامتها ووقفت معه لتنصت إلى الأنغام الكلاسيكية لأغنية (القمح الليلة) وهي تصدي في العمارة. أشرقت ابتسامة كبيرة على وجهها مظهرة غمازتيها، وأرجعت شعرها الأسود القصير خلف أذنيها وهي تقول:

– عليّا النعمة توحيدة دي دماغ.

لم يشاركها يوسف الانسجام باللحظة؛ فإنها المرة الأولى التي تُشغّل فيها عمته الجرامافون بهذا العِلو. هذا بالإضافة إلى إنه يكره الأغاني القديمة.

– أنا داخله أكمّل شغل. استدارت ليلي لتدلف شقتها لكنها توقفت والتفت ليوسف قائلة:

– هو أصلًا الجرامافون فيه مستوى صوت عالي كده؟ مطت شفتيها ودخلت شقتها.

عندها حق.. إزاي؟ طيب، نطلع نشوف.

فرد قامته وقام بإحماءة سريعة لعضلاته واتجه ليصعد السلم. بدأ صوت الأغنية يعلو ثم سمع صيحة. طار فوق درجات السلم وتوقف قبل أن يصل للسطح.

إيه الإحساس الغريب اللي جايلي من الأغنية دي؟

ثمة حوار ما.

مد رقبته لينظر من بين قضبان درابزين السلم فرأى باب عمته مقفولًا، صوت شخص ما يصعد السلم خلفه فالتفت ليرى عودة البواب ممسكًا بطرف جلبابه وهو يصعد إليه. صوت باب يفتح بالدور الأول ونور السلم يضاء. وجه أستاذ خليل الطويل يطل عليهم من المنور.

– إيه الصوت ده يا باشمهندس؟

هزّ يوسف كتفه ثم وضع أصبعه على فمه قائلًا:

– في حد عند عمتي. ممكن يكون هارون.

كان البواب قد وصل إليه وقال:

– مش السواق. لسه شايف هارون بيأكِّل كلاب الشارع.

اعتلى يوسف السلم حتى سار بالطابق الأخير واقترب من الباب ببطء.

الأغنية واضحة لهم:

القمح الليلة الليلة ليلة عيده. يا رب تبارك تبارك وتزيده. يا رب تبارك يا رب. يا رب تبارك يا رب. يا رب تبارك وتزيده.

قال عودة:

– ليلى مراد دي والا إيه؟ قبل أن يرد يوسف سمع صوت طرقة شديدة على شيء خشبي.

صوت الموسيقا توقف.

هرول إلى باب الشقة وبحث عن مفتاحه فلم يجده معه فطرق عليه وصاح:

– إفتحي يا عمتي.

ضمّ عودة صوته له.

– بِسْم اللّه الرحمن الرحيم. إفتحي يا حاجّة..

الشقة خلف الزجاج شبه مظلمة إلا من بعض الأنوار الخافتة. شخص ما، استنتج يوسف من هيئته أنها عمته، يقف خلف الباب، عكازها بيدها تشيح به مهددة.

– مش هفتح. مش هتعَتِّب جوّه بيتي.

– يا حاجّة إفتحي! صاح عودة. الولية إتجننت ولا إيه؟

– إتلم يا بني آدم!

– لا مؤاخذة يا بيه.

– مش هفتح. خليك واقف برّه كده.

– يا دي النيلة. يا حاجّة توحيدة أنا عودة البواب.

– إستنّى إنت. إنزل هات المفتاح من المدام.

– حاضر حاضر. وأسرع عوده بالنزول. قابل في طريقه أستاذ خليل الذي حاول أن يستفسر منه دون أن يعطيه البواب ردّاً.

– يا عمتي أنا يوسف. إفتحي لو سمحتي.

توقفت توحيدة عن الحركة والتلويح بالعكّاز وراء الباب. راقب يوسف حركتها ورآها تحرك عصاها

ناحية الباب وتدق عليه دقة خفيفة.

– إفتحي يا حبيبتي. نظر بجانبه فوجد خليل واقفًا بجانبه.

– مين اللي معاك يابن أخوي؟ كانت لهجتها فلاحي التي لا تستخدمها إلا عندما تكون متوترة.

– أستاذ خليل جارنا.

– مش هدخل حد بيتي يا يوسف. إمشي.

– إيه صوت الخبط ده يا عمتي؟

لحظة صمت قبل أن تجيب وهي تُشير لِجهة اليمين بعكازها.

– ده الجهاز بتاع الأغاني.

– الجرامافون؟

– أيوه. وقع على الأرض.

صُدم يوسف فهذه المرّة الأولى التي تكذب عليه فيها عمته. لم يكن هذا الصوت الذي سمعه.

– طيب إفتحي طيب. القلق بدأ يتمكن منه.

– مش هفتح لحد غريب يا يوسف.

إشار يوسف لخليل بالذهاب. هز الأخير رأسه وبدون أن يعلّق لوّح بيده ليوسف وانصرف.

– خلاص يا عمتي محدش معايا. إفتحي. خليل مشي.

ببطء تقدّمت توحيدة ناحية الباب ومدّت يدها لتفتح الشباك الصغير. ابتسم يوسف عندما رأي وجهها العجوز لكن ابتسامته لم تدم. ففي اللحظة التي نظرت فيها من الشباك، وقبل أن ينبس يوسف ببنت شفَة، تبدّل الهدوء في ملامحها إلى غضب عارم.

– قلتلك مش هدَخَّل حد بيتي النهارده!!

وأغلقت الشباك الزجاجي بقوة.

نظر يوسف حوله. السلم مظلم تمامًا إلا من بصيص ضوء يأتي من الباب المؤدي إلى نصف السطح العمومي.

– يا عمتي أنا لوحدي واللّه.

لا يدري سبب ارتعاش قدميه عندما ردت عمته قائلة: لأ مش لوحدك.

* * *

١٣

في صباح الخميس وقف يوسف في شقة عمته متأملًا جهاز الجرامافون المشطور نصفين. بجانبه وقفت ليلى ملتفحة برداء البيت الأزرق السميك وهي على نفس حالة زوجها: الاستغراب التام.

رمت نظره خاطفة لتوحيدة التي أخذت تنشر الحبوب للحمام على السطح خارج الشّقّة بهدوئها المعتاد. كأنها تتعمد تجاهل وجودهما.

– مستحيل يكون الكسر ده بسبب وقوع الجهاز. قال يوسف بصوت منخفض.

– بُص كده.

نظر لها يوسف فوجدها تُشير إلى عُكاز توحيدة الذي أسندته الأخيرة إلى الحائط كي تتحرك بحريّة هنا وهناك وسط طيورها. لاحظ الزوجان خدوشًا في أماكن متفرقة من العصا البُنّية الدكناء.

– هي اللي كسرت الجهاز بالعكّاز.

قطعت ليلى. ثم أمسكت يد يوسف قائلة:

– أنا لازم أنزل. البت اعتماد اللي كانت معايا إمبارح جاية تساعدني في توضيب أوضة حسن. في ناس جايين النهاردة يشوفوها.

يوسف مستغربًا:

– أم خلخال؟

– آه، مالها؟ سلام. متتأخرش على شغلك.

نظر مرة أخيرة لعمته: السلامو عليكو يا حيدة.

لوحّت له دون أن تلتفت إليه وقالت:

– البيوت أسرار يا يوسف. إقفل الباب وراك كويس.

* * *

ما إن دلف يوسف من الباب الزجاجي لمقر عمله حتى قابله هارون عامل البوفيه قائلًا:

– الست بتاعة الفيلا مستنياك جوّة. قالها ببروده المعهود وملامحه الثلجيّة.

تسمّر يوسف مكانه وأطلق بصره في المكان باحثًا عنها.

أغلق هارون الباب وراء يوسف وتركه متجهًا إلى البوفيه وهو يقول بقرف:

– جوّه في أوضة الاجتماعات.

– إيه المعامله دي يا عّم هارون؟ إنت مش طايق الست دي ليه كده؟ سأله يوسف بروح مرحة لم ترقق قلب الكهل الذي تجاهله تمامًا.

– هو بيعامل حد حلو أبدًا؟

جاء سؤال رضوى السكرتيرة. التفت إليها فوجدها في منتصف الردهة تشير إلى يسارها و تقول:

– فيه ناس مستنينك يا باشمهندس.

نظر يوسف إلى يمينه فوجد باب غرفة الاجتماعات مفتوحًا و رءآها للمرة الثانية: الحاجّة سُمية. كانت تداعب الفَرو على كتفها بحنان كما لو كان حيًّا يرزق. تبًا لهذا المكياج، إن كثرة المساحيق على وجهها تذكره بشخصية الجوكر في أفلام باتمان. بجانبها وقف الدب القطبي المتمثّل في جسد الحارس الخاص بها وقد مد مخالبه – أقصد كفه – ليوسف داعيًا إياه بالدخول.

– أنا داخل أوضة الاجتماعات يا عّم هارون!

صاح كي يسمعه هارون الذي لوّح بيده باشمئزاز.

أضاف يوسف بصوت أعلى:

– تعالى شوف الضيوف يشربوا إيه؟

عيناه التقتا بعيني رضوى فوجدها في حالة تعجّب مما يفعله. تأكد أن أكثر من واحد قد لاحظوا دخوله إلى صالة الاجتماع كي لا ينفرد ضيفاه به تمامًا. ثم دخل ليواجه الساحرة والديناصور.

مالك يا عمّ الفورمة؟ ما تجمد كده. قالها لنفسه.

جلس يوسف على طرف الأريكة على مسافة من المرأة ظن أنها كافية لكنها لم تمنع العطر العجيب التي تضعه من خنقه. تحرك سوبرمان من ورائها ليستقر بجانب باب الغرفة بعد إغلاقه. استدار يوسف ليواجه سُمَيَّة في صمت وتوجّس.

– أنا لقيت إن الكلام في التليفون مش نافع قلت أجي أزورك يمكن قلبك يحن عليّا.

ختمت كلامها بمحاولة ابتسامة باءت بالفشل بسبب طبقات المكياج التي تعوق حركة الفم.

– تحت أمرك.

حاول يوسف أن يبدو مرحبًا لكن تعبيرات وجهه نضحت بالاشمئزاز.

لم تيأس المرأة بل استطردت بدلال أشبه بفحيح أفعى مخنوقة:

– الموضوع بتاع الفيلا أنا مش قلقانه عليه علشان أنا عارفه ومتأكدة من خبرتك. بس..

سكوت مدروس تلا هذه الوقفة وكأنها تنتظر من يوسف ردّا ما. لكنه كان غارقًا في تفاصيل وجهها بتجاعيده التي فشل النقّاش في معالجتها وعجزت أعمال السمكرة والدوكو عن إخفائها.

– إحم.

تنحنح الخرتيت فنظر اليه ليَجِدَه مبتسمًا وكاشفًا عن صفين غير مكتملين من اللؤلؤ الأسود.

تنبه للحوار فالتفت للساحرة قائلًا:

– برضه مش قادر أفهم إيه سبب الزيارة دي.

– مهو احنا لازم نتكلم برضه.

استمر الدلال المخيف في نبرة صوتها وتمايلت كتمثال صلصال لم يجف بعد.

حاول يوسف أن يبدو مرحبًا لكن تعبيرات وجهه نضحت بالاشمئزاز.

لم تيأس المرأة بل استطردت بدلال أشبه بفحيح أفعى مخنوقة:

– الموضوع بتاع الڤيلا أنا مش قلقانه عليه علشان أنا عارفه ومتأكدة من خبرتك. بس..

سكوت مدروس تلا هذه الوقفة وكأنها تنتظر من يوسف ردّاً ما. لكنه كان غارقًا في تفاصيل وجهها بتجاعيده التي فشل النقّاش في معالجتها وعجزت أعمال السمكرة والدوكو عن إخفائها.

– إحم.

تنحنح الخرتيت فنظر اليه ليَجِدَه مبتسمًا وكاشفًا عن صفين غير مكتملين من اللؤلؤ الأسود.

تنبه للحوار فالتفت للساحرة قائلًا:

– برضه مش قادر أفهم إيه سبب الزيارة دي.

– مهو احنا لازم نتكلم برضه.

استمر الدلال المخيف في نبرة صوتها وتمايلت كتمثال صلصال لم يجف بعد.

– بص يا يوسف.

هكذا بدون مقدمات تخلّت عن الألقاب معلنه دخول العلاقة لمستوى أعلى.

– إنت عارف إني ست وحدانية وقليلة الحيلة.

– ده واضح.

كان رد يوسف مع نظرة سريعة للحارس الخاص.

نظرت اليه بإمعان لثوانٍ محاولة أن تعرف إن كان يهزأ بها أم لا. ثم اعتدلت في جلستها ووضعت رجل فوق الأخرى.

– باشمهندس يوسف.

قلق يوسف من عودة الألقاب للحوار.

– حضرتك عارف حجم المشروع اللي ناويين نعمله؟ هيكون فيه مستشفى خيري صغير. التكلفة هتعدي المليار.

يوسف باستغراب:

– مستشفى خيري بمليار؟

كأنما ذاب وجهها فجأة، رأى يوسف وجنتيها وملامحها تهبط إلى أسفل كأن الجاذبية اشتدت على حين غرة. زمجرة خافتة أتت من جهة الباب فنظر إلي الحارس ليجده على شفا حفرة من إطلاق ألسنة اللهب من خياشيمه.

– مستشفى إيه اللي بمليار؟ أنا بتكلم على المشروع كله. ردت بعصبية.

– آه.. ماشي. طيب أنا برضه إيه علاقتي بالمشروع ده؟

استعادت ابتسامتها المُقلِقة وانحنت تجاهه قائلة:

– مشروع زي ده هيعوز إستشاري للتصميم أو حتى لمجرد المتابعة. والإستشاري ده هياخد نسبة طبعًا.

انقلبت تعبيرات وجه يوسف وسلّط نظرة مشمئزة لسمية دون أن يرد.

لم يفت هذا على المرأة المخضرمة فاستدركت قائلة:

– ده طبعًا لو مكتوبله يشوف النور.. عمومًا أنا جبت معايا تصوّر للمشروع.

وأخرجت صندوقًا صغيرًا من الورق المقوّى ووضعته على الطاولة الخشبية.

– بص عليه براحتك. وقامت معلنه نهاية الجولة.

* * *

بكل اهتمام جلس د. شريف يستمع ليوسف وهو يسرد عليه تفاصيل اللقاء المشبوه مع سُمية. حتى وصل إلى نهايته دون أن يعلق ثم تراجع في جلسته قائلًا وهو سارح بأفكاره بعيدًا:

– الست دي مش عبيطة على فكرة ومشروع بالحجم ده يخلّي الواحد يعمل أي حاجة.

– أنا رأيي نبلغ الوزارة.

– بإيه؟ هي مفيش حاجة تدينها لحد دلوقتي وخطوة زي البلاغ ده ممكن تستغلها لصالحها.

قال شريف وهو يمد يده للصندوق الصغير الذي وضعه يوسف على مكتبه سائلًا: إيه ده؟

– آه. ده سمية بتقول إنه فيه دراسة للمشروع. شكلها عايزة تقنعنا بجماله وتحنّن قلبنا بأي طريقة.

مط شريف شفتيه ثم بدأ في فتح الصندوق وما إن فعل حتى رفع حاجبيه متعجبًا. أخرج من الصندوق جهاز تابلت حديثًا وعلّق قائلًا:

– أوبّا. دي حاجة غالية قوي.

– يا بنت الذينة. أهي دي رشوة أهي. قال يوسف.

– ولا دي حتى تثبت عليها حاجة.

ثم اعتدل شريف للأمام وقال:

– عمومًا عندك الويك إند ده ممكن تلحق تخلّصه قبل ما تسوّلّها نفسها أو اللي وراها إنهم يعملوا خطوة حقيقية.

لوى يوسف شفتيه قائلًا:

– أهو الويك إند ده بالذات مش فاضي خالص. عيد ميلاد حسن والدنيا مقلوبة عندي. يعني فيه شوية لخبطة.

– كل سنة وانتوا طيبين. لخبطة إيه كفاللّه الشر؟

– عمتي، ما إنت عارفها.

– آه الست توحيدة. طبعًا عارفها.. مش هي اللي ظبتتلك الشغل هنا؟ مالها؟

– مفيش. إمبارح خضّتنا عليها جامد. كسّرت الجرامافون بتاعها وكانت بتكلم حد برّه شقتها وبتقوله إنه مش هيخش.

– حد إيه يعني؟ حرامي؟

– مش عارف بس رعَبِتنا.

– وشفته الشخص ده؟

– هو ده الشيء الغريب. لما التفت ورايا لقيت باب السطوح مفتوح. إنت عارف إن والد جارنا إيهاب بنى لها شقة علي نص السطح وسيبنا النص التاني فاضي زي ما طلَبِت.

– أيوه عارف. والد صاحبك الظابط اللي متجوز أختك.. يعني شوفت حاجة والا لأ؟ سأل شريف وقد بدا عليه اهتمام حقيقي.

– لأ. بس..

– إيه؟ خايف يكون تهيؤات وخرف سن؟

قام يوسف من جلسته وابتسم متصنعًا الصلابة:

– متخدش في بالك يا دكتور. ممكن يكون سنّها فعلًا.

رمقه شريف لوهلة ولكنه فضّل ترك الموضوع عند هذا الحد.

– ماشي. كل سنة وإنتوا طيبين.

* * *

١٤

يقف أنور بمنامته أشعث الشعر أمام السلم الصاعد لطابق يوسف. بعصبيته الكارتونية أخذ ينادي ويلوّح بيده.

– يا مدام ليلي! يا مدا..آي ي ي. أمسك كوعه إثر ارتطامه بلوح خشبي يحمله عاملين غارقين في الضحك.

– بتضحك على إيه يا بني آدم أنت..أووووف. كوعي. يا مدااااام ليلى!!

ظهرت ليلى في أعلى السلم وعلى أذنها تليفونها المحمول.

– ثواني يا هايدي. خير يا أستاذ أنور. فيه إيه؟

وهو ما زال ممسكًا بكوعه نظر أنور لعاملين آخرين يصعدان السلم بلوح آخر.

– يا مدام بعد إذنك، العربية النقل بقالها ساعة واقفة تحت.

تأدبًا كتمت ليلي ما تريد أن تتفوه به وقالت من بين أسنانها:

– ما هو إحنا إستنينا لما حضرتك ركنت العربية العزيزة بتاعتك علشان ننزل حاجتنا. إيه المشكلة مش فاهمة؟

– يا مدام. العربيات بيحاولوا يتفادوا العربية النقل وهيحكّوا العربية بتاعتي. النقل شبه قافل الطريق.

– لأ مش قافله. ولا عايزني أنزل أعلم الناس السواقه كمان؟

واستدارت كي تدخل شقتها.

– يا مدااام! بصوت رفيع مخنوق ناداها. يا مد...

طااخ.. صوت غلق باب الشقة.

– ضهرك يا بيه.

التفت أنور للعامل الذي يحمل لوحًا آخر ولمح ابتسامته.

– حاجة في منتهى قلّة الذوق. واللّه لقول للباشمهندس واللّه...

وظل يرطن إلى أن دخل شقته.

***

في شقة يوسف جلست ليلى على الأريكة تكمل محادثتها التليفونية.

– يا ساتر. ده جارنا أنور يا ستي، صاحب العمارة. شخصية بشعة. قبطان قديم على المعاش قاعد للسقطة واللقطة وموسوس ومهووس بعربياته وقارفنا ليل ونهار.

– ..

قامت وفتحت باب الشقة ببطء ونظرت خارجها:

– لأ متجوز. ربنا يكون في عون مراته. ست غلبانه خالص معرفش مستحملاه إزاي؟ بس هي الحقيقة شخصية غريبة زيه. هادية زيادة علي اللزوم وعلى طول مبتسمة.

– ..

شاورت للعمال كي يُدخلوا الألواح ثم ضحكت قائلة:

– على رأيك. لازم تبقى كده علشان تستحمله.

–..

– أيوه جبت الدولاب خلاص. هنركبه لما أتخلص من أوضته القديمة. في ناس جاية تبص عليها النهاردة.

–..

راقبت عملية تخزين الألواح في بلكونة المطبخ. نظرت بجانبها للخادمة صغيرة الحجم والسن التي تقف في المطبخ في انتظار الانتهاء من التخزين.

–..

– لأ دول جايين من الإعلان اللي نزّلته على النت. بس تصدقي؟ فيه حد عرض يشتريه بالسرعة دي وبنفس المبلغ المبالغ فيه اللي أنا حطّاه. واحدة ماعرفهاش الأكّونت بتاعها اسمه "innocence" بس حستنّي لغاية أول الأسبوع اللي جاي يمكن يجيلي رقم أحسن.

–..

– لأ مش طمع. بس أنا نزّلت الإعلان خلاص. نعدي الويك إند وأخلّص مع الستinnocence دي.

صوت تقليب الشاي.

– دي الشغالة واللّه.

ردت على محدثتها ضاحكة. خرجت من المطبخ وأكملت:

– دي بنت صغيرة بس لهلوبة و جتلي في الوقت المناسب. عيد ميلاد حسن استعداداته كتير السنة دي مش عارفة ليه.

– مساء الخير.

صوت حريمي خارج الشقة. ذهبت ليلي لترى من يتكلم فوجدت سيدة في منتصف الثلاثينيات مرتدية بالطو كحليّا وحجابًا أبيض حول وجه دائري لطيف. ابتسامة رقيقة تعلو وجهها.

– حضرتك أنا جاية علشان الأوضة اللي في الإعلان. هي لسّه متاحة؟

– لسّه يا فندم.إتفضّلي. طيب سلام دلوقتي يا هايدي. إتفضلي حضرتك.

بعد معاينة لحالة غرفة حسن وقفت السيدة علي بابها تتناقش في السعر. ليلى تؤكد لها:

– يا فندم السعر اللي أنا كاتباه فعلًا جالي. مش يضرب في العالي.

– يا مدام ليلى أنا أول واحدة أجيلك زي ما انت قلتي. لازم تكرميني.

– واللّه السعر جالي من علي النت فعلًا.

– يعني مجتش عاينت وشافت بنفسها. هتنزِّل في السعر لما تيجي وتنزل تحت الرقم اللي أنا قلته. صدقيني الرقم اللي انا عارضاه ده رقم لقطة. الأوضة مش جديدة. دي عايزة شغل كتير. بصّي على الخشب. عايز صنفرة ووش زيت.

شاورت على المكتب والسرير.

– ده كمان لازم نكشف على السوس. بصّي.

نظرت ليلي لما تشير إليه. ألواح الخشب خارج الغرفة عند عتبة الباب.

عجيب هذا اللون الأسود وهذه الخدوش. هي متأكدة أنها لك تكن موجودة قبل ذاك. مظهر أطراف الألواح يشي بحالة ليست جيدة للخشب كما لو أنها قد غُمِست في طين أسود أو كُشِطت بشوكة قذرة بعنف.

– اعتماد!

نادت ليلى على الخادمة. الصوت المميز للخلخال يأتي من المطبخ وظهرت الأخيرة مهرولة وبيدها الصغيرتين قطعة قماش قديمة.

– أيوة يا ست هانم.

– مين اللي نضّف أوضة حسن؟

– مش أنا يا هانم. حضرتك أم أحمد هي اللي نضفتها وحضرتك قولتي محدش يعتّبها بعديها.

تذكرت ليلى هذا الكلام فالتفتت إلى السيدة قائلة:

– عمومًا خشب الأرضية اللي برّه الأوضة ملوش دعوة بباقي الأوضة.

– حضرتك عارفة إن ده مش صحيح. لو جه سوس في الخشب ممكن يصيب كل الأوضة, وبعدين انا مش عارفة ده سوس والا عفن والا إيه. شكله غريب خالص.

وضعت حقيبتها على كتفها واتجهت لباب الشقة.

– عمومًا أنا عرضي قائم. لو غيرتي رأيك كلميني. سلامو عليكو.

وصلتها ليلى لباب الشقة وردت وذهنها غائب.

– وعليكم السلام.

أغلقت باب الشقة ونظرت تجاه غرفة حسن.

إيه اللي في الخشب ده؟

* * *

١٥

– أنا مش هكلّم حد. دي مجرد ورقة صغيرة هنرفقها في ملفك وأضمنلك ترقيتك الحركة اللي جاية. وبعدين أنا مش بزوّر حقائق يا سيادة المقدم. إحنا بس بنحط الترتيب والأولوية اللي شايفنها.

كانت هذه المقولة من ضابط برتبة لواء فاره الطول عريض المنكبين لإيهاب الجالس أمامه على الكرسي المقابل.

– راشد باشا مش عارف أشكر معاليك إزّاي. بس أنا خايف من النقل الصراحة. التوقيت هيبقى وحش جداً. كان رد إيهاب.

وقف راشد واتجه لباب الغرفة قائلًا:

– أنا بعمل الأصلح للبلد. وأنت هتكون إضافة قوية لمكتب المكافحة. تاريخك وتاريخ أسرتك بيقول كده.

سرح إيهاب بنظره لصورة والده على مكتبه ثم وقف وانضم لراشد حيث استطرد الأخير:

– ومتقلقش من النقل. المديرية في آخر الشارع يا إيهاب.

أطلق إيهاب ضحكة مصطنعة ثم انطلق ليصطحب اللواء راشد في جولة تفقّديّه حيث انضم إليهم ضباط القسم.

عند الممر الذي ينتهي بالزنزانة رقم ٣ اختلس الضباط النظرات القلقة لبعضهم البعض حين قال راشد:

– مضلّمة ليه الحتة دي كده؟ هي الزنزانة اللي في الوش دي فاضية؟

تأخر رد إيهاب قليلًا مما جعل راشد يلتفت إليه طالبًا الإجابة.

– مش فاضية يا فندم. بس بنعمل تجديدات. It is a mess.

التفت راشد لأيمن وضيق عينيه قائلًا:

– نعم يا خويا؟

ثم التفت لإيهاب قائلًا:

– مالهم ظباطك يا إيهاب عاوجين لسانهم ليه؟ إحنا في قسم شرطة مارينا والّا إيه؟

تنحنح إيهاب ورد بلهجة اعتذار:

– النقيب أيمن توفيق سيادتك. إبن اللواء عاطف توفيق. إتعلَّم برّه وجِه يقرفنا هنا سيادتك.

رمق راشد أيمن بنظرة خاطفة ولم يقل سوى:

– آه. طيب. يالّا.

وصل الموكب إلى باب مبنى القسم في نفس الوقت الذي انتهى فيه الفنيون من معاينة الميكروباص في الممر المجاور. مُشمِّرًا عن ساعديه، أتى سعفان مهرولًا وعلى وجهه ابتسامة نصر. لم يلمح السيفين على كتفيّ راشد ولا إيماءات الضباط وغمزهم إياه وهتف بحماسة مخاطبًا إيهابًا:

– تمام يا باشا. العربية على الأرض. ملقيناش حاجة فيها.

التفت راشد للصول وسأله: عربية إيه؟

هنا أسقط في يد سعفان عندما تنبه لوجود اللواء راشد وتلعثم قائلًا:

– ميكروباص سيادتك. المنيب. ركاب جوه. الكمين.

– بيخرّف بيقول إيه ده؟ وجّه راشد سؤاله لإيهاب. دي حاجة أعرفها؟

تماسك إيهاب وهو يرد: قضية جديدة وغريبة حبّتين. بس متشغلش بال سيادتك.

نظر راشد إلى إيهاب نظرة مطوّلة ثم قال:

– ماشي. أتمنى تبقى قضية تقيلة. ممكن تبقى آخر واحدة ليك هنا وتدّيكوا كلكوا زقّة في حركة الترقيات الشهر اللي جاي. بس خلّوا بالكوا ما تضربش في وشّكوا وتعمل تأثير عكسي.

أعطاه إيهاب ابتسامة وقورة وأومأ برأسه موافقًا. استدار راشد ليغادر المكان لكن نباح الكلاب داخل عرينهم جعله يلتفت ليسأل:

– مالهم دول كمان؟

رد إيهاب وقد بدأ التوتر يظهر عليه:

– محتاجين حركة سيادتك. بقالهم محبوسين كتير.

نظرة أخرى مطولة من راشد لإيهاب استدار بعدها مغادرًا دون تعليق.

انتظر الضباط مغادرة راشد للقسم قبل ان يتنفسوا الصعداء. أسرع إيهاب للميكروباص المفكك وقال:

– لازم ننهى القصة دي بسرعة قبل الموضوع فعلًا ما يضرب في وشّنا. مش هنقدر نخلي التلاتة اللي جوّه دول كتير. وخلي الطبيب البيطري يبص على الكلاب دي يشوف مالها.

سأله سعيد:

– متوقع تلاقي إيه سيادتك في الميكروباص؟

تنهد إيهاب ورد قائلًا:

– مش عارف. يمكن نلاقي دليل. أنا قلتلك إيه قبل كده؟ متسبش حاجة في أي قضية لغاية ما تجيب آخرها, وبعدين جايلي شعور غريب من الميكروباص ده من إمبارح.

ثم التفت لسعفان.

– يعني ملقيتوش لا إبرة ولا سرنجة ولا بقايا إي نوع من أنواع المخدرات؟

هز سعفان كرشه ورأسه بالنفي.

سرح سعيد قليلًا مما جعل إيهاب يسأله: إيه؟ رُحت فين؟

رد سعيد:

– بصراحة سيادتك أنا شايف إننا نمشّي البلوة دي من هنا.

إيهاب:

– قصدك أنهي بلوة؟

سعيد:

– الميكروباص والناس اللي في زنزانة ٣.

تدبّر إيهاب في مقولة سعيد للحظات ثم قال:

– خلّينا نمشي المشوار شوية. بلاش تيأس بسرعة. لازم الأول نعرف خط سير الميكروباص. يعني آخر محطة ليه كانت فين.

ثم التفت للفني الواقف أمامه ليسأله:

– كشفت على الصالون يا لبيب؟

رد لبيب:

– المعمل الجنائي بيقول سيادتك إن اللي كانوا جوّه شكلهم كان بقالهم كتير قاعدين. ده من حالة الكراسي وكده. اما عن حالة المركبة أنا

كشفت عليها ولقيت كل اللي فيها إن البنزين خالصان.

لمح إيهاب أيمن الذي انضم لتوه إليهم ثم قال للفني:

– طيب يا لبيب، ماشي.

انتظر سعيد حتى انصرف لبيب وقال:

– بص سيادتك أنا فكرت في موضوع الركاب اللي كانوا فيه وحاسس إن حل الموضوع ده نَفسي. فيه حاجة حصلتلهم مخلياهم كده.

إيهاب:

– ممكن. بس هنعرفه إزاي وهما مبيتكلموش؟

أيمن:

– زي ما سعيد قال لسيادتك إمبارح. فيه Panel من الدكاترة من الوزارة جايين الساعة اتنين. أكيد سيادتك هيقولولنا مال العيال دي.

إيهاب بعصبية:

– إيه نيلة "بانيل" دي؟

تنحنح أيمن قائلًا:

– زي لجنة كده سيادتك.

إيهاب:

– طيب ماتقول زفت لجنة.

– تليفون سيادتك.

قالها سعفان من وراء إيهاب فالتفت الأخير ليأخذ منه محموله ويسأله:

– إتشحن خلاص؟ كويس. كنت عايز أكلم البيت.

قبل أن يبدأ في إجراء المكالمة تناهي إلى مسمعه نغمة ما. ببطء رفع عينيه إلى مصدرها. شاركه كلٌّ من أيمن وسعيد وسعفان ذهوله وهم ينظرون إلى راديو الميكروباص المنزوع بالكامل من مكانه والملقى على الأرض أمامهم وهو يصدو:

القمح الليلة الليلة ليلة عيده. يا رب تبارك تبارك وتزيده. يا رب تبارك يا رب. يا رب تبارك يا رب. يا رب تبارك وتزيده.

* * *

١٦

أثار صوت تقليب سعفان لكوب الشاي خارج زنزانة ٣ حفيظة إيهاب فصاح به أن يكف.

– لا مؤاخذة يا باشا.

ثم توقف عن التقليب. منذ أن سمع إيهاب راديو الميكروباص يصدي بتلك الأغنية دون مصدر طاقة وهو في حالة غريبة. حاولوا بشتى الطرق تفسير هذه الظاهرة التي استمرت أقل من دقيقة لكن دون جدوى. الآن شعور سيّئ بدأ يجتاحه حيال الموضوع برمته. من الميكروباص للكلاب للثلاثة الجالسين أمامه في الزنزانة.

ولماذا هذه الأغنية بالذات؟ هناك شيء بها لكنه لا يتذكر.

التفت إلى لفيف الأطباء المنهمك في فحص النزلاء الثلاثة. من نفسي لباطنة لمخ وأعصاب، جميع التخصصات الممكنة يرأسهم طبيب مهيب الهيئة منمق الشعر والملبس، ذو وجه مربع وسيم بين سالفين رماديين.

كان الأطباء يفحصون النزلاء كل تخصص على حدة. كلما أنهى طبيب فحصه أعطى تقريره لكبيرهم

حتى انتهوا جميعًا. إلا واحداً: طبيب المخ والأعصاب. كان على ركبتيه بجوار القصير المدكوك الذي يسمى عوضًا كما تقول بطاقته. أمسك ذراعه بكلتا يديه لكن لم يكن عوض يبدي أي تفاعل بل ظل، كما هو حال الاثنين الآخرين، محدقًا إلى الأرض أمامه.

– خلاص يا دكتور؟ سأله كبيرهم.

بدون أن يتوقف عما يفعله، رد الطبيب:

– تعالى حضرتك كده بص.

تقدم إليه رئيسه خطوتين: فيه إيه؟

– خلي بالك من اللي هيحصل دلوقتي.

مد إيهاب، الذي كان يقف على باب الزنزانة، رأسه ليرى ما يفعله فوجده ممسكًا بإبرة وغرزها في كف القصيرة برفق فسَحَب الأخير يده. ثم حدث شيئًا عجيبًا. سحب الاثنان الآخران يديهما في نفس الوقت ونفس الطريقة.

قام طبيب الأعصاب معتدلًا وتبادل هو ورئيسه نظرات حيرة تامة. أما عن رجال الشرطة فتراجعوا للوراء منهم من يبسمل ومنهم من يسبّ. توجه رئيس الوفد الطبي إلى باب الزنزانة وأملَى على

مساعده ختام التقرير على مسمع من إيهاب. خلفه وقف سعفان والنقيب وليد.

– وختامًا، فإنه في تمام الساعة الخامسة عصرًا من يوم الخميس الموافق ١٥/١٢/٢٠١٨,وبعد فحص الأشخاص الثلاثة المحتجزين – ووصفهم وحالتهم كما ذكرنا سالفًا – فإنه تعذر على المجموعة السالف ذكرها من الزملاء والسادة الأطباء استنباط سبب الحالة طبيًّا.

– يعني إيه يا دكتور نصيف؟

قاطعه إيهاب مستنكرًا.

رفع دكتور نصيف إصبعه كي يتركه إيهاب يكمل التقرير. فتراجع إيهاب وهو يعض على شفتيه.

– لكننا نؤكد أن حالتهم ليس بها اصطناع. فهم بالفعل معزولون عن عالمنا. لذا ننصح باستدعاء رؤساء الأقسام من جامعتي القاهرة وعين شمس كي ندرس هذه الحالة الجديرة بالاهتمام تحت إشرافي. دكتور نصيف جورج.

تركه إيهاب ينهي الفحص ويعطي توصياته الأخيرة لمجموعته واصطاده على باب الزنزانة.

– ممكن لو سمحت..

رفع نصيف إصبعه ثانيةً وأشار للممر المؤدي لمكتب إيهاب:

– ممكن نروح المكتب.

كاد إيهاب أن يلكمه في فكه العريض، ولكنه فرد قبضته أمامه تجاه مكتبه بابتسامة أقرب إلى تكشير عن الأنياب. تقدمه نصيف ودلف الاثنان مكتب إيهاب. جلس الأخير علي مكتبه ووضع قدماً فوق الأخرى. شبّك أصابعه وهو يتابع الطبيب الذي أغلق باب المكتب وجلس أمامه.

دقيقة طويلة مرت عليهما قضياها في صمت قبل أن يتكلم نصيف:

– حضرتك محتجزهم ليه؟

– ده شغلي يا دكتور. سيادتك مهمتك إنك تساعدنا نوصل لحقيقة الناس دي.هل هم وراهم حاجة والا لأ؟ ده قبل ما أهلهم ييجوا يطالبوا بيهم.

– ووصلتوا لهويتهم إزاي؟

– من بطايقهم. دلوقتي أنا عايز أتناقش في التقرير.

– أنا لسه مقدمتوش رسمي.

اعتدل إيهاب في جلسته وضيق عينيه قائلًا:

– هنمشيها رسمي يعني؟

صمت نصيف للحظة ثم عقَّب:

– الحقيقة كنت أفضّل دراسة الحالة لوقت أطول..

– متتكلم يا دكتور.

بحزم قاطعه إيهاب.

صمت نصيف مجدداً ثم أجاب بعد تردد وجيز:

– الحقيقة إحنا معندناش أي تفسير. هم في حالة بين بالإغماء والوعي. النبض نبض نائم والعضلات في حالة تأهب. العقل مش بيِرسِل أوامر لكن الأعصاب متحفّزة.

– مش فاهم.

ببساطة رد نصيف:

– ولا إحنا. بس ده مش أغرب حاجة. أظن سيادتك شفت رد الفعل بتاع الإبرة.

– آه فعلًا. و ده معناه إيه؟

– معناه إن مخهم واصل ببعضه، عصبيًّا فيه اتصال بينهم.

تفكَّر إيهاب للحظة وهم بقول شيئًا ما لكن طرق شخصًا ما الباب. فهتف إيهاب:

– إدخل.

دلف سعفان إلى غرفة المكتب وتنحنح قائلًا:

– يا باشا الكلاب تحت هتتجنن. من ساعة ما الناس دول ما شرفوا التخشيبة والكلاب إتصعروا.

انتبه إيهاب لكلام سعفان.

ماذا عن نباح الكلاب؟

هل هناك الصِّلة؟

أخذ ينقل بصره بين الطبيب والصول مفكرًا بعمق في كل ما سمعه.

في هذه اللحظة كانت الكلاب تعوي بالخارج بقوة بالفعل. إنه يعرف هذا العواء.

إنهم خائفون.

* * *

١٧

جلس يوسف على المقعد الخلفي للسيارة يحاول الاتّصال بإيهاب. لكنه ما زال لا يرد. فتح الرسائل النصية وقرأ رسالة من رقم مسجَّل باسم الحاجّة سميّة.

" عجبتك دراسة المشروع؟"

يا بنت ال.. قصدها طبعًا على التابلت نفسه مش الدراسة.

واضح أن موضوع سمية قد بدأ يأخذ منعطفًا معتمًا، ويحتاج أن يأخذ رأي إيهاب. أمسك محموله وطلب رقمًا آخر. نظر في المرآة ليرى هارون السائق يرمقه كعادته.

– أيوه يا سلمى. إزيك؟

–..

– مال صوتِك؟ إيهاب روَّح؟

–..

– طيب كويس إنه بيطمّنك عليه على الأقل إن شالله برسالة.

– لمّا يرجع خلّيه يكلمني.

– إيهاب بيه بخير يا باشمهندس؟ شكلك إتهمّيت.

رد دون أن يحوّل نظره عن النيل:

– معرفش يا هارون.

مرت برهة ويوسف سارح في شمس الغروب المنعكسة على النيل.

– طول عمري بنبهر بالغروب على النيل.

هارون يراقبه في المرآة دون تعليق:

– في حاجة فيها مش عارف إيه.

– كل حاجة بتبقى أحلى في عين الناس اللي في الناحية التانية. كل برّ بيحسد البر التاني.

كان تعليق هارون العجيب.

التفت إليه يوسف مقطبًا حاجبيه:

– نعم؟

– متخادش في بالك يا باشمهندس. أنا قصدي نفس اللي قصدك بس بلغة بلادنا. مش قصدي أشغلك أكتر من اللي انت فيه.

هز يوسف كتفيه واكتفى بهذا الحديث. إن هارون على حق. فباله ليس فقط مشغول بل إنه يشعر بضباب أسود يحيط به من بعيد ويقترب بتؤدة مخيفة. شيء ما يؤرقه بشدة لكنه لا يستطيع تحديده.

انحرف هارون بالسيارة عندما وصلا إلى البيت وتوقف أمام العمارة كي ينزل يوسف ثم انطلق باحثًا عن مكان ليركن فيه السيارة.

في اللحظة التي خطا يوسف فيها فوق الرصيف سمع من يناديه بلكنة فلاحي أصيلة:

– يا باشمهَندِس يوسف!

التفت ناحية الصوت ليرى رجلًا ضخمًا في جلباب فلاحي أسود اللون وقفطان رمادي أدكن. على رأسه طاقية بيضاء أما عن وجهه، ففمه وأنفه الصغيران يختبئان أسفل إنجاز عظيم ألا وهو الشارب. نظر

إليه يوسف باستغراب، أو بالتحديد إلى شاربه الذي يذكّره ببلكونه عريضة تطل منها عيناه بأمان.

بخطى واسعة تقدم إليه الرجل:

– السلامو عليكو يا ولِد عمي.

– ولِد عمّك؟ وعليكم السلام يا سيدي.

مد الرجل يده مصافحًا:

– أيوه إبن عمك. أمال برمي جتتي عليك. أنا زين إبن عمك طه. اللّه يرحم والدينا. أنا جايلك من بر الضيف.

مد يوسف يده ليصافحه والحيرة تملأ عينيه.

بر الضيف؟

اقشعرَّ جسد يوسف عند سماعه اسم أكبر لغز في حياته. البلد التي أتي منها لكن لا يعرف عنها شيئًا.

إياك تجيب سيرة البلد دي يا يوسف أو تفكر تروح عنديها – كان كلام عمته له بمنتهي الصرامة. إنه ليس مسموحًا به بالكلام على بر الضيف، هل يقول له؟

– رحت فين يا إبن عمّي؟ إنتزعه صوت زين الأجش من تفكيره.

– مفيش. منوّر يا زين. تعالى اشرب حاجة.

جلس الاثنان على المقهى يتبادلان أخبارهم العائلية. حياة زين كما شرحها ليوسف تبدو ناجحة؛ أرض وتعليم وولد وبنت. لم يبدُ ليوسف أن زين يرحب بالحديث عن بيته أكثر من ذلك فسأله عن سبب الزيارة.

بعد أن جلب هارون القهوجي الشاي ووضعه بعنف على الطاولة المعدنية، تبادل مع زين نظرات عدائية.

– ميهمكش منّه. هو كده دائمًا. خير يا زين؟ أقدر أساعدك إزّاي؟ متوقعًا أن يكون إبن عمه جاء طالبًا مساعدة ما. لذلك فقد صدم عندما سمع إجابته.

– ليك في ذمّتنا ورث يا إبن عمي.

– ورث إيه؟

حدث نفسه قائلًا: إيه الحلاوة دي. كلمة ورث لها وقع جميل دومًا.

ابتسم زين.

– رحت فين يا إبن عمّي؟ إنتزعه صوت زين الأجش من تفكيره.

– مفيش. منوّر يا زين. تعالى اشرب حاجة.

جلس الاثنان على المقهى يتبادلان أخبارهم العائلية. حياة زين كما شرحها ليوسف تبدو ناجحة؛ أرض وتعليم وولد وبنت. لم يبدُ ليوسف أن زين يرحب بالحديث عن بيته أكثر من ذلك فسأله عن سبب الزيارة.

بعد أن جلب هارون القهوجي الشاي ووضعه بعنف على الطاولة المعدنية، تبادل مع زين نظرات عدائية.

– ميهمكش منّه. هو كده دائمًا. خير يا زين؟ أقدر أساعدك إزّاي؟ متوقعًا أن يكون إبن عمه جاء طالبًا مساعدة ما. لذلك فقد صدم عندما سمع إجابته.

– ليك في ذمّتنا ورث يا إبن عمي.

– ورث إيه؟

حدث نفسه قائلًا: إيه الحلاوة دي. كلمة ورث لها وقع جميل دومًا.

ابتسم زين.

– يا سيدي بيت جَدّك اللي على النيل في بلدنا. ليك فيه زي ما ليّا فيه. مساحته مش كبيرة بس بجنينة واسعة. ومهجور من زمن.

– هو كان في حيازة مين؟

سأله يوسف الضليع في أمور الإرث والعقارات.

– يعني إيه؟

– هو بتاع الورثة. اللي همّا أنا وإنت وإختك وأختي وولاد عمنا طاهر. ولاد طاهر باعوا نصيبهم ليّا. وعمتنا توحيدة باعت نصيبها ليّا من زمان.

– عظيم. بس إشمعنا جيتلي دلوقتي؟ يعني إيه إللي جَدّ؟

لوهلة شعر يوسف بتغيير في تعبيرات وجه زين لكن الأخير رد ببساطة:

– يا سيدي أنا جاي أعرض عليك أشتري نصيبك ونصيب أختك واعمل عليه مشروع بدل ما هو جاعد إكده من غير لازمة. معايا أوراجه لو عايز تشوفها. أصل مش هينفع حد يشاركني في المشروع اللي عايز اعمله.

دَسّ يده في جيب الصديري المختبئ تحت الجلابية وأخرج أوراقًا مطوية. مد يده ليوسف فالتقطها الأخير قائلًا:

– ماشي يا زين. أشكرك. سيبلي الورق ونمرتك وهكلمك.

– بس انا مستعجل حبتين يابن عمي. لازم أرجع البلد طوّالي.

– متقلقش. هرد عليك طوّالي.

أنهى يوسف كلامه بابتسامة لبقة.

* * *

١٨

عندما حل المساء كان إيهاب واقفًا أمام نافذة غرفة مكتبه يحدق إلى الشارع المظلم خارج القسم. يفكر في السيناريوهات المطروحة أمامه.

هل ينقل الركاب الثلاثة إلى مستشفى الداخلية ويخلي مسئوليته عنهم؟ أم يجعلها آخر قضية كبيرة له قبل حركة الترقيات علّها تدفعه لمكان أفضل؟

لقد واجه قضايا ومواقف أكثر خطورة من ثلاثة متخشبّين كالتماثيل، لكنه يشعر بشيء مختلف هذه المرة.. يشعر بالرهبة. لا ينفك يتذكر الراديو.. والكلاب. لقد ذهب إليهم وتأكدت شكوكه.

شيء ما يخيفهم في القسم.

رمى نظرة خاطفة لصورة والده، استرجع معها تصميمه. سوف يثبت لرؤسائه ولنفسه قبلهم أنه ضابط أفضل منه. وذلك دون أن يختفي.

طرق أحدهم الباب ليخرجه من حالته تلك.

– ادخل.

فُتِحَ الباب ودخل العسكري صالح والتوتر بادٍ عليه:

– السلام عليكم يا باشا.

رد إيهاب بضيق:

– وعليكم السلام. فيه إيه يا صالح؟ حطيت الراديو بتاع الميكروباص في عربيتي؟

ظهر سعفان خلف صالح لكنه ظل صامتًا.

– أيوه سيادتك. بس يا باشا إحنا كان لينا طلب. هل ممكن سيادتك يعني نخدم بره في نباطشيات؟ يعني كماين ولجان وكده.

– إنت خايف من حاجة هنا والا إيه؟ سأله إيهاب ثم أضاف:

– وأنت بتخلّي العسكري يطلبلك يا حضرة الصول؟

ثم صاح:

– فيه إيه؟!! تلات عيال مبرشمين يقلبوا القسم كده؟!! عليّا النعمة.. أنهى ثورته بأن أغمض عينيه

وأخذ نفسًا عميقًا.

تبادل صالح وسعفان النظرات وإن ظل الأخير محتفظًا بلسانه داخل فمه.

فتح إيهاب عينيه:

– قول يا صالح إنت رصيدك عندنا كبير. فيه إيه بالظبط؟

– يا باشا الثلاثة بنوع الميكروباص دول متلازمين. قالها صالح بجرأة يائسة.

قطب إيهاب حاجبيه وسأله:

– يعني إيه متلازمين؟ مخاويين يعني؟

سأله سعفان باستجداء:

– ممكن سيادتك تيجي تبص؟

لم تمر ثوان حتى وجد رجال القسم قائدهم يقف عند الزنزانة ٣.

ظل إيهاب يراقب المشهد بالداخل لما يزيد على دقيقتين ثم قال للصول سعفان الذي وقف في خشوع بجانبه هو وصالح:

– فين؟

سعفان بعدم فهم:

– فين إيه سيادتك؟

إيهاب:

– فين أي حاجة يا بني آدم؟ إيه اللي عايزينّي اشوفه؟

نظر سعفان الي صالح الذي تلعثم قائلًا:

– ما هو مش بيعملوها على طول سيادتك.

إيهاب بنفاد صبر:

– هي إيه دي اللي بيعملوها؟

صوت حركة داخل الزنزانة.

صاح سعفان بحماسة:

– سيادتك بص كده.

التفت إيهاب لينظر عبر النافذة الصغيرة وقال:

– أديني ببص أهوه.

عندما نظر مجدداً إلى الزنزانة كان المشهد عجيباً:

في أماكن متفرقة بالداخل، وقف الركاب الثلاثة كالتماثيل. على يمين الباب يقف القصير السمين يواجه الباب نفسه. وعلى اليسار يقف الطويل ووجهه للحائط.أما عريض المنكبين فما زال جالساً على الأريكة المواجهة للمدخل.

همس إيهاب:

– هم مالهم؟ إتحركوا من مكانهم إمتى دول؟

رد عليه صالح بنفس مستوي الصوت:

– ده اللي بنقول لسيادتك عليه. إتفرج سيادتك.

دقق إيهاب في المشهد حتى انتبه الي حركة ما عند الطويل. رآه يمد يده كأنه يصافح أحداً ما ثم يبدأ في تحريك فمه بحركة غريبة دون أن يفتحه.

إيهاب:

– بيعمل إيه ده؟

صالح:

– بيسلم على واحد وبيتكلم معاه.

ثم أتت حركة أخرى من السمين. فالتفتوا ليشاهدوه يمد يده ويفتح باب غير مرئي ثم يشير للزنزانة خلفه كأنه يدعو أحداً للدخول.

عندما عاود إيهاب النظر للزنزانة رأى الضخم كأنه يحادث شخصاً ما يجلس بجانبه.

قال إيهاب لسعفان:

– إيه الجنان ده؟

نظر للصول الذي هز كتفه ومط شفتيه لكن لم يعلق. ثم التفت للزنزانة ليجد الركاب الثلاثة وقد تخَشَّبوا في أماكنهم كالتماثيل.

لما يزيد عن العشر دقائق وقف إيهاب وسعفان وصالح في هدوء تام علَّ النزلاء الثلاثة يعودون لما كانوا يفعلون، لكن دون جدوى.

– أنا مش شايف كويس. هي ليه الدنيا ضلمة كده جوه؟ غيَّرلي اللمبة اللي جوه دي.

قالها والتفت لصالح الذي حدّق إليه بذهول.

– سيادتك عايزني أدخل معاهم جوّه؟

– أومّال هتغيّرها وانت بره؟ هات لمّبة وادخل غيَّرها يا عسكري.

ضرب صالح تعظيم سلام واستدار لينفّذ الأمر. بعد أقل من خمس دقائق كان صالح أمام الزنزانة شبه المظلمة. لقد تضاءلت قوة إضاءة المصباح الوحيد بالزنزانة كثيرًا في الدقائق المنصرمة.بيده اليمنى لمبة جديدة وبيده اليسرى سُلّم.

– الدنيا كحل سيادتك.

– ما هو علشان كده هنغّير اللمبة يا عبقري.

توقف صالح بعد خطوتين داخل الزنزانة، وخطف نظرة للقصير البدين الذي يقف يواجه الباب.

– باشا. هو الراجل ده كان واقف كده؟

دقق إيهاب النظر ورد ببطء:

– مش عارف. إخلَص بأه.

تقدم صالح وتخطّى الرجل القصير الذي ما زال على وضعه كتمثال في مشهد صامت. وضع الكرسي في منتصف الزنزانة أسفل المصباح الذي كاد أن ينطفئ من ضعف إضاءته.

– هو إيه اللي بيحصل؟ ليه الضوء بيضعف؟

تساءل إيهاب.

بيد مرتعشة لمس صالح المصباح. التفت إلى إيهاب متعجبًا.

– فيه إيه يابني؟

سأله إيهاب وهو لا يكاد يراه.

– اللمبة باردة سيادتك.

– باردة؟ غريبة جدًا. مش مهم. يالّا إنجز عايزين نشوف إيه اللي بيحصل قبل ما نتعمي.

تسارعت أنفاس صالح وبدا لإيهاب إنه على شفا حفرة من البكاء.

– فكها يا بني آدم!!

– حاضر.

لحظتها فهم إيهاب سبب رعب صالح فهو كان يعلم بالضبط أن اللحظة التي سوف ينزع اللمبة هي اللحظة التي سيأتي بعدها الظلام التام.

وقد كان.

تقدم إيهاب ليدخل الزنزانة لكنه لا يرى أين يضع قدمه.

– استنى اوعى تتحرك. هنورّلك بالموبايل..

طاخ...

كان هذا صوت باب الزنزانة وهو يغلق في وجهه. هتف إيهاب بحنق:

– إيه الهبل ده؟ مين اللي قفل الباب؟

صالح:

– إنت اللي قفلته؟!

صوت شيء ما يقع بالداخل في نفس توقيت صراخ صالح.

– يا باشا انا جُلتلك. جُلتلك. آه. أنا وجعت على الأرض. مش شايف حاجة واصل. إيهاب باشا!!

تقدم إيهاب للنافذة الصغيرة بينما تراجع سعفان وهو يبسمل.

– خليك مكانك يا صالح. سعفان إفتح الباب.

– سيادتك المفتاح مع صالح جوّه. كان رد سعفان.

أسقط في يد إيهاب ونظر للداخل. إنه لا يرى شيئًا على الإطلاق. لوحة سوداء معتمة. توتَّر الموقف بغتة وفكر إيهاب للحظة ثم نادى:

– سعيد!! أيمن!!!

هرول النقيبان أيمن وسعيد ومن بصحبتهما من النبطشجية إلى قائدهم.

– حد معاه مفتاح الزنزانة دي؟ صاح إيهاب فيهم.

تبادل الضباط النظرات وقد انتقل التوتر إليهم دفعة واحدة.

– إيه اللي حصل سيادتك؟

سأل أيمن بينما نظر سعيد للزنزانة المعتمة.

سعفان:

– صالح اتحبس جوه وهو بيغيَّر اللمبة.

– أنا سألت سؤال وعايز إجابة. حد يجيب المفتاح الاحتياطي.

صاح إيهاب.

سعيد:

– في واحد عند سيادتك في المكتب.

بدون تضييع لحظة واحدة هرول إيهاب إلى مكتبه وهو يهتف بهم:

– خليكو جانبه. في حاجة في الزنزانة دي.

أيمن:

– حاجة إيه؟

لم يسمعه إيهاب ليجيبه فالتفت أيمن لينظر داخل الزنزانة.

– سعيد باشا. كان هذا نداء خافتًا من صالح، نداءً خافتًا ومرتعشًا.

– مالك يا صالح؟ إنت خايف من الضلمة؟

سأله أحد الضباط.

– إجمد كده. هتخلينا..

– ششششش. قالها له سعيد. إسمع.

سكت الجميع عن الهمهمة وأنصتوا بإمعان. صوت تنفس صالح يدل أنه يبكي في صمت.

لكن هناك صوتًا آخر.

هناك شيء يرفرف في الزنزانة. ثم صوت شيء ما يزحف.

– إلحجوني. نادى صالح بصوت ضعيف.

أخرج سعيد محموله وسلّط كشافه داخل الزنزانة. وقع الضوء على الرجل الطويل أولًا.

– كان بيتحرك، مش كده؟

سأل سعفان برعب.

نظر سعيد إلى سعفان دون أن يرد. فهو أيضًا رآه يتحرك لكنه قال:

– مش شايف قوي بس حاسس انه بيقول حاجة في سره. ثم عاود النظر مجدداً داخل الزنزانة ووجّه الضوء ناحية صوت صالح. نظروا جميعًا لصالح

الراقد في منتصف الزنزانة. كان يزحف ببطء في اتجاه الباب.

– مهلًا ما هذا؟

طرف شيء ما عبر بسرعة في آخر حدود الضوء واختفى في الظلام. حرّك سعيد ضوء المحمول لكنه وقع هذه المرة على البدين. إنه لا ينظر إلى الباب كما كان. إنه ينظر إلى صالح الذي يرقد عند الباب.

– لأ. ده باصصلي. والنبي افتحوا.

كانت هذه هي اللحظة التي وصل فيها إيهاب.

– ده بيقرّب من صالح والا انا بيتهيألي؟

سأل سعيد.

نظر إيهاب من النافذة الصغيرة وهو يفتح الزنزانة.

– لأ. بيتهايألك. وسّعوا.

صوت شيء ما يطير فوق صالح.

– لأاااا.

– صرخ صالح والتفت ليطرق الباب الحديدي بكل قوته.

كانت لحظة خاطفة تلك التي فتح فيها إيهاب الباب. قام بسحب صالح بسرعة وأغلق الباب في جزء من الثانية.

– إنت كويس يا صالح؟

سأله إيهاب الذي ركع بجانبه ليطمئن عليه.

– الحمد للّه. الحمد للّه. أخذ صالح يكرر هذه الكلمة.

– خدوه الاستراحة. قال إيهاب وهو يقف معتدلًا.

بعد أن هدأ الموقف التفت إيهاب للضباط قائلًا:

– قبل ما اسمع الاستنتاجات العبقرية، حد شاف حاجة ملموسة ومتأكد مية في المية انه شافها؟

تبادل الجميع النظرات دون أن يعلق أحد.

استطرد إيهاب:

– طيب اتفضلوا قولوا استنتاجاتكوا.

سعفان بثقة من أثبت لتوه وجهة نظره:

– يا باشا الناس دي متلازمين.

إيهاب:

– يعني إيه يا بني آدم؟

سعفان:

– يعني في حد معاهم جوّه.

نظر الجميع إلى سعفان دون أدنى تعليق فما رأوه الآن يدعوهم للتأمل في كل التفسيرات.

جاء صوت وليد الغليظ:

– حد إزّاي يعني؟

سعفان:

– مش عارف. صالح اللي كان بيقول كده. أصله بيقول إنه سمع عن الحاجات دي قبل كده.

أيمن:

Nonsense. –مش عايزين تخلّف وهبل يا سعفان.

سعيد موجهًا كلامه لإيهاب:

– باشا انا لسّه عند رأيي. مشّيهم من هنا لو سمحت. إحنا مش حمل الجنان ده خلّي الدكاترة يحلوها. دي لو المشكلة طبية أصلًا. أنا حاسس إنها مش كده. خلينا نخلص منهم.

أيمن معترضًا:

– ليه ان شاء اللّه إحنا ناقصين أيد ولا رجل. هنحلها إن شاء اللّه.

سعيد:

– هو اللي إحنا شفناه ده طبيعي. يا أيمن القصة دي ممكن تضرب في وشّنا والترقية اللي هتموت عليها تنقلب جِزا.

أيمن وقد بدأ يحتدّ:

– مش هموت على حاجة يا سعيد. بس الموضوع لو طلع هايف، وغالبًا هيطلع كده، هنبقى تريقة الداخلية.

تدخل إيهاب لينهي الحوار:

– خلاص خلاص. أيمن هاتلي حد من جهاز المشروعات يركبلنا كاميرات ونراقبهم. وخلّيهم يكشفولنا على الباب والإضاءة بالمرة.

التفت ليغادر لكنه تذكر شيئًا.

– آه. لو هتعملوا أي حاجة من دي يبقي الصبح بدري. في نور ربنا.

* * *

١٩

في ردائه الرياضي جلس يوسف على المقهى يتصفح مواقع التواصل الاجتماعي حتى أعياه الملل. وجد أنه لم يتبقَ في البطارية إلا خمسة بالمائة. بعث برسالة نصية إلي إيهاب يسأله إن كان ينوي للانضمام له على القهوة أم لا ثم أغلق المحمول ووضعه على الطاولة المعدنية الصغيرة.

أخذ يتأمل حوله فوجد أن الساعة قد أصبحت متأخرة بالفعل. لقد رغب في تمضية وقت لطيف بعد الرياضة في الچيم، لكن صفحات التواصل الاجتماعي التهمت الوقت بنهم شديد. كان هذا بالضبط ما يريده فهو كان يتفادى التفكير في زيارة ابن عمه اليوم.

لكن لا مفر الآن بعد أن تخلت عنه بطارية المحمول. حسنًا، فلنحاول التذكر. استدعى كل ما يختزن من معلومات عن عائلته وجذوره أو بالأدق ما سمحت له عمته أن يعرفه.

إنه لا يتذكر الكثير. لقد كان في الرابعة عندما أتى إلى القاهرة مع عمته توحيدة. كانت سلمى ما زالت رضيعة. تولى أمرهم والد إيهاب قبل أن يختفي دون أثر تاركًا إيهاب لتوحيدة كي ترد جميله وتربّيه.

إن ظروف اختفاء الجيل السابق لهم بأكمله لهي لغز فقد يوسف وإيهاب الأمل في حلّه. لكن ما هو مؤكد أن والد يوسف وأمه وأعمامه قد اختفوا في نفس العام وربما نفس الشهر. ولقد تخيل يوسف وإيهاب أن الأمر ربما يكون أعجب من هذا. تشير بعض الأدلة أنهم ربما قد يكونوا اختفوا جميعًا في نفس الليلة: في (ليلة القطّان) كما أسمتها عمته. واللغز الحقيقي هنا يكمن في كلمة اختفوا لأنه لا يوجد قبر لهم. فقط مقبرة كالضريح (رغم إنه محرّم) عبارة عن ساحة فارغة تزورها توحيدة في مواعيد غير ثابتة.

لقد فرضت توحيدة تعتيمًا لا يقهر على أي شيء له علاقة بماضيهم.

ماضيهم المدفون في بر الضيف.

يعرف يوسف أنه لا يوجد الا حل واحد يتلافى الوصول إليه: لابد أن يتكلم مع عمته.

نفض عن ذهنه هذه الفكرة مؤقتًا ونظر حوله. رأى أن الوقت قد سرقه وهو في هذه الرحلة إلى الماضي، لكنه متأكد الآن أن إيهاب لن يعود في وقت قريب من القسم فهو لم يرد على مكالماته ولا رسائله.

"خلاص سيبك من إيهاب خلّينا نستمتع بالجلسة".

إن كورنيش النيل ساحر حقًا. لا يهم عدد المرات التي رأيته فيها ولا حتى إن كنت تسكن بجانبه طوال عمرك، فحين يقع بصرك عليه لا يسعك إلا أن تسرح في إيقاعه، ولو للحظات. خصوصًا هذا الوقت من اليوم، عند اقتراب الليل من منتصفه. عندها ينتقي النيل مرتاديه فلا ترى إلا مريديه. إن كنت ممن يتوهون في اللؤلؤ الراقص فوق سطحه ليلًا ويسمعون تلك النغمة الفريدة التي يدندن بها لحاله غير عابئ بكل ما يدور حوله.. فأنت من مريديه.

هناك سيارة ما منتظرة بجانب الكورنيش رغم أنه ممنوع. لكن حتى رجال المرور يتساهلون مع شخص غلبه الشجن وقرر أن يشارك النيل أغنية ما.

هناك أيضًا مجموعة صغيرة من الشباب يتسامرون ويضحكون – يأخذون احتياجهم الأسبوعي من الأمل والفضفضة.

مش عارف ليه إحنا يا اللي ساكنين جنبه مش بنستغل الموضوع ده؟ ليه مباخدش ليلي ونتمشى على الكورنيش بالليل زي ما وعدتها في بداية جوازنا؟ الوعد اللي تقريبًا ما اتنفذش ولا مرة.

دارت تلك الأفكار في ذهن يوسف والتفت إلى عمارته ليرى أن غرفة نوم حسن قد أظلمت مما ينذر بانتهاء أعمال التجهيزات لحفلة عيد الميلاد غداً، على الأقل لليوم. نقل نظره لغرفة نومه فوجد باب شرفتها فُتِح وخرجت ليلى حامله لفّة أقمشة وملاءات متسخة لتخزينها مؤقتًا في الشرفة. من ورائها لمح تلك الخادمة البدينة وهي تتهادى ببطء حاملة لفّة ثانية إلى الشرفة ورأى سلمى مستندة إلى الباب. كانت تقول شيئًا ما.

رفع عينيه أكثر، إلى سطح العمارة، فوجد نور هادئ يشع من الكشاف الوحيد المعلق فوق السلم الخشبي الذي يقود للا مكان. ساعدت الصفيحة المعدنية الملحقة به على إضافة لمسة خافتة للضوء.

ولكنها بلا أي معنى. كان هذا رأي يوسف. وجود هذه الصفيحة من اتجاه واحد لا يعوق هجوم الحشرات ليلًا. لكن توحيدة لا يستطيع أحد أن يناقشها فهي تمتلك شخصية كاسحة. هادئة هي كالبحر قليلة الكلام يخشى أي شخص إغضابها خوفًا من عاصفة لم يرها. فهي لم تَثُر ولا حتى مرة واحدة وكان لهذا وقعًا أقوى. انتظار شيء يجعلك تتوقع أسوأ شيء ممكن. هي في محيطها الاجتماعي بمثابة كبيرة المنطقة مما جعل الناس يتوقعون أنها سليلة عائلة طويلة من العُمَد.

– هارو..

لم ينهِ يوسف ندائه على القهوجي وتسمّر حين وجده واقفًا يرمقه في صمت والصينية التي بيده مدلاة أمام ركبتيه. لوّح إليه بأن يأتي بالحساب ثم التفت إلى النيل محاولًا الدخول في تلك الحالة الشاعرية مرة أخرى. على البر الآخر شيء ما لا يستطيع تحديده يناديه. لحظتها تذكر كلام هارون السائق.

(كل بر بيبص على البر التاني).

ثم رأى منظرًا لفت انتباهه على ناحيته من النيل. مجموعة من الكلاب، تزيد عن العشرة، يقفون تحت شجرة على الكورنيش في الجهة المقابلة لعمارته. فى مشهد صامت تنظر الكلاب صوب النيل غير عابئين بمن يمشي بالقرب منهم أو بالسيارات التي تعبر مسرعة من ورائهم.

بين الحين والآخر يخطو أحدهم تجاه سور الكورنيش ويختفي خلف الشجرة ثم يتراجع. يرفعون أنوفهم في الهواء كأنهم يشمون شيئًا ولكنهم لا يفعلون أكثر من ذلك.

– الحساب يا باشمهندس.

– التفت يوسف لهارون الذي كان يقف بجانبه.

دس يوسف يده في جيبه وقال:

– إنت مش عازم النهارده يا هارون والا إيه؟

لم يتعجب يوسف لعدم تفاعل القهوجي مع مزاحه لكنه تعجب عندما رفع عينيه ليراه محدقًا بتركيز شديد مع مشهد الكلاب عبر الشارع.

– سلام عليكو. قالها وقام من جلسته لكنه تباطأ للحظة منتظرًا رد هارون الذي لم يأتِ. فقد مد الأخير يده بآلية للطاولة والتقط الأوراق المالية التي تركها يوسف دون أن يحول عينيه عن الكلاب.

مط يوسف شفتيه وتركه ليعبر الشارع الجانبي لعمارته. ألقى السلام على البواب الذي لا يغادر أريكته المريحة إلا عندما يتأكد أن كل من يريد الدخول للعقار قد دخل وكل من يجب عليه الخروج قد خرج. عندها يغلق باب العمارة بالمفتاح وينام.

– تصبح على خير يا عودة.

– هي الشغالة اللي فوج عنديكم هتبات الليلة دي؟ عايز أجفل باب العمارة.

– لأ طبعًا. هطلع إمشيها أهوه. عايزين ننام.

– رد يوسف مبتسمًا.

– ماشي يا باشمهانداز. تصبح على خير. بس والنبي لو فيه عربيّات نجل جايه بكرة تاني إبجي جُولّي علشان أنور بيه عاميلّي أزعرينة على الموضوع دهوّه.

– لأ نقل تاني إيه؟ ده يبقى خراب بيوت.

* * *

رقد يوسف في السرير يقرأ كتابًا على ضوء الأباجورة المجاورة له بينما ليلى بالخارج تعطي اعتماد آخر التوصيات بخصوص اليوم المهم غدًا. ما إن سمع يوسف صوت باب الشقة يغلق حتى نادى على زوجته.

طلّت برأسها من الباب وقالت:

– ثواني يا سوفو والنبي هخلّص شوية حاجات وآجي.

تمتم يوسف قائلًا:

– مكانش عيد ميلاد ده.

– آه صحيح. إمسك.

– قالتها ليلى وهي تمد يدها ليوسف بالتابلت الذي أعطته إياه سميّة كهدية مقنّعة.

بهت لجزء من الثانية مما جعل ليلى تسأله:

– إيه؟ هو مش بتاعك ده والا إيه؟ اعتماد لقيته بره وقالتلي إنه بتاعك. أمينة البِت دي. بفكر أدّيها شوية من هدومي اللي صغرت عليّا.

رد يوسف وقد انهمك في القراءة مرة أخرى:

– آه بتاعي. وبعدين دي هدومك إعملي اللي إنتي عايزاه فيها. بس أشك إنها هاتيجي على مقاسها.

قالت ليلى وهي في طريقها للمطبخ:

– ماشي.

صوت رسالة على المحمول الملقي بجانبه. التقطه وقرأ الرسالة. ثم نادى على ليلى مجدداً.

ردت عليه:

– عشر دقايق وهاجيلك.

– يا بنتي تعالي!

صوت خطواتها تأتي مسرعه وأطلت برأسها وقالت:

– وطّي صوتك حسن نايم.

– إفتحي باب العمارة بالإنتركوم علشان إيهاب.

– هو نسي المفتاح والا إيه؟

– آه. كالعادة. وسلمى مبتردش.

– عندها حق واللّه. ده بقالوا تلات ايّام مشافتهوش الا ساعة. هي دي عيشة؟

ثم خرجت لتضغط زر الإنتركوم ورفعت السماعة:

– فتَّح يا إيهاب؟

صوت إيهاب التعِب:

– آه. شكرًا.

– طب إطلع لمراتك بقى.

زمجر إيهاب وصفق السماعة دون أن يعلّق.

– هم ظباط الشرطة كدة كلهم.

قالت ليوسف وهي على باب الغرفة.

– هو إنتي عارفه هو شاف إيه اليومين دول علشان تحكمي عليه؟

– هي دي مش اختك برضه؟ بتدافع عن صاحبك كده على طول؟

– معلش. أنا حاسس إن إيهاب فيه عنده حاجة مش طبيعية اليومين دول. هحاول أعرف منه بكرة.

* * *

٢٠

الساعة ١:٥٥ فجر الجمعة..

العمارة نائمة.

النوافذ مغلقة وما وراءها مظلم. الشارع الجانبي الذي يفصل بين العمارة وبين القهوة فارغ تمامًا إلا من كلبٌ وحيد يسعى بجد للانضمام إلى زمرة الكلاب المتجمهرة على الكورنيش. أما الكورنيش نفسه فأصبح مرتعًا لأناس مختلفين. الخطيئة على وجوههم والخبث والظلام يملآن قلوبهم. لكن حتى البلطجية ومتعاطو المخدرات بأنواعها تفادوا هذا التجمهر المهيب من الكلاب. ما يزيد عن خمسين كلبًا يشمشمون في الهواء ويصبّون اهتمامهم للنيل في صمت وترقُّب.

لسبب لا يعلمه فتح يوسف عينيه.

وجد نفسه يحدق إلى أنوار الشارع الصفراء وهي تتخلل عبر فتحات الشباك الذي يفتح على الشرفة. صوت أنفاس ليلى خلفه على السرير يخبره أن زوجته قد استسلمت لسلطان التعب أخيرًا. ابتسم وكان على وشك أن يدور ليطبع قبلة على رأسها لكن فجأة انطلق نباح الكلاب يدوي كالقنبلة.

انتفض يوسف من فوق السرير واقفًا وفزعت ليلى من نومها.

– يوسف! روح شوف الولد.

أسرع يوسف لغرفة حسن وتأكد أنه نائم بسلام في فراشه. دوى النباح مجددًا ليرجّ المنطقة بأكملها. هذه المرة استيقظ حسن باكيًا لكن لحسن حظه أبوه كان بجواره فأسرع بضمه إليه.

– متخفش يا سوكة. بابا هنا.

ثم حمله وذهب به إلى غرفتهم. هناك وجد ليلي عند النافذة تطل على الشارع من خلال فتحات الشيش. وضع حسن على السرير وتركت ليلى مكانها لتجلس بجوار ابنها.

كان النباح قد توقف لكنهم سمعوا صوت أنور وهو ينادي على عودة البواب. خرج يوسف إلى الشرفة ونظر إلى الكورنيش باحثًا عن مصدر النباح الهستيري فوجد زمرة الكلاب وقد تضاعف عددها. هي الآن لا تنبح لكنها عاودت سلوكها العجيب الذي رآها يوسف عليه من بضع ساعات. أنوفها في الهواء كأنها تبحث عن شيء ولا تتحرك من مكانها خلف الشجرة. أنوار الشارع القليلة التي لا تتعدى الأعمدة الخمسة لا تساعد علي الرؤية الواضحة لكن

بالتأكيد هناك العديد من المنازل قد استيقظ أهلها بدليل النوافذ التي أضيئت في تلك اللحظة.

مهلًا.. هل هذا قارب يقترب بتؤدة من الشاطئ؟ بالفعل. لكن الشجرة تخفي محتواه.

لقد رسا خلف الشجرة. يهتز معلنًا نزول أشخاص منه. لكن.. أين هم؟

لقد توقف القارب عن الاهتزاز لكنه لم يرَ أحداً ينزل منه.

مرة أخرى عاد هزيم النباح. هذه المرة مصحوبًا باللعنات والشهقات المكتومة وقد تضاعف عدد النوافذ المفتوحة.

– هم بيهوهوا على إيه؟

– سألت ليلى.

لمح يوسف رأس أستاذ خليل الأصلع ممتدّا من شرفته وهو ينظر إلى الكلاب.

– مش عارف. شكلهم بيهوهوا ناحية النيل. في حاجة مجنناهم من إمبارح. ممكن يكون القارب ده.

– كان رد يوسف.

صوت أنور يدوي مجدداً:

– يا عوداااااة!!!

خليل:

– يا أنور بيه مش هيصحى.

– أكيد فيه حرامية. صاح أنور.

– فين إيهاب بيه؟ عربياتنا ممكن تكون بتتسرق.

وهكذا انقلب الليل الهادئ إلى سيرك.

– صحيح فين إيهاب بيه؟

تساءل يوسف.

قبل أن يغلق شباك شرفته معلنًا انسحابه، لمح في القهوة التي أغلقت منذ ساعات شخص يقف في البوفيه المظلم. لا يستطيع تحديد ملامحه لكنه كان ينظر جهة الكلاب.

لم يسع يوسف إلا أن يستنتج هويته لكنه قرر أن يتجاهل هذا الأمر أيضًا.

فالنوم سلطان.

* * *

٢١

يوم الجمعة صباحًا تتبدل مصر ببلد أخرى. ففي تلك الساعات القليلة التي تسبق صلاة الجمعة تصبح القاهرة تمامًا كما يتمناها قاطنوها: بدون قاطنيها.

في الصباح استيقظ إيهاب على صوت ضجيج. هب من نومته وخرج ليرى دولابًا يمشي في اتجاهه. انحرف يمينًا ليتفاداه فرآه محمولًا على ظهر عوده وبجانبه سلمى توجهه كي لا يكبد الحوائط والأبواب أية خسائر.

– صباح الخير.

– صباح النور.

ردت عليه سلمى وهي تنظر إليه بابتسامة مقتضبة.

طاخ. اهتز الدولاب جراء ارتطامه بالحائط الذي يفصل غرفة نومهم عن الغرفة الفارغة بآخر الممر القصير.

– يا عودة إرحم البيت والنبي.

قالت سلمى.

– أنا مش فاهم يا هانم مَا كُنَّا نخزن أوضة البيه حسن في الجراچ على طول.

– خليك في حالك. خلاص الدولاب هوه آخر حاجة.

كان رد سلمى عنيفًا بدرجة مبالغ فيها. حتى أن إيهابًا وعودة تبادلا نظرات تعجب دون النبس ببنت شفة.

قرر إيهاب إلقاء مجاملة لتلطيف الجو:

– واللّه جدعة يا سلمى بدل ما تتبهدل الأوضة في الجراچ.

انتظر منها ردًا ما لكنها كانت في قمة تركيزها مع الغرفة.

– طب جاتلك رسالتي امبارح؟

بدت له أنها لم تسمعه فهز كتفه وقال وهو يدخل الحمام:

– هروح القسم ساعة كده بعد صلاة الجمعة وأرجع على طول. كنّا بنركّب كاميرات هتأكد إنها ركبت.

هنا رفعت سلمى عينيها عن مكونات الغرفة وابتسمت لزوجها قائلة:

– آه يا حبيبي شفتها. ربنا يعينك. معلش مركزه مع عودة.

رغم الابتسامة لم تغب عن إيهاب نظرة غريبة على وجهها لكنه لم يُعلّق.

***

خرج يوسف من المسجد ووقف منتظرًا إيهابًا. حيَّا الاثنان بعضهما البعض وسارا معًا يتحدثان.

– على فكرة أنا عدّيت الصبح عليك لكن كنت نايم. قلت أبص على الراديو اللي قلتلي عليه. مستحيل يا إيهاب يشتغل من غير مصدر طاقة. ممكن يكون واحد من الفنيين كان موصله بطارية وما خدتوش بالكوا. إنما إيه الحكاية؟

– حاجة ولا الخيال يا يوسف. القسم عندي مقلوب وفي وسط المشهد الراديو ده بالميكروباص بتاعه باللي كانوا في الميكروباص.

– طب ما تحكي يمكن أقدر أساعد.

– مش قادر يا يوسف أتكلم في الشغل دلوقتي. ممكن بالليل. يمكن لما أنام الضهر شوية أرجع بني آدم تاني.

– هو إنت كنت نايم بالليل فعلًا ومش سامع ولّا كنت مطنّش؟

سأله يوسف ضاحكًا.

– أنا كان بقالي تقريبًا تلات ايّام منمتش. كوابيس من اللي قلبك يحبها؛ في الواقع وفي النوم. لقينا عيال شاربين حاجة أول مرة نشوفها وكلاب متجننه وبتهوهو زي المسعورة وراديو بيشتغل من غير كهربا وبلاوي بعيد عنك.

– كلاب؟ طب تصدق إن ده مكنش حلم. فعلًا إمبارح المشكلة كانت مشكلة كلاب. أعداد رهيبة وقفت على الكورنيش وأعدت تهوهو بهيستريا.

إيه ده؟؟؟ تساءل إيهاب في قرارة نفسه. كلاب بردُه؟ هل دي صدفة؟

كانوا قد وصلوا إلى العمارة فوجدوا عندها تجمهراً من الجيران والبوابين. وسطهم وقف أنور في حالة هياج كعادته. بجانبه وقف أستاذ خليل يهدئه.

- بحق العدرا لتهدي نفسك. أنا مصدقك يا راجل.

- مصدقني في إيه يا جدع إنت؟ هو اللي أنا بقوله ده عَجَبه؟ بقولك دول يا إما تجار مخدرات يا إما هجّامة بيبعتوا رسايل مشفرة لبعض. أنا أربعين سنة قبطان بحري و بقولك..

ما أن رأى إيهاب حتى صاح:

- أهوه. يا إيهاب بيه!

همس إيهاب ليوسف:

- الراجل ده أخرتوا على أيدي. ثم اصطنع ابتسامة جعلت يوسف يضحك ثم التفت ليجيب مناديه.

- أيوه.. خير يا سيادة القبطان.

خرج أنور من الجمع واتجه إليه.

- دلوقتي يا سيادة المقدم كان فيه إمبارح حاجات غريبة بتحصل في الفجر. وأنا لاحظتها وعندي نظرية مؤكدة.

- طيب خلاص. طالما حضرتك حلّيت كل حاجة. المطلوب مني إيه؟ بهدوء واهتمام مصطنع سأله إيهاب.

بهت أنور من السؤال وخطف نظرة ليوسف الذي أخفى استمتاعه بالحوار بابتسامة مرتعشة على وشك الانفجار لقهقهة. كظم أنور غيظه ورد:

– لأ بس المفروض سيادتك الشرطة تتصرف.

– طيب عمومًا حضرتك إتفضل قولي إيه الموضوع.

تحمّس أنور وهو يشرح لإيهاب ما رآه ليلة أمس..

كنّا زي ما إنت سيادتك عارف صحينا كلنا من النوم بسبب الكلاب.

حاولنا نفهم إيه اللي بيحصل مافيش فايدة وطبعًا عودة كان نايم في سابع نومه. المهم بحسّي الأمني لاحظت إنهم بيهوهوا على النيل، زي ما يكون في حاجة مخوفاهم. لفت انتباهي قارب راكن أدامنا بس كان فاضي.

إيهاب:

– عادي. في قوارب بيقفوا أدامنا كتير. شفت مين اللي راكبه؟

أنور وقد بلغت الحماسة منه مبلغها فبدأ يخرج من فمه شلال من الرذاذ تفاداها إيهاب بمهارة:

– لأ لأ كان فاضي. فقررت، زي ما الناس كلها عملت، إني أدخل أنام. بس هنا بقي الحاجة الغريبة اللي بقولك عليها حصلت.

أعطاه إيهاب جزءاً أكبر من اهتمامه وكذلك فعل باقي الجمهور.

– إنتوا عارفين إن الناحية التانية من النيل عندنا، البر التاني اللي قصادنا يعني، فاضي وبيبقى ضلمة تمامًا بالليل. أول ما لفّيت علشان أخش وطفّيت نور البلكونة، لقيت زي ما يكون فيه نور الناحية التانية طفي، في البر التاني يعني. أنا طول عمري في البحر وعيني بتلقط الأنوار بدقة عالية وخصوصاً لو بالليل. وقفت مكاني وولعت نور البلكونة تاني، وبصيت للبر التاني.

سأله أستاذ فاروق بلهفة:

– وشفت إيه؟

التفت إليه أنور وقال بانتصار:

– لقيت النور رجع تاني.

فاروق:

– النور اللي في البر التاني؟

أنور:

– أيوه. ده خلاني أجرب أطْفّي نور بلكونتي تاني. وفعلًا، زي ما توقعت، النور الناحية التانية طفي. جربت كذا مرة والنور اللي الناحية التانية ده، اللي عامل زي ما يكون مصباح، بيطفي ويولع معايا.

فاروق مخاطبًا إيهاب:

– ده مافيش حد ساكن الناحية التانية. يبقى مخدرات يا باشا طبعًا.

ضحك إيهاب نصف ضحكة وقال باستخفاف:

– عظيم. وإستنتاجك إنهم بيبعتولك إشارات؟

أنور:

– ممم. حاجة زي كده؟

– يعني إنت معاهم؟

أنور بغضب:

– إيه؟!! إزّاي سيادتك تقول كده؟ ده أنا خمسين سنة..

قاطعه إيهاب:

– والمطلوب؟

اهتز صوت أنور من نظرات الناس الساخرة.

– عايزين وحدة ثابتة أدامنا.

– وحدة ثابتة مرة واحدة؟ طب خليها الأول دورية راكبة تعدي كام مرة.

– ماشي. موافق. بس خليهم يعدوا مرتين بالليل على الأقل.

بقول لسيادتك دول يا تجار مخدرات يا بيبعتوا رسايل لبعض علشان يشوفوا الجو إيه هنا ويهجموا علي بيوتنا.. أو جراچاتنا.

قضب إيهاب حاجبيه ثم عقّب بنبرة حازمة:

– مش بمزاجنا يا سيادة القبطان. فيه نظام مبندخلش فيه.

انخفض صوت أنور وهز رأسه مؤمِّنًا.

– تمام تمام. شكرًا يا إيهاب بيه. بس أرجو الاهتمام بالموضوع ده.

وانصرف وشعورٌ بالتسفيه لا يستطيع التغلب عليه يملؤه.

بعد أن انصرف أنور استعاد الجمع روحه المعتادة في هذا الوقت وفُتحت مواضيع شتى تبادل فيها الجيران الآراء، اقترب خليل من إيهاب الذي التفت إليه وانفصل عن الحوار القائم أمامه بين يوسف أستاذ فاروق.

خليل:

– ممكن كلمة يا إيهاب يابني؟

– خير؟

سأله إيهاب ويديه في جيوب البنطال الرياضي.

ابتعد إيهاب معه عن الجمع. تلفت خليل حوله كي يتأكد أن لا أحد يسمعه وتردد قبل أن يقول:

– يا إيهاب باشا أنا كنت واقف ساعتها برضه، في بلكونتي وانا بتابع حكاية الكلاب دي. وأحلفلك باللي انت عايزه إن أنا شفت النور اللي في البر التاني ده. ودي مش اول ليلة.

– يعني إيه؟

– زي ما بيقول لسيادتك كده. شفته أول إمبارح كمان.

كان صمت إيهاب مهيب فتركه خليل يفكر لكنه اضطر أن يقطع الصمت قائلًا:

– إيهاب باشا.. في حد بيراقب عمارتنا.

* * *

٢٢

ذهب إيهاب للقسم كي يتابع عملية تركيب الكاميرات. على كرسي يمين باب الزنزانة من الداخل جلس وبيده كوب قهوة. منفصلًا عن ما يدور حوله، ينظر بعينين مرهقتين إلي النزلاء الثلاثة الذين ما زالوا على أوضاعهم التي تركهم عليها بالأمس. تماثيل آدمية لا تتحرك. أضاف ما سمعه من جيرانه همّا إلى همه، لكنه قرر إرجاء التفكير فيه.

– إيهاب باشا.

التفت للنقيب أيمن فوجد معه رجل بلباس مدني ذي قامة متوسطة ورأس حليق تحت قبعة سوداء.

– الرائد جمال جهاز مشروعات الشرطة.

هكذا عرّف نفسه باعتداد. جاء الصول سعفان بكرسيين ووضعهما أمام إيهاب، فجلس أيمن وجمال عليهما في صمت.

– خلّصت يا سيادة الرائد؟

سأل إيهاب ببرود.

وضع جمال ساق فوق الأخرى ورفع أنفه متحدثًا بثقة وهو يشير للأركان الأربعة للسقف حيث ينبض ضوء أحمر خافت.

– الزنزانة كده مفيهاش ركن مش متراقب.

ثم مال للأمام مضيقًا عينيه لوضوح الذكاء وسأل:

– إنتوا فيه حاجة معينة بتدوروا عليها؟

رفع إيهاب صوته قليلًا وهو يقول:

– حضرتك جاي لمهمة محددة يا سيادة الرائد. خلّصتها؟

تسمّر الموجودون والتفتوا لمصدر الصوت.

اعتدل جمال في جلسته واحتقن وجهه إحراجًا. نظر لأيمن الذي تذكّر محموله فجأة فشرع يعبث به غير عابئ بأنه بطاريته قد ماتت وشبعت موتًا من ساعات.

– بعتذر يا فندم. كله تمام.

قال جمال ونهض مؤديًا التحية وانصرف بعد أن أمر معاونيه بلملمة أشيائهم واللحاق به.

دقائق معدودة مرت قبل أن يجد إيهاب وأيمن وسعفان أنفسهم في الزنزانة مع المساجين وحدهم. ما زال السجناء الثلاثة على وضعهم؛ محدقين إلى الأرض أمامهم كلٌّ في مكانه الأخير.

– إيهاب بيه.

قالها أيمن لرئيسه بصوت منخفض.

– إنت exhausted الأسبوع ده. روّح ارتاح يا باشا. النهارده الجمعة ومن حق سيادتك ترتاح. أنا هكمّل اللي فاضل.

تجاهل إيهاب الإنجليزي في كلام أيمن وفرك عينيه وهو يقول:

– ماشي. بلّغوني باللي بيحصل أول بأول.

ثم قام خارجًا من الزنزانة حيث قابل سعيدًا وفي يده ورقة ما.

سعيد:

– إيهاب باشا. احنا وصلنا لآخر مكان كان فيه الميكروباص.

إيهاب بلهفة:

– فين؟

قرأ سعيد الورقة التي بيده ثم رفع عينه الي إيهاب قائلًا:

– بلد في آخر الجيزة تبع مركز العلاتمة إسمها غريب شوية.

– إسمها إيه؟ إخلص.

– إحم. إسمها بر الضيف.

* * *

٢٣

وقفت سلمى أمام فترينة محل تتكدس فيها الألعاب بعضها فوق بعض. فوضى تجعلك تيأس أن تصل لقرار من كثرة الاختيارات. لكن سلمى تعلم مبتغاها جيداً. لقد أقامت حواراً مع حسن منذ ما يزيد عن شهر كي تعرف ما يعجبه. هذا بجانب إنها تلاحظ تطورات شخصيته واهتماماته أكثر من أبويه نفسيهما.

هناك شخصية كرتونية جديدة قد جذبت انتباهه وسلمى قررت أنها ستبحث عنها في جميع محال اللعب حتي تجدها. إنها تعتبرها مهمة سريّة ولَم تُشارك أحداً فيها حتى إيهاب. لقد احتفظت بمعلومة الشخصية الكرتونية الجديدة لنفسها طول مدة بحثها التي استمرت طوال الشهر المنصرم.

إنها لا يهمها نظرات الناس لها المليئة بالشفقة ولا الهمسات التي تسمعها من وراء ظهرها. هي تعرف وتفهم. لا يهمها إلا رؤية ابن أخيها سعيد.. وكفى.

إن عيد ميلاد حسن اليوم وقد حان الوقت لشراء الهدية. لقد خطَّطت لكل شيء بدقة. لم يكن

باستطاعتها شراؤها قبل ذلك دون أن تعلم ليلى أو يوسف أو حتى إيهاب؛ لذا فقد حجزتها بعربون كبير كي لا تُباع وأتت الْيَوْمَ لأخذها. فقط يجب أن تنتظر أن يأتي العاملين كي يفتحوا المحل.

أخذت تتأمّل الألعاب المعروضة والحماسة تملؤها. إنها الساعة الثالثة ويجب أن تعود كي تساعد ليلي في التجهيزات.

هناك من يقف على مقربة منها يراقبها في سكون. التفت لترى صبيّا صغيرًا ينظر إليها في صمت وعلى وجهه ابتسامة عريضة غير مبررة. يبدو عليه ضيق الحال، ولكنه لا يطلب شيئًا.

تأملته سلمى. يا له من عالم ظالم! التفت الطفل لڤاترينة الألعاب وابتسم.

– عايز لعبة يا حبيبي؟

سألته سلمى وقد غلبتها أحاسيس شتى. إنه طفل صغير الحجم يبدو أنه يعاني التَقزُّم. رأسه أكبر من اللازم بفم كبير وأنف معوج قليلًا. ليس جميل الطلّة، لكن بالرغم من هذا ابتسمت له سلمى ولوحت له لكنها لم تجد رد فعل جديدًا، فقط تلك الابتسامة المبالغ فيها. يا له من طفل غريب! جلبابه النظيف تنفي فكرة أنه طفل شوارع.

جالت سلمى بنظرها في الشارع الهادئ نسبيًا في ذلك الوقت من الْيَوْمَ وخصوصًا يوم الجمعة، لكنها لم تجد أحدًا مهتمًا بالموقف أو متابعة الطفل.

– ماما فين يا حبيبي؟

مجددًا مزيد من الابتسامات. صوت الباب الزجاجي للمحل يُفتح فالتفتت سلمى لتجد البائعة التي تعرفها جيدًا تمد رأسها قائلة:

– إزيّ حضرتك يا مدام؟ حاجتك جاهزة.

بدون أدنى تفكير نسيت سلمى القزم ودلفت المحل.

٢٤

جلس يوسف في الشرفة يتصفح ملف قضية بيت المعادي المملوك للحاجّة سمية. لسبب ما ذهنه لا ينصاع لأوامره ويرفض التركيز في ما يفعله. مد يده ليلتقط السيجارة المهترئة من فوق الطاولة ويبدأ في المرور بها بين أصابعه. تحين منه نظره للتابلت الراقد بجانبه.

مش بتاعك يا يوسف. ركّز في شغلك.

دار في ذاكرته حواره مع سمية. يا ترى النسبة كام؟

مالك يا يوسف؟ إستغفر اللّه.

طب الورث بتاعي ده؟ ياترى البيت بكام؟

باب الشرفة يُفتح ويسمع صوت تقليب ملعقة في كوب زجاجي. التفت ليرى الخادمة العجوز البدينة وهي تعاني للوصول إليه بالصينية. وضعت الكوب على الطاولة الخشبية بجانبه فشكرها وعاود القراءة.

– عايز ولاعة ياباشمهندس؟

سألته المرأة.

– لا شكرًا يا اعتماد. أنا بطّلت سجاير. دي بتساعدني أفكر بس.

لا تزال واقفة بجانبه تقلب السكر في الكوب وتتمتم بشيء ما.

– خلاص كفاية يا اعتماد. شكرًا.

أخرجت الملعقة من الكوب ورفعت صوتها فسمع يوسف دعاء له بأن ينير له ربنا طريقه. ابتسم لها يوسف وقال لها كم يحتاج مثل هذا الدعاء بشدة. همّت أن ترد لكن ليلى اقتحمت الشرفة ووضعت على الطاولة علبة صغيرة مفتوحة عليها بقايا غلاف هدية.

– هديتك.

قالتها وانصرفت مسرعة. بعد عِشرة دامت سبع سنوات يستطيع أي زوج معرفة العاصفة الزوجية حين تهل.

ناداها:

– ليلى، إيه دي؟

لم ترد عليه.

فكر للحظة محاولًا استنتاج المشكلة، ولكنه لم يصل لشيء فتنهد والتقط العلبة وذهب إليها واضعًا السيجارة في جيبه.

تفادى الخادمة وزوجة البواب وحسن الذي يلعب حول الأثاث المبعثر ولحق بزوجته في المطبخ. وجد سلمى هناك أيضًا لكنها ما إن رأت التغييرات التي طرأت على وجه زوجة أخيها حتى رفعت حاجبيها وهربت دون أن تنطق ببنت شفة بدلًا من الوقوع في طريق العاصفة.

بعد أن خلا المطبخ عليهما سألته ليلى:

– مين سميّة دي؟

نظر يوسف إليها غير مصدق.

– سميّة؟

سألها بصدق ثم تذكر فقال:

– آه دي صاحبة فيلا المعادي اللي عليها نزاع. بتسألي ليه وعرفتي إسمها منين أصلًا؟

عقدت ساعديها أمام صدرها وأشارت بإيماءة من رأسها قائلة:

– فيلا في المعادي حتة واحدة؟ طب ما تفتح كده شوف بعتالك إيه.

نظر إلى العلبة وقرأ على بطاقة المعايدة (كل سنة وحسن بخير. وصّلّه مليون بوسة مني– سمية الدهشوري).

أسرع بالنظر داخل العلبة فوجد جهاز محمول من أغلى نوع.

يا بنت الذين..

رفع عيناه لتلتقيا بعيني ليلى المليئة بالشك.

– ليلى، سؤالك ده بجد؟

تلعثمت لحظة:

– آه وإيه يعني؟ شكلها إيه سميّة دي؟

تنهد وأجاب:

– سُمَيَّة دي فاتنة تعدت الستين من عمرها لكنها لسبب ما مش مقتنعة بكده.

بدأت ملامحها تلين.

– يعني تأخذ مليون بوسة من واحدة بالمواصفات دي؟

– أولًا هى تقصد حاجة تانية غير إنها تبعت البوس ده كله لحسن، مش زي ما إنت فاكرة.

– أومال إزّاي يا باشمهندس؟

ضحك ومد يده ليجذبها إليه.

– هفهّمك.

لكنها تملّصت منه قائلة:

– رد عليَّ السؤال.

صمت لحظة فهو لم يذكر لها الموضوع حتى الآن لكنه قرر أنه لا بد أن يشاركها إياه. عمومًا هو الاختيار الوحيد في هذا الموقف.

– دي رشوة.

– إيييه؟!

– قصدي عرض برشوة.

رفعت حاجب وأخذت تهز أرجلها بعصبية.

– ده استنتاج طبعًا مش أكيد. هم مش هيعملوا حاجة تتمسك عليهم.

– تقصد مليون جنيه والّا إيه؟

ابتسم قائلًا:

– غالبًا.

– وهي بقى اللي جابتلك التابلت كمان؟

– أيوه هي. بس تعالي هنا. إنت بتغيري عليا يا لول؟

– من إمتى بيجيلك هدايا من ستات؟ وكمان عليها مليون بوسة.

مد يده يدعوها إليه لكن سلمى اقتحمت عليهم المطبخ.

– تعالوا كده. فيه حاجة غريبة.

تبادل يوسف وليلى النظرات وتبعوها هامسين بعتاب عذب لبعضهما. ما إن خطوا خارج المطبخ حتى سمعا سلمى تسأل:

– إيه ده؟

نظرا لما تشير إليه.

– دي زادت عن إمبارح.

قالت ليلى وهي تنحني لتلمس الخطوط السوداء غير المتساوية في الطول والتي تبدأ عند عتبة باب غرفة حسن. تمتد الخطوط في الممر وتتلاشى تدريجيّا كلما بعدت عن الباب.

– اعتماد. هاتي قماشة تنضيف

انحنى يوسف بدوره، وأخذ يفحص الخطوط بأصابعه.

– دي مش وساخة. دي كحت أو خربشة في الخشب باستخدام حاجة فيها هباب إسود.

أخذت ليلى الخرقة من اعتماد التي عادت أدراجها للمطبخ والتفتت لزوجها قائلة:

– خربشة حاجة زي إيه؟

– مش عارف. إنتي بتقولي إنك شفتيها من امبارح؟

– آه. جلست القرفصاء وحاولت إزالة اللون بقطعة القماش لكنها فشلت.

– يوسف!!

التفتوا ليروا توحيدة عند باب الشقة المفتوح. ترتدي فستان ماكسي أسود ذا تصميم قديم، لكنه أنيق. على رأسها قبعة يتدلى منها برقع قطني شفاف على جنب لا تغطي به وجهها. هبّ يوسف واقفًا وذهب لعمته بينما رحبت كلٌّ من ليلي وسلمى وأم أحمد بها.

مد يوسف يده ليأخذ بيدها وابتسم قائلًا:

– إيه المفاجأة التحفة دي يا عمتي؟ لابسه كده ليه؟

رفعت أنفها تشم الهواء ثم سألت يوسف:

– مين اللي جالك من البلد يا ولِد أخوي؟

فوجئ يوسف بالسؤال.

مال كل أسرارك بتتكشف النهارده يا عّم يوسف؟ لكن توحيدة مبتهزرش. لو سألت عن حاجة فهي تقريبًا عارفاها. ده هيبقي تاني سر تعرفه ليلي بالطريقة دي، وورا بعض.

بس إنت ليه أصلًا خبّيت عليها؟

– إبن عمي..

– زين؟

سألته توحيدة.

– أيوه. عرفتي منين؟

فلتت منه نظرة خاطفة لليلى التي كانت تحدق فيه وقد عاد الشك يطل من عينيها. أمسكت سلمى بذراعها كي لا تفتح عليه جبهة ثانية. إيماءة منها ناحية لتوحيدة أقنعت ليلى بأن عمته تكفي. بهدوء لوحت أم أحمد برأسها لليلى فسمحت لها الأخيرة بالانسحاب من المشهد.

– ماجلتليش ليه؟

سألت المرأة الحديدية.

تنهد يوسف قائلًا:

– ما أنا كنت هكلمك في الموضوع ده النهاردة.

– وكنت مستني إيه يابن علي؟

تدخلت ليلى لتنقذ زوجها الذي بدأ يعرق بالرغم من برودة الجو.

– إتفضلي يا حيدة. تشربي إيه؟

– مش عايز أشرب!

قالتها بقوة. أنا جاية أدّي حسن هديته وبعد كده رايحة أزور جده.

– الوقت إتأخر يا عمتي مش هتلحقي تروحي القرافة وترجعي النهارده.

– أنا مش راجعة النهاردة. فين ولد ولد أخوي.

مدت سلمى يدها لتقود جدتها لغرفة حسن لكنها توقفت عند باب الغرفة. رفعت أنفها لتشم الهواء.

– إيه الريحة الوحشة دي؟

تقدمت ليلي مدافعة.

– ريحة إيه يا حيدة؟ ده إحنا بقالنا يومين مبنعملش حاجة غير التنضيف.

لم تعلق توحيدة بل أسدلت البرقع على وجهها وظلت على مسافة أمتار من الباب تتحسس بعصاها الخدوش السوداء.

ثم نادت:

– حسن! تعالى يا ولدي.

أتى إليها حسن مهرولًا وارتمى في حضنها. قبلت رأسه وقالت:

– تعالى يا ولدي. خد بيدي. ثم التفتت ليوسف وقالت:

– خلّص مع إبن عمك يا يوسف. مش عايزين حاجة من البلد دي.

– حاضر.

استدارت توحيدة للغرفة. حركة غريبة تحت برقع توحيدة جعلهم يعتقدون أنها تهمس بشيء ما. ببطء دخلت الغرفة وأغلقت الباب عليها مع حسن.

استدارت ليلى ليوسف قائلة:

– واضح إن في حاجات كتيرة اليومين دول معرفهاش يا يوسف.

تجرأت سلمى وقالت:

– صلي على النبي يا ليلي. مالك يا حبيبتي؟ إنتوا إتحسدتوا والا إيه؟

التفتت ليلى لسلمى والغضب يطل من عينيها وقالت: واضح كده!!

رفعت سلمى حاجبيها غير مصدقة وصاح يوسف: ليلى!!

استدارت كلٌّ من ليلى وسلمى مغادرتين المكان. ليلى إلى غرفتها غاضبة وسلمى خارج الشقة.. جريحة.

* * *

٢٥

بر الضيف؟

إيه علاقة اللي بيحصل ببر الضيف، بلد يوسف وسلمى؟ سأل إيهاب نفسه، وقد بدأ قلقه يأخذ شكلًا جديدًا. فخلال تاريخه المهني بأكمله لم يمس عمله حياته الخاصة.

هذا.. خطير.

لا بد إذا أن يعرف إجابة هذا السؤال قبل أن ينتبه من في القسم للخيط الرفيع الذي يصل بينه وبين الميكروباص.

على ضوء شمس العصاري وقف في شرفته يتحدث في المحمول.

– أيوه يا يوسف. بقولك إيه؟

كان يوسف مستلقيًا على ظهره في الچيم وبجانبه أوزان يستخدمها في التمرين. اعتدل جالسًا وقال محاولًا ضبط إيقاع تنفسه:

– خير يا بوب؟

– فاكر حاجة عن بلدك؟ عن بر الضيف؟

جحظت عينا يوسف من الذهول:

– إيه السؤال العجيب ده؟ إشمعنى بتسأل دلوقتي؟

– قصة كده هحكيهالك بعدين. أنا عارف إن الموضوع ده بالنسبالك مش من المواضيع المستحبّة بس قولي فاكر إيه؟

وقف يوسف وخطا خارج الچيم وقال:

– إستنى.

سؤال مهم يقلقه في هذه اللحظة:

بر الضيف تاني؟ هي دي صدفة ولا إيهاب عرف حاجة عن موضوع الورث؟

لم يعترف يوسف قبل هذه اللحظة لكنه ليس فقط موضوع غير مستحب، إنه يكره اسم هذه البلد. يشعر الآن أنه لا يريد أي شيء من هذه القرية حتى لو كان ورثًا. لقد عانى يوسف الأمرّين طوال حياته في محاولاته لمعرفة جذوره وأصوله لكن

عمته منعت ذلك. بكل ما أُوتِيَت من حيل، فرضت توحيدة حظر على هذا الموضوع وتركت يوسف ضحية لشعور قاتل بالانفصال عن أي شيء يربطه بماضيه. حتى تلك الليلة التي ترك فيها كل شيء خلفه وهرب هو وأخته الرضيعة من بر الضيف لا يذكر منها إلا خيالات مخيفة.

وجوه بلا أسماء وغناء وصراخ و..

كيف نسي؟

كيف سقطت منه تفاصيل الليلة التي فقد فيها أهله وأصله وتاريخه بأكمله ليأتي إلى القاهرة ويبدأ من العدم. يبدأ حياة كأنه لَقيط لا أصل له؟ نعم، احتفظ باسمه ونفوذ جدّه عضو مجلس الشعب لكنه لا ينتمي إلى أيٍّ من هذا كما ينتمي الفرد لعائلته. فرع يتيم من شجرة اتفق الناس جميعًا على قطعها.

كان في الرابعة من عمره حينها. لم يخرج من تلك اليلة، التي سمّيت (ليلة القطّان)، إلا بسلمى وتوحيدة و.. هارون.

– يوسف!

نبهه هذا النداء أنه ما زال يتحدث إلى إيهاب.

– معلش معلش. معاك. هي عمتي توحيدة قالتلك حاجة؟

عقد إيهاب حاجبيه واستند إلى سور الشرفة:

– حاجة زي إيه؟ لأ ما قلتليش حاجة. بص أنا مش عايز أضغط عليك. أنا عارف إنها قالتلنا مانتكلمش في الموضوع ده. وعارف إنك مش فاكر تفاصيل الليلة إياها، بس هل إنت عرفت حاجة أو سمعت حاجة عنها طول السنين دي؟ ده إنت شغال مع واحد من أكبر المكاتب المتخصصة في العقارات والأراضي.

"حتى الدكتور شريف عبد الباقي فإن يوسف على ثقة أنه يعلم شيئًا رهيبًا لا يخبره به. هكذا تأكد يوسف أن شريف يخشى توحيدة. بالمعنى الأدق، لقد قطعت المرأة الحديدية كل الطرق التي تؤدي إلى ماضيهم".

ثم استطرد يوسف:

– الحقيقة إنا حاسس إن د. شريف عارف حاجة بس واضح إن عمتي منعته يشاركني أي معلومات. سألته كذا مرة بس كدب عليّا وقالّي إنه ميعرفش حاجة.

– وعرفت منين إنه بيكدب؟

– في عنده أوضة مكتبة صغيرة فيها ملفات للقضايا والعقارات والأراضي الغريبة. لقيت مرة على الترابيزة اللي جوّه ملف مكتوب عليه (العلاتمة). وده المركز..

أكمل إيهاب جملة يوسف:

– اللي فيه بر الضيف. يوسف، حاول بأي طريقه تعرف اللي جوّه الملف ده وياريت تعرف من شريف نفسه كل اللي عنده.

– ثواني بس. لازم أعرف فيه إيه.

– فيه بلوة جاتلي القسم.. من بر الضيف.

صمت يوسف للحظة مفكرًا ثم قال:

– الصراحة لغاية إمبارح كان آخر احتكاكي ببر الضيف هو الليلة اللي هربنا فيها أنا وعمتي.

– وايه اللي حصل امبارح؟

– جالي واحد من البلد و..

ثم حكى له عن زين.

***

قبيل المغرب بأقل من ساعة كان إيهاب ما زال في شرفته والمحمول على أذنه.

– أنا سؤالي واضح يا أيمن. إوصفلي حالة التلاتة بالظبط.

– ..

– يعني مبيتحركوش خالص؟ ولا غيروا الحتة اللي بيبصوا عليها؟

– ..

تنهد مفكرًا ثم قال:

– طيب.. خلاص. عايز مراقبة لحظة بلحظة. سجّل كل حاجة.

– ..

– بتقول إيه؟

– ..

– يلعن أبو المدارس الانجليزي. تقصد كونسولتو الدكاترة؟ لأ ما قالش حاجة مفيدة. أنا هنام شوية وهصحى أروح حفلة في نفس البيت. تمام؟ كلمني لو فيه حاجة.

– ..

أنهى المكالمة وأطلق العنان لتفكيره.

العميد إيهاب يسري الدماطي.. لها وقع جميل تلك الجملة.

مجازفة كبيرة إنك تحتفظ بالتلاتة دول عندك في القسم. ربنا يستر.

دخل إلى شقته واتجه للثلاجة عله يجد ما يسد به جوعه.

إيه ده؟ التلاجة فاضية ليه؟ يمكن سلمى طلّعت الاكل للعيد ميلاد. طيب. أريَّح شوية وأطلع.

استلقى على الأريكة إلى يمينه وأمسك المحمول. شاهد الفيديو الذي بعثه له أيمن والذي سَجّل فيه الاغنية وهي تخرج من راديو الميكروباص المنزوع بالكامل من مكانه.

القمح الليلة الليلة ليلة عيده يا رب تبارك تبارك وتزيده.. نانناننا..

دار في ذهنه فكرة وهو يستسلم للنوم: مش دي الأغنية اللي يوسف كان بيكرهها وهو صغير؟

***

لم يدر إيهاب كم مر من الوقت ولكنه استيقظ عند سماعه صوت غريب بجانبه، كأنه شخص يأكل. فتح عينيه ليجد الليل قد فرض سطوته لكنه لم ير أحداً حوله.

كان إيه الصوت ده؟

بحث عن محموله بجانبه فلم يجده هو الآخر.

– إن الظلام دامس حقّا. اعتدل في جلسته ونادى:

– سلمى!

لم يأتِ رد والبيت مظلم أكثر من أن يكون هناك أحد غيره.

لا بد أنها عند يوسف. العيد ميلاد. لقد تأخر عليه. كم الساعة؟ أين هذا الهاتف اللعين، لقد كان في يده عندما استلقى على الأريكة. بحث مجدداً حوله

لكن لا أثر له. بحث أسفل قدمه عن خُفّه فرأى على الأرض بقايا طعام.

إيه ده؟ أنا ما أكلتش حاجة. الفتافتيت دي جت منين؟

وقف ليتتبع بعينيه خط سير بقايا الطعام فوجده يقود إلى الممر المؤدي للغرف والممتد في الظلام أمامه. هناك ضوء أبيض آتٍ من هذا الاتجاه. إنه ضوء محموله. كيف وصل إلى هناك؟ وما هذه بقايا الطعام؟

منذ متى وسلمى تهمل في..

مهلًا..هل هذا صوت غناء؟

نعم. هناك أغنية ما تصدو بصوت خافت من المحمول. هل هي نفس الأغنية اللعينة؟ فعلًا..

القمح الليلة الليلة ليلة عيده..

لسه شغاله لغاية دلوقتي من ساعة ما سبتها؟

وقف وبحث حوله مرة أخرى على خُفّه لكن لم يجده أيضًا. بدأ الأمر يثير أعصابه فالأرض بارده وشباك الشرفة يأتي بهواء قارس. لا مفر. على أطراف أصابعه أسرع إيهاب لمحموله. إنه ليس في الممر

نفسه بل بالغرفة الصغيرة التي كدست فيها سلمى الأثاث القديم الخاص بغرفة حسن. دخل الغرفة المظلمة وانحنى ليلتقط المحمول الذي ما زال يعرض الفيديو الخاص بالأغنية.

خطا على شيء استنتج أنه بقايا الطعام. لقد انتهت عند المحمول بالضبط. مد يده ليفتح النور لكنها اصطدمت بلوح خشبي.

لوّح بالمحمول في هذا الاتجاه لينير له فوجد دولاب حسن القديم يخفي زر النور خلفه. أضاء كشاف المحمول وسلّطه في أنحاء الغرفة. إحساس غريب سبب قشعريرة في جسده وهو ينظر حوله في الغرفة المظلمة والتي يربض فيها أثاث غرفة حسن دون ترتيب واضح. فقط ألواح وأجزاء خشبية بينها أركان مظلمة.

فجأة رن المحمول في يده فجفل ونظر إلى شاشته. إنها سلمى.

اللعنة.. لقد تأخر.

– أيوه يا سلمى. أنا صحيت أهوه.

خرج من الغرفة وهو مستمرً في الحديث:

– حاضر طالع. بقولك إيه.. أنتي جيتي أو بعتّي حد الشقة هنا وأنا نايم؟

أنصت لإجابتها ثم رد قائلًا:

– لأ ولا حاجة. خمس دقائق وأبقى عندكوا.

* * *

٢٦

جاء الحفل المرتقب. حسن في قمة سعادته وهو يمضي الأمسية مع أصدقائه من الحضانة. يركضون هنا وهناك ويصدرون ضوضاء أعلى من كتيبة عسكرية. كان يجري وفي يده هدية سلمى: الشخصية الكارتونية الجديدة التي على شكل حيوان باندا. جو لطيف لكن يوسف وإيهاب لم يكونا على نفس الموجة.

ولم يفت هذا على عادل الذي وقف معهما في الشرفة. نقل عادل نظره بين يوسف الذي انغمس تمامًا في تصفح محموله وإيهاب الذي ظل شاردًا وعينه على صفحة النيل.

– تمام. يعني أنا جاي أقعد لوحدي؟

قال عادل وهو يدس قطعة بسكويت في فمه.

– متخلّيكوا معايا إنتوا الإتنين.

وضع يوسف محموله على الطاولة واستند بجانب عادل إلى سور الشرفة.

– وادي الموبايل. ما هو برضه أنا بشوفك طول الأسبوع. الرحمة يعني.

عادل معاتبًا بمرح:

– إخص عليك يا فورمة. وإنت يا عمّ إيهاب، بتشوفني طول الأسبوع برضه؟ عمومًا في ضيوف داخلين علينا أهوه.

قادت ليلى اثنان من آباء أصدقاء حسن إلى الشرفة. قامت بتقديمهم إلى عادل وإيهاب: دكتور بشري سامر ومهندس طُرُق حسام. حياهم كل من يوسف وعادل بينما إيهاب لا يزال خارج الخدمة. كان معظم الحوار يدور حول زحمة البلد ومحاولات الدولة لحل المشكلات المعاصرة. تخلل الحوار الكثير من الآراء العبقرية التي تحل هذه المشكلات في ثوانٍ مع بعض التحفظات على أسلوب إدارة الأزمات السياسية الإقليمية والتي تناولوها على عجلٍ لوضوح الحل وسهولته.

وكمثال حي على أزمة الزحام وأماكن إيقاف السيارات، أشار عادل لشخص ما يقف في الشارع.

– مش ده جارك أنور قائد الأسطول السبرتاشر الباذنجاني؟

التفت يوسف لما يشير إليه زميله فرأى أنور مستنداً إلى سيارته الأمريكية. كلما أتى ضيف من

ضيوف الحفل أو أي سيارة عابرة زجر سائقها كي يوقف سيارته بعيداً عنه. فضحك يوسف قائلًا:

– تخيّل؟ إيهاب. شوف أنور بيعمل إيه؟

– هه؟

انتبه إيهاب فجأة للحوار.

سأله عادل:

– مالك يا إيهاب؟ رحت فين؟

– إيهاب بيه، تعرف اللوا بسيوني عرفات؟

سأله المهندس حسام، يد في جيبه والأخرى ممسكه بكوب مياه غازية.

– لا واللّه مش واخد بالي.

رد إيهاب ببرود لم يلاحظه السائل.

– ده ماسك الجيزة وستة أكتوبر.

– ماسكهم إزّاي يعني؟

سأل إيهاب وقد بدأ يُستفز من أسئلة حسام التي تدل على جهل تام مما دعا عادلًا للتدخل ليدير دفة الحوار ليوسف.

– عملت إيه مع الست إياها؟

– آآه ست إيه دي يا باشا؟

سأله حسام وهو يغمز بنصف وجهه تأكيداً (على صياعته).

دخلت عليهم اعتماد بصينية عليها برّاد شاي ساخن وخمسة فناجين وعلبة بها مكعبات سكر.

وضعت الصينية على الطاولة الخشبية وذهبت لسور الشرفة لتأخذ الأكواب الفارغة وانصرفت بدون النطق ببنت شفة.

نظر عادل ليوسف كاتمًا ضحكته. تركت اعتماد الشرفة وتوارت خلف البالونات البيضاء ذوات الأشكال الكارتونية المخيفة. ما إن ذابت وسط الأمهات والأطفال حتى أطلق عادل ضحكته.

– إيه يا عمّ فرانكنشتاين ده؟ مين الأخ؟

– يا عمّ إنت حرام بلاش تريقة.

نهره يوسف متبسمًا.

– ماتتريقش على حد قد جدتك. كتّر خير الدنيا.

– طاب يا سيدي، مع إني مش شايفه كبير في السن قوي كده. قولي بأه، عملت إيه مع سميّة السمسومة؟

وغمز مقلداً حسام الذي شاركه في السؤال بضحكة حماسية أشبه بنهيق الضبع.

نظر يوسف لإيهاب الذي تابع الحوار باهتمام زائف وعيناه لا تغفلان لحظة عن محموله. لا بد أنه في انتظار مكالمة مهمة.

– مش عايز أتكلم في الشغل دلوقتي.

أمعن عادل في الغمز وأشرك كرشه في التلميح. حتى حسام قرر أن يواكب مستوى المزاح فأصدر صوتًا لا يخرج إلا من حيوان رنّة مخنوق وهو ينظر ليوسف منتظرًا الإجابة.

– سمسومة يا سوفو يا فورمة. الحاجة سُمَيّة الدهشوري على سن ورمح. يعني مرمتش بياضها؟ معرضتش عليك الجواز لسّه؟

– ياللّا التورتة.

كانت هذا الجملة بصوت نسائي عصبيّ. إتكهّرب الموقف عندما التفتوا ليروا ليلى وافقه عند مدخل الشرفة. قالت جملتها وعادت للداخل بوجه خالٍ من الانفعال بطريقة مفتعلة. قابلتها سلمى ولاحظت التغيير الذي طرأ على زوجة أخيها. نظرت لزوجها بالشرفة ولوحت له بما معناه (إيه اللي حصل؟) هز إيهاب كتفيه والتفت لعادل قائلًا:

– اللّه يخربيتك.

كانت هذه أول تفاعل حقيقي لإيهاب منذ بداية الأمسية.

– هي سمعت؟

سأل عادل بوجه أصفر. التفت لحسام، شريكه في الجريمة فوجده يَصُبّ الشاي في الفنجان وعلى وجهه تعبير يقول (أنا مش هنا).

لم يعلّق يوسف وتبع من فوره ليلي ودار بينهما حوار مقتضب في الصالة بدا للرجال أنه محادثات فاشلة.

استمر الاحتفال وتعالت أنغام أغاني الأطفال لكنه احتوى على توتر غير ملحوظ. بعد مرور ساعة على تقطيع التورتة رأى الضيوف يوسف يقف مع رجل

بزيّ فلاحي على باب الشقة. عرفهم بابن عمه على عجالة وتركهم ليدلف معه غرفة حسن بينما جلس بقية الرجال في الصالة يتابعون مباراة كرة قدم. اندمجوا مع الساحرة المستديرة حتى أنهم لم يلاحظوا يوسف الذي عاد للجلوس معهم وقد تقمّص دور إيهاب السارح في ملكوت اللّه.

إيهاب نفسه لم يكن مندمج مع المباراة، فتارة ينظر إلى محموله وتارة يتكلم فيه على عجالة وتارة أخرى يلقي بنظرات خاطفة على سلمى.

أما سلمى فكانت طبيعية تمامًا وفي حالة سعادة طفولية لم يروها عليها من قبل وهي تلعب مع الأطفال. تجري وتعانق وتضحك كأنها طفلة في مثل سنهم. حتى حدث شيء أطاح بالبقية الباقية من الحالة الإيجابية للحفل. يبدو أن إحدى أمهات أصدقاء حسن قد نما إلى علمها أن سلمى متزوجة وليست لديها أطفال. ويبدو أيضًا أنها خشيت على ابنتها من سلمى أن تحسدها فقامت وأخذتها منها واستأذنت بالانصراف.

لم يخف على الموجودين السبب الحقيقي من هذا الهروب المفاجئ. لحظات أخرى وفعلت أم أخرى هذا مع ابنها. هذه المرة لاحظ إيهاب ما حدث ورأى امتقاع وجه زوجته وهي تبتعد عن الأطفال وتلتمس عذرًا واهيًا لتذهب إلى المطبخ. ذهب

إيهاب وراءها للمطبخ فوجدها تبكي على كتف اعتماد والأخيرة تُرَبِّت عليها بحنان. أغلق باب المطبخ بهدوء واستأذن ونزل إلى شقته.

***

٢٧

مرت الليلة وذهب كلٌّ إلى منزله وبقيت أم أحمد وابنتها زينة واعتماد لمساعدة ليلى في تنظيف آثار الحفل. أما يوسف فقد آثر الابتعاد عن زوجته حتى الصباح وذهب ليحتسي كوب نعناع دافئ في الشرفة.

استند إلى السور وأخذ رشفة وهو يتأمل سطح النيل المظلم. سرت في جسده قشعريرة عند هبوب ريح باردة فأمسك بالكوب الدافئ بكلتا يديه ونظر بعيداً بشجن. تذكر ما رواه أنور في الصباح. فنظر أبعد، للبر المقابل، حيث الظلام الدامس في مثل هذا الوقت. حيث لا يسكن أحدً..

داعبت مخيلته فكرة ما. التفت لزر الإضاءة ونظر للبر الثاني ثم أضاء النور.. ما هذا؟

لقد كان أنور محقًا. هناك من أضاء مصباح في الناحية الأخرى من النيل.

ابتلع ريقه وقام بإطفاء النور.

انطفأ النور في الجهة المقابلة.

أضاء النور ثم أطفأه. فعل الضوء الآخر نفس الشيء. ظَلّ في ظلمة الشرفة برهة يفكر، وعيناه على تلك البقعة حالكة الظلام في البر المقابل.

تجار مخدرات فعلًا والا إيه؟

بدأ شعور بعدم الأمان يجتاحه فقرر أن يترك الموضوع عند هذا الحد. يكفيه ما فيه. رغم أن هذا لم يساعد على استرداد شعوره بالأمان، أحكم إغلاق باب الشرفة ودخل لينام.

الصباح رباح. بكرة أتكلم مع إيهاب في الموضوع ده.

***

بعد مرور أكثر من ساعتين، استيقظ يوسف على صوت ليلى تشكر اعتماد وتغلق باب الشقة. ثم فُتح باب غرفة نومهم ودلفت ليلى بخفة لتأخذ لباس النوم وخرجت لتستحم. غفل لبرهة أخرى من الزمن ثم فتح عينيه حين سمع صوت ما. يعتدل ليجلس مكانه في ضوء الشارع المنسل من فتحات الشيش، منصتًا. ليلى بجانبه تغط في نوم عميق.

هذا صوت حسن. نهض ليذهب لغرفة ابنه ثم توقف في الردهة لينصت مرة أخرى.

حسن يتكلم. يهيئ إليه أن ابنه يتحدث مع أحد. تقدم للغرفة ونظر.

ابتسم حين استنتج أنه يتحدث وهو نائم. تأمله للحظة بحنان ودار بعينه في الغرفة سريعًا ثم عاد لغرفته. دار حول السرير للنصف الخاص به ورقد بهدوء على يمينه.

تأمل في ملامح زوجته وغلبه حنان جارف تجاهها. لكنه سرعان ما تحول إلى غضب. كيف تظن فيه هذا الظن بعد كل هذه العِشرة؟ إيه إللي حصلّك يا ليلى؟ هل ظننتِ للح..

إيه ده؟

هناك ظل يتحرك فوق جسدها. شيء ما يقف وراءه هو، بينه وبين النافذة ويلقي بظله على ليلى.

هل هذه رأس؟

بدا له شيء في حجم الرأس يتحرك خلفه في انسيابية وضوء الشارع يُسقط ظله على زوجته. هل هو عند الحد الفاصل بين الحقيقة والأحلام؟ أم بالفعل يقف أحد وراءه؟

هي الكلاب رجعت تهوهو تاني بهيستريا ليه؟

بص وراك يا يوسف، بلاش هبل. تلاقيها سحابة استخبّى القمر وراها.

قمر إيه؟ إنت أصلًا قافل الشيش. ده ظل بسبب نور الشارع. فعلًا في حاجة ورايا.

بص وراك يا يوسف.

هي الكلاب تحت في الشارع مالها؟

ثم أخذ القرار ونفذه.

التفت متصورًا الأسوأ.. وقد كان. رأس بيضاوي أحمر قانٍ وعينان سوداوان فوق فم كبير مفتوح ومظلم. يقترب منه. وقبل أن يقوم يوسف برد الفعل المناسب في هذه المواقف وهو إما الصراخ أو على الأقل الصياح لأعلى صوت كي يخيف هذا الشيء.. حدث شيء قضى على البقية الباقية من شجاعته.

عندما اقترب الرأس لأقل من متر انفجر في وجهه.

صرخت ليلى وكالملسوع انتفض يوسف صائحًا بأعلى صوته:

– يابن الذين. يابن الذين!

– إيه الصوت ده يا يوسف؟

كانت بقايا الرأس قد وقعت على الأرض لكن يوسف تراجع ناحية ليلى فلم يعد يستطيع رؤيتها.

– مش عارف.

للحظة فكر أن يعطيها إجابة مطمئنة لكنه كان يرتجف.

– حبيبي إنت بتترعش.

قالتها وهي ممسكة ذراعه.

– شفت إيه؟ إيه الصوت ده؟

كرر إجابته:

– مش عارف.

لكنه لا بد أن يعرف. الآن أو بعد حين، سوف يرى بقايا الرأس.

إن نباح الكلاب المسعور يجعل من احتفاظه برباطة جأشه أمرًا مستحيلًا. لكنه جمع ما يستطيع من شجاعته وبحرص تقدم ناحية طرف السرير ومد رقبته.

إيه ده؟ ده جلد الراس إتسلخ منها والا إيه؟ يا ساتر يا رب. لا ده مش جلد رأس.

تنهد وأمسك بالشيء ورفعه ليريه لليلى التي دفنت وجهها في اللحاف.

– إيه ده؟! إيه القرف ده؟

– دي يا ستي.. بالونة.

سكتت ليلى وأمعنت النظر لما يحمله يوسف: بالونة عليها رسم وجه رسمه أحد أصدقاء حسن. نظرت إلى يوسف وانفجرا ضاحكين معًا.

بعد أن هدأ المزاح سألته ليلى:

– بس الكلاب دي مالها تاني؟

تذكّر يوسف موضوع الكلاب التي ما زالت تعوي وتنبح فذهب لينظر من فتحات الشيش. منظر مماثل للّيلة السابقة. مجموعة كبيرة من الكلاب تنبح على مياه النيل خلف الشجرة الضخمة. نباح الكلاب اشتد وينذر بوقوع معركة ضارية.

– فيه إيه يا يوسف؟

التفت إليها يوسف قائلًا:

– زي إمبارح. الكلاب بتهوهو على حاجة ورا الشجرة الكبيرة اللي على النيل على طول دي.

– شكلها إيه الحاجة دي؟ المركب برضه؟ ليكونوا تجار المخدرات بتوع إمبارح؟ ماتكلم إيهاب.

– أكلم إيهاب الساعة أربعة الفجر أقولّوا الكلاب بتهوهو؟

ضحكا من الفكرة، لكنه التفت لينظر من الشيش مرة أخرى عندما ارتفع النباح.

– إيه ده؟ الكلاب دلوقتي بتهوهو ناحيتنا. قال يوسف.

– على مين؟

سألت ليلي وقد عاد القلق لصوتها.

مد يوسف عنقه لأعلى ووقف على أطراف أصابعه علّه يرى ما ينبح عليه الكلاب.

– مش شايف. شكله عدّي الشارع وبقى تحت على رصيف عمارتنا.

– كلم إيهاب والنبي.

صوت النباح ارتفع فجأة.

– يا بنتي مش هكلم حد. إستنى.. دول شكلهم بيهجموا على حد تحت وشكله هرب منهم في الشارع بتاعنا.

– ده هيخش من باب العمارة. قالت ليلى بصوت مرتجف.

– يخش إزاي وباب العمارة مقفول؟

– ممكن عودة مقفلوش كويس.

فجأة تحول نباح الكلاب من نباح غاضب هجومي إلى عواء رفيع يدل على خوفهم أو إصابتهم. ثم رأى يوسف مجموعة الكلاب تتفرق في كل اتجاه وذيول بعضهم بين أرجلهم. عندما عبروا شارع الكورنيش التفتوا ناحية عمارتهم وعاودوا النباح الهجومي لكن من على مسافة آمنة. صوت أقدام حافية تخطو ناحيته. وقع قلب يوسف في قدميه عندما رأى ليلى بجانبه.

– خضّتيني..

نظرت ليلى من الشيش لترى الكلاب ينبحون بهستيريا في أثناء قيامهم بعملية تراجع

تكتيكية بعيداً عن المكان.

– الحمد للّه مشيوا. يالّا ننام. كفاية رعب بأه.

وأسرعت بالعودة لدفء السرير. ظل يوسف بجانب الشيش ينظر عبره لوهلة. ارتدى خُفّه وخرج من غرفته. فتح الثلاجة وهو يفكر.

– إيه ده؟ إيه الفتافيت دي؟

نظر أسفل قدمه ليرى بقايا الطعام على الأرض. اغتاظ من الإهمال في النظافة لكنه آثر أن يرجئ الموضوع للغد. شرب من زجاجة المياه وعاد لغرفته بأسئلة كثيرة.

هم الكلاب خايفين من إيه؟ إيه اللي كان واقف عند باب عمارتنا؟ هل فعلًا عودة أغلق الباب بإحكام؟

٢٨

في صباح اليوم التالي وقف إيهاب صامتًا بجانب فراشه يراقب سلمى النائمة وظهرها له. كم يريد أن يضمها لصدره ويطمئنها أنه لا ينتظر منها أطفالًا كي يحبها. يريد أن يبوح لها بأن وجودها وحده يعدل كفة حياته ويجعلها قابلة للخوض. هي وحدها تقف على الطرف الآخر من الميزان وكل ما يراه ويواجهه من أهوال وقُبح في الطرف الآخر.

بالرغم من أن اللون المخملي الذي تضفيه على حياته يجعل الطبيعة القاسية لعمله كضابط تبدو أشد قسوة، لكنه التناقض الذي يجعله يستطيع التنفس عندما تضيق عليه حلقات دنياه.

وهو الآن يشعر بها تضيّق حلقاتها وهو يقف وسطها بلا حيلة. إن ما يحدث في القسم كفيل بالقضاء على مستقبله المهني في حالة فشله مع ركاب الميكروباص. إن لم يكتشف ما الذي يحدث في زنزانتهم، داخل القسم الذي يديره، فكيف يؤتمن على أرواح الناس وممتلكاتهم. هذا ما يتوقع سماعه من رئيسه المباشر، ولسوف يكون على حق.

لقد جازف بأخذ هذه القضية على عاتقه. والآن فإن ما كان يخشاه دومًا قد حدث. الآن لم تعد هذه المجازفة بهدف الترقية فحسب. لقد اكتشف علاقة بين هؤلاء الثلاثة وبينه شخصيًا. و لابد أن يعرفها.

نظر إلى سلمى ومر فوق رأسها بيده دون أن يلمسها. إن إحساسه بالتقصير مع زوجته يجعل ما يمر به أكثر صعوبة ويضاعف من توتره. يضغط عليه أكثر كي يصل إلى الحل سريعًا فهو يدفع فيه ثمنًا باهظًا- يدفع وقتًا ثمينًا بعيداً عنها.

إنها تذوي أمام عينيه. وهذا الشعور يقتله. لقد أخذ على نفسه عهداً ألّا يصبح مثل أبيه. ألا يخذل عائلته. حتى لو من أجل الواجب. لكنه الآن يفعل عكس ذلك تماماً.

في إيه يا بني آدم؟ متنشف شوية يا سيادة المقدم. إنشف علشان تعرف تحل الموقف.

بحزم استدار ليغادر الغرفة.

لم يكن يعرف أنها مستيقظة تشعر بكل ما يجول بخاطره..

وتبكي في صمت.

***

دخل إيهاب القسم بخُطًى مسرعة. إن اليوم ما كاد يبدأ بعد ولكنه لن يستطيع أن يهنأ براحة حقيقية قبل أن يعرف ما الذي يحدث في زنزانة ٣. حيّا العساكر والأمناء الذين التفوا حول الإفطار المكوّن من أطباق فول وطعمية. هبّوا واقفين ليردّوا التحية. دون أن يبطئ من سرعته اتجه إيهاب للزنزانة إياها، وألقى نظرة سريعة على محتواها. ثم نادى:

– يا سعفان!

أتى إليه الصول مهرولًا وفمه ممتلئ بالطعام. رفع يده بالتحية.

– تمام يا فندم.

– خلّص الاكل اللي في بوقك وقوللي ليه لسه مفيش نيلة نور جوّه. مركبتوش لمبة لغاية دلوقتي؟ ده تصوير الكاميرا هيطلع زي الزفت.

بلع سعفان ما في فمه على عجالة وأجاب مخرجًا من فمه فتافيت كالمطر.

– ركبّنا أقوى إضاءة في السوق بس زي ما سيادتك شايف؛ نفس النتيجة

– برضه نورها بيضعف. ومفيش ولا مخرَج تاني شغّال غير اللي في نُص الأوضة في السقف. ده إحنا اضطرينا نمد كابل من برة علشان الكاميرات.

زفر إيهاب يغضب والتفت للنزلاء الثلاثة ليجدهم على نفس الوضع. استدار ليذهب لمكتبه قائلًا:

– لمّا النقيب أيمن يجي خليه يجيلي على طول.

***

٢٩

وقف يوسف كالتمثال في الردهة القصيرة أمام باب الثلاجة غير مصدق ما يراه. لولا نصف رغيف العيش المتحجر وعلبة الجبن البيضاء لكانت الثلاجة فارغة تمامًا.

أين ذهبت بقية وليمة أمس؟ نظر حوله فوجد فتافيت الطعام كما رآها أمس بل من الممكن أن تكون قد زادت. منتشرة حول الثلاجة وتتجه لغرفة حسن. اجتاحه شعور بالغضب من إهمال زوجته وأغلق باب الثلاجة بعنف. تناهى إلى مسمعه حديث يدور في المطبخ.

– يا ست هانم أنا مش مع موضوع قراية الفنجان ده. ربنا يهديكوا لبعض.

– مش زي ما إنتي فاهمة يا اعتماد. أدينا بنتسلي.

– بصّي يا ستّ ليلي، أنا مش قديمة قوي في حكاية قراية الفنجان دي، بس هساعدك.

كان هذا صوت العجوز اعتماد. ثم جاء صوت ليلي مجيبًا:

– يا ستّي، أنا أصلًا مش بصدق في الكلام ده. يالّا إفتي.

– اللّه يسامحك، أنا هكدب عليكي برضه؟

– بهزّر معاكي. ده انا بعتبرك اختي الصغيرة. يالّا فنجاني أهوه.

بتقري فنجان يا ليلي؟ سايبه البيت مفيهوش لقمة وقاعدة بتعملي الهبل ده؟

دق محموله في غرفته فدخل مسرعًا ليجيب:

– أيوه يا زين. نازل أهوه.

– ..

– عقد إيه يا زين؟ إحنا لسّه متفقناش على حاجة. إفرض مش عايز أبيع؟

– ..

– ولا أشتري. بص إستنى لما نروح المكتب نتكلم.

– ..

– يا ستّي، أنا أصلًا مش بصدق في الكلام ده. ياللا إفتي.

– اللّه يسامحك، أنا هكدب عليكي برضه؟

– بهزّر معاكي. ده انا بعتبرك اختي الصغيرة. ياللا فنجاني أهوه.

بتقري فنجان يا ليلي؟ سايبه البيت مفيهوش لقمة وقاعدة بتعملي الهبل ده؟

دق محموله في غرفته فدخل مسرعًا ليجيب:

– أيوه يا زين. نازل أهوه.

– ..

– عقد إيه يا زين؟ إحنا لسّه متفقناش على حاجة. إفرض مش عايز أبيع؟

– ..

– ولا أشتري. بص إستنى لما نروح المكتب نتكلم.

– ..

– أيوه نتكلم تاني. هو أنا لسه شفت الورق ولا سمعت أرقام؟ مش لازم أدرس الموضوع كويس. إنت بتقولي رقم كبير، صحيح لسه مقولتهوليش، بس ده يستدعي تأنّي.

– ..

– كمان نص ساعة في المكتب اللي إدّيتك عنوانه. سلام.

أنهى المكالمة وسمع خطوات تجرى بعيداً عن الغرفة.

إيه ده يا ليلي؟ من إمتي بنتجسس على بعض إحنا الاتنين؟ تساءل يوسف بحزن.

ارتدى ملابسه على عجالة وذهب لغرفة حسن ليقبله لكن قبل أن يدخل مباشرة سمعه يتكلم.

– دورك إنتي يا ماما. يالّا إرسمي animal.

تردد بين الدخول ليُسلّم على حسن وبين عدم مواجهة ليلي. في آخر الأمر قرر أن يتركهما يمضيان وقتًا ممتعًا وانسحب في هدوء وهو ليس لديه أدنى دليل عما يغضبه لهذا الحد.

يوجد لديه ما هو أهم من هذه الترهات.

* * *

جلست سلمى على الكرسي الخاص بطاولة الكمبيوتر الصغيرة التي تتوسط الغرفة. أخذت تجول بنظرها في قطع أثاث غرفة حسن المتراصة أمامها وتتفحصها قطعة قطعة. الدموع تتلألأ في مقلتيها وهي تتذكر ما حدث ليلة أمس. أغمضت عينيها بقوّة وأخذت نفسًا عميقًا لكنها لم تستطيع أن تمنع هذه الدمعة من النزول، ليس هذه المرة.

لقد كان ما مرت به أمس.. وحشيًا.

لكنها لم ولن تكون ضحية.

ضغطت على جفونها بقوة وعضت على شفتيها، فالضعف ليس من شيمها.

طرق قوي على باب الشقة ينتزعها من حالتها تلك ففتحت عينها وهمت بالخروج.

ما هذا الصوت؟

توقفت عند باب الغرفة والتفتت لتجول بنظرها خلالها مرة أخرى. إنها متأكدة أنها سمعت صوتًا

هنا. فأر؟ ربما.

هتبقى ليلته سودة لو..

جاء صوت اليوسف من خارج الشقة:

– يا سلمى افتحي عندي شغل.

أسرعت لتفتح باب الشقة.

– ثواني يا يوسف. جاية أهوه.

استقبلها يوسف بابتسامة عريضة بادلتها بأخرى واهنة. كان في لباس بسيط، بنطلون جينز وقميص وجاكت رياضي.

– ياه. باين عليكي إنك لسه زعلانة.

قال أخوها وهو يغلق باب الشقة. استدارت كي تداري تعبيرات وجهها عن أخيها الذي يحفظها عن ظهر قلب واتجهت للمطبخ.

– زعلانة؟ من إيه يابني بلاش هبل. تشرب إيه؟

– أشرب إيه؟ بقولك لازم أروح المكتب.

فتحت الصنبور لتملأ الغلاية وهي تقول:

– شغل إيه؟ إنت هتستهبل؟ فاكرني مراتك الغلبانة معاك دي؟ النهاردة السبت يا روح أختك.

قهقه ضاحكًا وأسند كتفه إلى باب المطبخ.

– يا واد يا إوِر. أنا رايح علشان عندي مقابلات. مفاجأة هقولك عليها لمّا ربِّنا يكرم.

التفتت له وضيقت عينيها قائلة:

– مقابلات إيه؟ أوعى يكون ليلى عندها حق وبتلعب بديلك؟

– ديل مين يا سلمى بس؟ إنتي هتصدقي الهبل ده؟

صوبت إليه نظرة جادة وقالت:

– الهبل ده ممكن يبوّظ علاقتك بمراتك نهائيا. إنت مش عارف كم العلاقات الزوجية اللي إنتهت علشان الهبل ده؟ وسيادتك السبب في الهبل ده. تقدر تقولي إيه لازمة الهدايا والتليفونات والاجتماعات المريبة دي؟

بدأ الغضب يتمكن من يوسف وهو يرد:

– إيه اللي بيتقوليه ده؟ أنا بعمل كل ده علشانهم يا سلمى. والّا إنتي مش عارفة؟ ليلي طول عمرها موسوسة وقلقانة وعندها هاجس كده إني هشوفلي شوفة تانية. مش عارف قلة الثقة دي جتلها منين. وبعدين أحلفلك بإيه إن سمية دي واحدة فوق الستين.

بدأت سلمى تحتقن هي الأخرى.

– ليلي تهمني جدًّا يا يوسف. لو سمحت متإذيهاش. إنت اللي ممكن تخليها وردة مفتحة أو وردة دبلانة. الراجل دوره..

سكتت عندما تمكنت منها مشاعرها وأدارت وجهها لغلّاية المياه مرة اخري. اقترب منها يوسف ووضع يده علي كتفها قائلًا:

– مش بقولك لسه اللي حصل إمبارح مضايقك. متزعليش من ليلى، مش عارف مالها اليومين دول. سيبك مني أنا بقى وقوليلي أعمل إيه علشان أفرفشك.

قال كلمته الأخيرة وهو ينزل يده بسرعة من علي كتفها كي يدغدغها.

التوت سلمى كي تبتعد عنه وأفلتت منها ضحكة مقتضبة وهي تخرج من المطبخ.

– بس بس. إيه اللي بتعمله ده؟

انقض عليها مرة أخري كي يدغدغها لكنها استقبلته بنظرة قوية من نظرات عمتهم.

– يا ماما. إيه؟ قلبتي علي توحيدة مرة واحدة كده ليه؟

– والنبي يا يوسف مش فايقه للهزار ده. مش كنت متأخر على شغلك؟ يالا روح أنا مش زعلانه ومش ممكن أزعل من ليلى ولا من أي حد أصلًا.

تأملها أخوها ومسح على شعرها.

– أومّال مالك؟

– ماليش يا سيدي. ركّز إنت بس مع مراتك وحاول متهزّش ثقتها فيك. الحاجات دي صعب ترجع تاني لو انكسرت. وبطّل منظرة بقي. ها؟ إنت فاهمني.

لوى يوسف شفتيه ورفع كتفيه مازحًا:

– منظرة؟ إنتي إزّاي تقولي عليّا كده؟ أنا أتمنظر؟

– أومّال واخد بالك من نفسك قوي كده ليه؟ علي سلمى برضه؟

– يا ساتر على سوء الظن. بس إنتي برضه غَيّرتي الموضوع. إنتي اللي مالك يا بنت الناس؟ فيكي حاجة اليومين دول.

حانت من سلمى نظرة خاطفة إلى الغرفة الصغيرة التي بها قطع غرفة حسن وقالت:

– ماليش.

– ششش. قال يوسف. سامعة؟

صمتت سلمى لتنصت. إنه نفس الصوت الذي سمعته قبل قدوم أخيها.

– الصوت ده سمعته كذا مرة اليومين اللي فاتو. زي ما يكون حد مخنوق.

أنصت يوسف بتركيز. فعلًا إنه كما وصفت سلمى. حاول تحديد مكانه. اقترب من غرفة حسن لكن سرعان ما اختفى الصوت.

ظلّا ينصتان بكامل حواسهما لكن الصوت لم يرجع.

– بقولك إيه، أنا إتأخرت. شكلها أي كلام. همشي أنا بقى.

– ماشي سلام وزيّ ما قولتلك، حاول متخليش شغلك يؤثر على حياتك الزوجية.

– ماشي يا باشا. سلام.

وخرج مسرعًا.

لم تترك سلمى موقعها في منتصف الردهة. هي متأكدة، هذا الصوت ليس من نسج خيالها، فقد سمعته من قبل بعكس يوسف الذي سمعه لتوه. إنها شبه متيقنة من مصدره لكنها تخشى تصديق نفسها. تتمنى لو كان الصوت يذهب من تلقاء نفسه أو يتضح أنها تتخيل.

ححححككحك.

اللعنة! ها هو مرة أخرى.

يا ندل يا يوسف. إيه اللي مشّاك؟

لا مفر. إن مصدر الصوت واضح: غرفة حسن.

أخذت نفسًا عميقًا واتجهت للغرفة الصغيرة.

وقفت في منتصف الغرفة وأنصتت مجدداً.

ححححككحك.

إنه يأتي من تلك الكومة من عروق الأخشاب المكدسة في الركن – مكونات الدولاب والفراش. تقدمت بحذر وبدأت تزيح الأخشاب. أمسكت بجزء من أجزاء الدولاب مثل العصا.

لو طلع فار هفرمه. قالت سلمى لنفسها.

تنتنتنن..

لقد تحول صوت الخرْوَشة إلى نغمة.

تسمّرت سلمى وهي تنظر لراديو الميكروباص الملقى وسط عروق الخشب والألواح. بدأت تميِّز الأغنية لكنها ما زالت ليست واضحة تماماً.

الق..ليلة.. عيده...وتزيده.. تبارك و تزيدوووه.

جحظت عيناها حين استنبطت الأغنية.

إنها تذكرها جيداً وتعلم تماماً مغزاها في حياتهم.

* * *

٣٠

إنه وقت الظهيرة لكن السماء ما زالت غائمة وتنذر بهطول أمطار. دخلت سيارة فارهة الجراج الخاص بالعمارة التي بها عمل يوسف. تجلس سميّة بداخلها مرتدية نظّارتها السوداء الغالية التي تعمدت أن تكون أكبر من اللازم كي تخفي ملامح وجهها.

أوقفها البواب مستفسرًا عن كونها نزيله بالعمارة أو مستأجرة، لكن ورقة بخمسين جنيه أعطاه إياه السائق الذي هو نفسه الحارس الخارق لسميّة كانت كفيلة بتغاضيه عن الإجابة. بل إنه ترك ابنه الصغير عند المدخل وتقدم أمام السيارة ليزيح من أمامها العقبات كي تقف في أفضل مكان؛ بجانب السلم مباشرة.

نزلت سمية بفستان سماوي اللون أنيق وحذاء بكعب عالٍ وقبعة مثبتة في رأسها بإيشارب أزرق. لكن كل هذا لم يخف سنها أو تفاصيل جسدها الواهنة. استدارت لتبتسم للبواب لكنه لم يستطع أن يبادلها الابتسام بل ظل محدقًا إلى فمها الذي تلطخ بأحمر شفاه داكن وبمحتواه من الأسنان ذات البياض غير الطبيعي الذي يتعارض مع كل شيء آخر.

تجاهلت سميّه تعبير الاشمئزاز الواضح علي وجهه وأشارت إلى السلم.

– من هنا؟

بدون رد مسموع هز البواب رأسه وسحب لعابه الذي كاد أن يسقط من فمه المفتوح على ذقنه.

– ميرسي. قالتها بدلال أنثى السلعوة. ثم اتجهت للسلم.

التفت البواب لصوت باب السيارة الذي فُتِح ونزل منه السائق العملاق. عقد الأخير يديه أمام صدره واستند إلى السيارة مصوبًا نظرات باردة للبواب. تلعثم المسكين وأشار لأكثر من اتجاه.

– هاروح أبص أنا بقي علي العربيات و.. معلش أصل الواد أنا سبته عند الحتّة اللي.. و.. سلام عليكو.

بدون تعليق رمقه الحارس / السائق وهو يُهرع إلى مدخل الجراج. عندما وصل هناك رأى ابنه الذي بدا له انه لا يتعدى الأعوام الأربعة يشير إلى يمين المدخل من الداخل.

سمع البواب يقول:

– فيه إيه يا ولا؟

– في حاجة دخلت ورا العربية دي يا بوي.

– حاجة إية يعني؟

– مش عارف. حاجة كده. مش عارف يا بوي متزعلش.

– هو أنا مش سايب راجل والا إيه؟!

ثم اتجه للناحية التي أشار إليها ابنه، وبحذر دار حول السيارات المتراصة على هذا الجانب لينظر فيما بينها وبين الحائط.

تابع السائق المشهد وقد بدأ يستحوذ على اهتمامه. اعتدل ووضع يده في وسطه متابعًا البواب. وقف الأخير يدقق النظر في الممر المليء بالظلال الممتد بين السيارات والحائط.

هل هناك حركة ما في آخر الممر عند التقائه مع الحائط الآخر؟ يشعر بذلك.

السائق، عاقد حاجبيه وساعديه، يتابع البواب بفضول متسائلا عما ينظر إليه عند الركن القريب

منه.

ما هذا الصوت؟ إنه يشبه حفيف الأقمشة. هل مر شيء ما من خلفه ودخل خلف سميّة؟

* * *

مستندة إلى الدرابزين تصعد سميّة السلم بصعوبة. بعد طابق الميزانين وجدت نفسها ما زالت في نصف المسافة للدور الأرضي حيث ينتظرها الأسانسير ليريحها من هذا العذاب، فتوقفت لتلتقط أنفاسها. نظرت للحذاء ذي الكعب العالي وقررت خلعه لاعِنة الأناقة وسنين الأناقة. انحنت لتنفيذ القرار لكنها تسمرت عندما سمعت سائقها ينادي:

– حاجّة! كله تمام؟

بصعوبة بالغة ردت قائلة:

– تم.. تمام يا عبد القادر.

نظرت للأسفل علها تراه لكنها رأت خياله فقط.

حسنًا، لنكمل هذا العقاب. حذاؤها في يديها عاودت الصعود لكنها توقفت بعد نصف طابق لتنصت لهذا الصوت الغريب: حفيف أقمشة. ثم

تناهى لسمعها صوت شخص ما يصعد وراءها وهو يدندن. إنه يُصدر لحن أغنية القمح الليلة وفمه مقفول.

نظرت مجدداً فرأت خيال لشخص ما في نصف الدور السفلي.

– كله تمام يا عبد القادر. روح عند العربية.

لم يأتِ رد. حتى الدندنة توقفت.

– عبد القادر؟

صمت مطبق إلا من صدى صوت خفيف لندائها.

حدقت إلى هذا الخيال الرابض دون حراك أسفل منها بطابق ونصف. بدأ قلبها ينبض بعنف. الثواني تمر ببطء وهي تنظر لهذا الخيال.

لقد تحرك. نعم. إنه يتحرك الآن.

– عبد القادر!

لماذا لا يرد؟

أيّا كان هذا الشخص فهو ليس السائق الخاص بها وهو الآن يصعد باتجاهها وقد عاود التنغم بالأغنية

الكئيبة.

حان وقت الحركة السريعة. ضحكت في قرارة نفسها حين فكرت في هذه الكلمة (سريعة). التفتت لتصعد البقية الباقية من السلم. باقي نصف طابق وتصل إلى الدور الأرضي.

إنها تسمع الآن صوت خطوات أقدام ثقيلة تصعد وراءها بخطًى واسعة يصحبها صوت حفيف كأن هذا الشخص يرتدي ملابس فضفاضة. إنه ما زال يُخرج لحن الأغنية اللعينة بحنجرة غير آدمية ليصدي في جنبات المبنى الخراسانية.

لا بد أن تسرع، لكنها لا تستطيع. نفَسها المقطوع وقلبها الذي يدق بعنف ينذران بذبحة صدرية.

مش يمكن يكون حد عادي يا سمية؟ سألت نفسها. لأ أنا متاكدة إن في حاجة مش طبيعية في اللي طالع ورايا ده. ليه مش بيرُد؟ يالّا يا سميّة هانت، كام سلّمة بس.

صوت خطوات الأقدام وراءها ينبئها أنه يقترب منها. ها هو الطابق الأرضي أخيرًا.

يادي النيلة.

ممر مظلم طويل آخره المصعد على اليسار. استندت إلى الحائط كي لا تنهار، أكملت مسيرتها حافية القدمين. تبينت من صوت النغم أنه قد وصل للدور الأرضي هو الآخر ثم توقفت الدندنة. إنها لا تجرؤ على النظر خلفها لكنها قد وصلت بالفعل للنصف المضيء من الممر.

قررت المخاطرة بذبحة ومدت الخطى للمصعد، وهي تقرأ آيات من القرآن. صوت حفيف أقمشة يشي باقتراب شخص في رداء ثقيل منها. وصلت للزر وضغطت عليه ولحسن حظها فُتح في الحال. دخلت للمصعد وبحثت عن أزرار الصعود. عندما وجدتها رغم الإضاءة الضعيفة قامت بالضغط على رقم طابق عشوائي وانتظرت.

خطوات الأقدام تقترب. دندنة خافتة بنفس النغمة تتناهى إلى سمعها.

لماذا لا يغلق هذا الباب اللعين؟

– هو مبيطلعش ليه ده؟

صاحت بهذا السؤال مما ضاعف إحساسها بالرعب. نظرت للأزرار فوجدت مكان مفتاح. يبدو أنها تحتاج لهذا المفتاح كي تستخدم المصعد.

إنه يقترب..

يا نهار اسود..

حان وقت الصراخ.. .

– عبد القاااادر!!! الحق..

نار في صدرها أسكتتها.

بصوت مخنوق قالت:

– مش عا.. عارفه أتنف..سسسس.

صوت الخطوات ينذر بوصول الشخص للمصعد. الآن سيظهر.. الآن.

..

لماذا لا يظهر؟ خطوات قدميه ما زالت صادرة من مسافة ثابتة. إنه على بُعد خطوة واحدة من المصعد.

لكنه لا يظهر.

خطوات قدميه لا تتوقف كما لو كانت المسافة التي تفصله عن المصعد تتسع لتزيد من عذاب

انتظارها.

ثم توقفت الخطوات والدندنة عند طرف الباب بالضبط.

انطفأ نور المصعد. لا بد أن المدة المصممة لنور المصعد كي يبقى مضاء قد انتهت.

باب المصعد يغلق وقد عاد نوره من جديد. ثم بدؤوا في الصعود.

الألم في صدرها لا يُطاق. استندت إلى الحائط محاولة التقاط نفسها بصعوبة، وبدأت الدنيا تدور بها. إنها لا تستطيع احتمال هذا الرعب.

صوت تنهيدة أتت من ورائها.

إنه معها في المصعد.

* * *

٣١

وقف إيهاب منحنيًا على مكتبه وعيناه لا تغادر شاشة الكومبيوتر. يراقب كل تفصيلة سجلتها وتسجلها الكاميرات ويستمع بإنصات لكل ما يحدث داخل زنزانة ٣.

لكنه لا يرى شيئًا. يكاد يجزم أن الإضاءة ما زالت تخفت مع مرور الوقت. اعتدل واقفًا وهز رأسه رافضًا هذا الفشل. خرج من مكتبه وأسرع للزنزانة ونادى على سعفان أن يفتحها له. عندما جاء سعفان بالمفتاح سأله إيهاب:

– هي الكلاب سكتت إزّاي؟

رد عليه سعفان:

– مشيوا من هنا. الدكتور البيطري جه من ساعتين. حالتهم كانت وحشة خالص. مكانوش بيناموا وكانوا هيتجننوا من إيه مش عارف. فلما الدكتور شافهم كده أمر إنهم يتنقلوا حتة تانية. فنقلناهم إلا الكلب عنتر. أصله كلب شديد وكان ماسك نفسه.

وأعطاه المفتاح.

نظر إيهاب للمفتاح وصاح به:

– إحنا هنهرّج؟ إفتح الزنزانة يا بني آدم!

بيد مرتعشة وعين معلقة على محتوى الزنزانة ذات الضوء الشديد الخفوت، فتح سعفان الباب دفعه كي ينفرج على مصراعيه أمام إيهاب وتراجع للخلف.

– هاتلي الكشاف.

قال إيهاب ثم نظر داخل الزنزانة. يصارع إحساس ما يقول له إنه يجب أن يبقى خارجها. بغضب مكتوم أزاح إيهاب هذا الإحساس جانبًا وخطا داخل الزنزانة.

الرائحة بشعة. تذكره برائحة قبر مغلق منذ زمن. الضوء لا يساعده علي رؤية كل التفاصيل لكنه بصعوبةٍ يستطيع أن يرى الكنبة التي تقبع في آخر الغرفة تحت الشباك الصغير و..

مهلًا. الشباك.. لماذا لا يضيء المكان كما يجب؟ إن الوقت ما زال مبكرًا والشمس يجب أن تنير المكان أكثر من هذا.

نظر عبر قضبان الشباك فوجده مظلمًا كما لو أنه لا يطل على خارج المبنى، كأن هنالك شيئًا يعوق

الضوء في الجهة الأخرى.

– الكشاف يا إيهاب بيه.

التفت ليرى سعفان خارج الزنزانة يمد يده إليه بالكشاف.

سأله إيهاب وهو يأخذه منه:

– هو فيه حاجة على الشباك من بره؟ في حاجة حاجبة ضوء الشمس؟

كأنه يلاحظ الموضوع لأول مرة، نظر سعفان عبر الشباك المفترض أنه يطل على الممر المؤدي للجراچ.

– لأ مفيش يا باشا. ممنوع إن حاجة تسدّه.

رفع إيهاب حاجبه ثم قال:

– طب سيب الكشاف هنا وتعال.

خرجا معًا وسط فضول باقي قوة القسم. دار إيهاب حول المبنى حتى قال له سعفان:

– هنا يا باشا.

في هذه اللحظة كان سعيد ينزل من سيارته.

– صباح الخير يا فندم.

رد إيهاب باقتضاب:

– صباح النور.

ثم قال لسعفان:

– هو ده الشباك، متأكد؟

– طبعًا يا باشا. أنا بقالي عشر سنين هنا.

– غريبة. ده الضوء جامد هنا ومفيش أي حاجة تمنعه إنه يخش الزنزانة. علّق إيهاب بعد فحص المكان.

وقف سعيد بجانبه وقال:

– ممكن الزاوية بتاعة الضوء وعرض الحيطة هي اللي مانعة الضوء سيادتك.

رد إيهاب:

– ممكن. بس أنا إبتديت أحس إن فيه بالفعل حاجة في الزنزانة دي.

– سيادتك دي نمرة الرائد ثروت بتاع مركز العلاتمة اللي تبعه قرية بر الضيف.

قالها سعيد وهو يمد يده بورقة لإيهاب.

– ممكن يكون عنده إجابة ونعرف إيه اللي حصلهم قبل ما يجولنا. ساعتها ممكن نستنتج هم مالهم.

سرح إيهاب في ما قاله سعيد.

إيه اللي جه معاهم من بر الضيف؟

* * *

٣٢

أخذ إيهاب يشاهد تسجيلات كاميرات المراقبة على شاشة الكومبيوتر والمحمول على أذنه. ما زال الرائد ثروت مأمور مركز العلاتمة لا يرد. وضع المحمول جانبًا وتابع ما يشاهده. ساعات طويلة من التسجيلات لم يتحرك خلالها أيٌّ من النزلاء الثلاثة قيد أنملة.

تلا هذا المزيد من التفكير.

متلازمين، مش لوحدهم جوّه.

كنتوا بتكلموا مين؟ سألهم عبر الشاشة.

هاجس ما جعله يمد يده ويرفع الصوت لأقصى درجة. في هذه اللحظة دخل عليه سعيد لكن إيهاب وضع أصبعه على فمه كي يحثه على الهدوء. ببطء أغلق سعيد الباب واتجه ليجلس امام إيهاب الذي كان في قمة تركيزه. مد الأخير يده للدرج السفلي وأخرج سماعات ووصّلها بالجهاز.

ثم أنصت.

بعد مرور دقائق قضاها إيهاب في الاستماع للتسجيل انتهت بأن أعطى سعيداً السماعات

قائلًا:

– إسمع كده.

وضع سعيد السماعات على أذنه وقام إيهاب بتشغيل التسجيل.

– صوت إيه ده سيادتك؟ ده مفيش حد فيهم بيتحرك.

رد عليه إيهاب قائلًا وهو يأخذ منه السماعات:

– معنديش أدني فكرة.

جلس سعيد وقال بعد تفكير عميق:

– دي زي صوت الرفرفة اللي سمعناها وصالح جوّه. زي ما يكون في حاجة طايرة في الزنزانة مش باينة في الصورة.

ظل إيهاب يستمع إلى التسجيل وهو في حالة من التفكير العميق. ثم هب واقفًا وقد قرر شيئًا ما.

– لازم ننقلهم من الزنزانة دي.

* * *

نقل إيهاب ومعاونيه النزلاء الثلاثة إلى أبعد زنزانة في المبنى عن زنزانة ٣: إلى مثيلتها في الجهة المقابلة وهي زنزانة ٦. تقع تلك الزنزانة في الممر الموازي لزنزانة ٣. إن القسم يتكون من نصفين متماثلين يلتقيان عند الاستقبال من الأمام وعند مكتب إيهاب في المؤخرة. أمام مكتب إيهاب يوجد مكتب المعاون، ويمر بين المكتبين ممر طويل يصل بين الزنزانتين ٣ و ٦.

عند باب الزنزانة ٦ وقف إيهاب وأيمن وسعيد وسعفان يتأملون النزلاء الثلاثة.

– زي ما شيلناهم زي ما حطناهم. قال النقيب سعيد. مغيروش وضعهم عن اللي كان في زنزانة ٣.

– مش مهم. دلوقتي المهم نشوف حكاية (اللي معاهم) ده. فين الكلب؟

صوت خطوات وراءهم، فالتفتوا ليروا صالحًا ومعه الكلب المخيف عنتر. تأملوا الكلب فوجدوه قلقًا كثير الحركة، لكنه نوعًا ما مستكين لِيَد صالح.

– هاته هنا. أمره إيهاب.

ببطء وتردد تقدم صالح بينما تابع الجميع حركات الكلب. أبدى عنتر مقاومة ضعيفة، لكنه استسلم في النهاية وذهب لباب الزنزانة ٦ التي يقبع فيها النزلاء. ما زال الكلب قلقًا لكنه تحت السيطرة.

– غريبة. قال سعيد.

– طيب تمام كده. هاته وتعالى ورايا.

بحزم قال إيهاب.

ثم عبر الممر الفاصل بين الزنزانة ٦ والزنزانة ٣. وراءه هرول الجميع. عند نصف الممر، تقريبًا عند مكتب إيهاب، بدأ عنتر يزمجر. ثم بدأت مقاومته تزيد كلما اقترب من الزنزانة الأصلية. وقف إيهاب ومعاونيه عند باب الزنزانة ٣ والتفتوا ليشاهدوا التحول التدريجي في سلوك الكلب. كلما اقترب من الزنزانة زادت حدة نباحه بينما صالح يقاوم بكل ما أوتي من قوة كي لا ينفلت منه الكلب هاربًا.

– إثبت يا صالح. روح ساعده يا سعفان.

صاح سعيد.

لكن إيهابًا تدخل قائلًا:

– مفيش داعي. إمشي وخده معاك يا صالح.

بعد أقل من دقيقة كانوا يتأملون زنزانة ٣ الفارغة من النافذة الصغيرة. النور الكئيب الآتي من المصباح الوحيد في منتصف الزنزانة ساعد في إضافة جو مخيف على المشهد. كذلك فعل النور الأحمر الصادر من كاميرات المراقبة.

– كده يبقى فيه حاجة في الزنزانة دي فعلًا.

– قال سعيد.

التفت له إيهاب قائلًا:

– مش عايز ولا كلمة عن الموضوع ده تطلع. اللي مش هيعرف يمسك لسانه هحاكمه.

عاود إيهاب النظر للزنزانة المعتمة، وشعر كأن ظلامها يبتسم له. هذه المرة بدأ يتقبل هذا الشعور البغيض.

الشعور بالخوف.

* * *

٣٣

جلس يوسف على كرسي مكتبه ينظر لزين. في يده سيجارة غير مشعلة وأمامه يرقد شيك مصرفي عليه إمضاء الأخير.

– الموضوع بسيط جدًّا يابن عمي.

قال زين بلهجته الفلاحية وصوته الأجش.

– ولو المبلغ جليل ممكن أزجّه حبتين. وده ليك إنت أما نصيب سلمى أختك فهيبقي نص القيمة دي.

اختلجت شفتا يوسف من الانفعال، لكنه حافظ على جمود ملامحه. وضع السيجارة على المكتب، وأخذ يعبث بأنامله في الشيك وهو يتذكر كلام عمته. هل ينهي معه الاتفاق أم يأخذ وقته؟ ربما وصل لاتفاق أفضل.

– مش فاهم إيه دواعي الاستعجال ده كله. الموضوع غريب حبتين. إيه اللي يخليك متقدرش تستنى يومين أراجع الورق وأتمّن الأرض والبيت مش يمكن أنا ظالمك؟

بنبرة صوت أعلى قليلًا رد زين:

– أنا اللي عارض المبلغ ده محدش ضربني على إيدي. وبعدين بصراحة كده شكل إستعجالي ده إتفهم غلط. بلاش طمع يا إبن عمي.

للحظه لاح الضيق في عين يوسف لكنه علق متفهما:

– الحقّ حقّ يا إبن عمي. حط نفسك مكاني. في حاجة لو إستنيت يومين؟ إنت بتقول إن البيت والأرض بقالهم على الوضع ده سنين، من ساعة ما سبت البلد أنا وبنت عمك من سبعة وعشرين سنه. مش معقول المشروع بتاعك ده ميقدرش يستنى أسبوع كمان؟

– أسبوع!!!؟

صاح زين غاضبًا ورنت الكلمة في إنحاء المكتب الفارغ من الموظفين. اعتدل يوسف في جلسته واكتسبت ملامحه تعبير غاضب لكن قبل أن يتكلم أسرع زين بنبرة منكسرة.

– كتير يا يوسف جِوي. دول مليون جنيه في الشيك ده، ممكن أخليهم مليون ومتين بس نخلص النهارده. لازم أرجع البلد الليلة دي. مينفعش أتأخر عنهم أكتر كده.

– هم مين؟ سأل يوسف بفضول حقيقي.

تلعثم زين في رده قائلًا:

– الناس اللي هشاركهم.

الكذاب يقع عندما تزيد التفاصيل. زين في أول لقاء له مع يوسف قال إنه اشترى نصيب باقي الورثة لأنه لا يريد شركاء.

إنت بتكدب يا زين. قال يوسف هذه الكلمة لنفسه ولَم يَبُح بها. ظل الاثنان يتبادلان النظرات لثوانٍ حاول يوسف خلالها سبر أغوار جليسه، لكن كل ما توصل إليه أن زين منفعل حقًا وعلى وشك الانفجار.

هل عيناه مغرورقتان بالدموع أم أنه انعكاس الضوء من الشباك خلف يوسف؟

– طيب سيبلي النهارده لو سمحت. لغاية بكرة بس.

تجمدت ملامح زين لوهلة ثم نجح في اختلاق ابتسامة صفراء وقام من جلسته.

– ماشي يا أبو حسن. بكرة نتقابل في الشهر العقاري؟

بضجر شديد من إلحاح ابن عمه هز يوسف رأسه مؤيدًا ووقف ليرافقه لباب المكتب الرئيسي. ودّع زين بابتسامة متكلفة وهو يدلف إلى المصعد وكلاهما عيناه على وجه الآخر.

تراجع زين ليدخل المصعد بظهره قائلًا:

– سلام عليكم. أرجو مكنش ضيف تجيل.

قبل أن يفتح يوسف فمه ليرد السلام رأى خلف زين شخصًا ينهض.

مهلًا، هل ما رآه حقيقي؟

لكن باب المصعد أُغلق قبل أن يتأكد. قام بسرعة بالضغط على زر طلب المصعد وانتظر حتى وصل للطابق الأرضي ثم راقبه وهو يصعد.

عندما فُتِح باب المصعد وجد ما يتوقعه بالضبط.

* * *

٣٤

وقف يوسف عند باب المكتب الزجاجي وعلى وجهه أعتى آيات الضيق. ينظر باشمئزاز للأنثى الطاعنة في السن والتي تقف أمامه في حالة مزرية. ملابسها متسخة ببقع مختلفة مما يبدو له أنها مزيج من الطين و.. شيء آخر لا يعرف ما هو.

– إحنا أجازة النهارده يا حاجّة سميّة. قال يوسف باستنكار. ثم إيه اللي عمل في سيادتك كده؟

وقفت باعتداد ورفعت أنفها للسماء كأنه ليس بها ما بها وهي ترد:

– ما هو أنا عارفة إنّكو إجازة. أنا جاية علشان أشرب معاك كوباية شاي. معلش الأسانسير عِطل وأضطريت أطلع على رجلي ووقعت وأنا طالعة علي السلم. إيه، هنتكلم على الواقف كده؟

بسخافة لم يحسب أنه قادر عليها رد قائلًا:

– ما هو ده مش مكتب أبويا الحقيقة علشان ادخَّل أي حد كده من غير ما أستأذن صاحب المكتب.

بلؤم يضاهي سخافته ردت عليه:

– وهل استأذنت للعمدة اللي لسه نازل ده؟

احمر وجهه وكاد أن ينفعل عليها لكنها قالت شيئًا أصابته بالدهشة العارمة. لا ليست دهشة، عندما قالت الجملة التالية بدأ يخشى هذه السيدة.

– مليون ومتين ألف. قالتها ببساطة وانسلَّت من جانبه داخل المكتب.

إن رائحتها مختلفة، لم يعد العطر الثقيل ينساب إلى أنفه لكن رائحة أخرى أشبه بالبخور الممزوج بالأتربة والعرق. إنها بشعة أكثر من رائحة عطرها، لكن يوسف لم يهتم بذلك، ولم يهتم بأنها شِبه دفعته للتدخل، ولا إنها لم تعد تترنح من جراء استخدامها الكعب العالي رغم كبر سنها و.. مهلًا، إنها حافية.

محموله يدق في مكتبه.

فلينتظر أيًا من كان حتى يتخلص من هذه البلوى.

مشدوهًا، سار وراءها ليجلسا في الاستقبال.

إن قدميها متسختان و.. هل هذه دماء التي على كعبها أم حِناء؟

– حضرتك قلتي إيه؟ سألها بنبرة مرتعشة.

– زي ماسمعت. الرقم ده ممكن بكره يبقي في جيبك. نمست.. ستنمت.. مستمنتس.

– إيه حضرتك قلتي إيه؟

سألها يوسف متعجبًا فهو بالفعل لا يفهم ما قالته في آخر جملتها.

شيئًا ما بدا أنها تقوله لنفسها. أو إنها عطسة، لا يدري.

محموله يدق من جديد. أشار لها بأصابعه أن تنتظر وذهب ليغلق باب مكتبه كي لا يسمع عويل المحمول. عاد ليجلس بجانبها وهو مذهول. تأمل وجهها بدون مساحيق التجميل. إنها عجوز حقًا. ووجهها يبدو كأن ظلًا ما واقع عليه.

هي حافية ليه؟ وإيه اللي بتعمله بقها ده؟

– ب..ب.. بس الرقم ده..

وضعت قدمًا فوق الأخرى وقاطعته:

– الرقم ده علشان الخدمة اللي هتعملهلنا.

مليون ومتين ومليون ومتين يبقوا.. أمال إمتى بقى هنشوف الملايين الكبيرة؟ إيه اللي إنت

بتقوله ده يا يوسف، دي رشوة يا بني آدم. بس فعلًا، إشمعنى الرقم ده؟

هل يزداد وجهها ظلمة؟ لقد أصبح يصعب على يوسف رؤية ملامحها.

– وإضرب الرقم ده في عشرة لما المشروع يخلص. ساعتها هتشوف الملايين الكبيرة.

هب من مكانه متراجعًا.

هي بتعرف اللي بفكّر فيه والا إيه؟

– ثواني يا حاجّة.

بدون أن ينتظر ردّها أسرع لغرفة مكتبه وأغلق الباب خلفه. تسارعت أنفاسه وهو يبحث عن محموله بعصبية.

– يا باشمهندس! سمعها تنادي من الصالة.

إنت فين يا موبايل الكلب؟

– ثواني يا حاجّة. بَلِم حاجتي علشان أنزل معاكي.

فجأة دق المحمول برسالة ففزع وسبّه وهو يرفع الورق من فوق المكتب ليبحث عنه.

هي عرفت الرقم إزاي؟ صدفة والّا زين قالها حاجة؟ والّا هم شغّالين مع بعض؟

– يوسف بيه!

كان هذا النداء أقرب لباب مكتبه فبدأ الخوف يفعل أفاعيله.

– ثواني ثواني. خليكي عندك.

أمسك بالمحمول وأسرع بالاتصال.

أوفف.. رد يا إيهاب.

جرس ولكن لا يرد أحد.

صوت قدمين حافيتين تقتربان.

إيه الصوت الغريب ده؟ صوت زي ما يكون كركبة بطن أو ضفدع عملاق يتثاءب.

– آلو؟

– أخيرًا.. إيهاب تعاالي المكتب بسرعة.

قالها بصوت فوق الهمس بقليل. نظر فرأى خيالها خلف الزجاج المعتم.

– آلو يا باشمهندس. أنا مش إيهاب.

أبعد يوسف المحمول عن أذنه ونظر للاسم المكتوب.

إيه الهبل بتاعي ده؟

– معلش يا هارون إتصلت بيك غلط.

هَمّ أن ينهي اتصاله الخاطئ بهارون عامل البوفيه، لكن لاحظ أن الصوت خارج الغرفة توقف بينما خيال سمية ما زال خلف الباب.

بتعمل إيه دي؟

– سيادتك متأكد إنك إتصلت غلط؟

تذكر أنه لم ينهِ المكالمة بعد فوضع المحمول على أذنه.

– آه معلش يا هارون.

جاءه رد هارون عبر الهاتف ليفزعه أكثر مما هو عليه:

– باشمهندس يوسف. روح دلوقتي حالًا وأدخل الحمام بتاعك. إقفل الباب ومتفتحش أي نور. ولا

حتى المحمول. وأنت جوّه إرمي عليك ستارة الحمام أو إستخبّى وراها.

سمع صوت بالخارج لم يستطيع تحديد هوية صاحبه.

– بتعملي إيه هنا؟

رأى الخيال الذي كان يقبع خلف الباب الزجاجي يتحرك بعيداً عنه. نظر إلى المحمول فوجد أن المكالمة قد انتهت. سمع في الخارج سمية وهي تنعق قائلة:

– أنا ضيف إبن القطّان زيي زيك. مانتاش أحسن مني يا ابن تسعة. لو كنت نسيت القسم فأنا مانسيتش.

أسرع يوسف للحمام وأغلقه وراءه. لقد أصبح رسميّاً مرعوباً من هذه المرأة، هذا إن كانت امرأة حقّاً.

لكن من معها بالخارج؟

و..

أي قسم ؟

* * *

٣٥

على الرصيف المواجه للكورنيش تحت شمس الشتاء الخجولة، كانت ليلى وحسن يمشيان بتؤدة. بيدها أكياس بلاستيكية عليها العلامة التجارية لسوبر ماركت مشهور. يتبادلان حديثًا غاية في الخطورة عن شيء كان يهدد الديناصور بارني في حلقة الكارتون الماضية. شعرت ليلى أنها ليست كعادتها، فهي كانت دائمًا تعطي اهتمامًا بكل ما يقوله حسن.

لكنها الآن لا تستطيع أن تعطيه إلا جزءًا صغيرًا من تفكيرها بينما وجدانها كله تائه في سيناريوهات مظلمة مع يوسف. حتى أنها لم تنتبه أنه توقف عن الكلام حتى وصلوا إلى عمارتهم.

– ماما مش ده صاحب بابا اللي جابه عندنا في عيد ميلادي إمبارح؟

التفتت لتجد زين واقف على الرصيف الذي يتوسط الشارع الجانبي وعيناه على عمارتهم. نظرت لما يحدق إليه فلم تر أحدًا. تقدمت لمدخل العمارة فعبر بجثته الفارهة الشارع وخاطبها بأدب جمّ قائلًا:

– السلام عليكم يا مرات ابن عمي. عنّك.

ومد يده ليحمل عنها الأكياس. بتحفظ شديد وتحت ضغط إلحاحه أعطته كيسين واحتفظت بالباقي في يدها.

– أشكرك واللّه. بس البواب موجود.

– بواب وأنا موجود. واللّه أبداً.

إنها تعرف أخلاق الفلاحين وشهامتهم وعنادهم أيضاً فزوجها وصديقة عمرها من ذات الأصول. استسلمت له وأعطته باقي الأكياس. معاً صعدا السلم أمام نظرات عوده البواب التي تدل على عرفان شديد بالجميل لهذا البغل الذي رحمه من طلوع السلم بكل هذه الأكياس. في طريقهم للصعود تبادل زين الحوار مع حسن.

– إنت بأه حسن مش كده؟ كل سنة وانت طيب يا سيدي.

ببراءة طفولية رد حسن:

– شكراً. إنت صاحب بابا؟

– لا أنا ابن عمه.

– إيه ده بجد؟ طب ما بتجيش عندنا ليه؟ أنا ماعنديش قرايب ألعب معاهم.

سكت زين لحظة قبل أن يقول:

– إنت عارف؟ عندي ولد نفس سنك كده تقريبًا. إسمه ناصر. إن شاء اللّه أجيبه هو وأخته وهنيجي نلعب معاك. بس نخلص من الهم اللي هم فيه.

سألت ليلى باهتمام:

– إيه كفى اللّه الشر مالهم؟

استدرك زين:

– مافيش. الإمتحانات صعبة عليهم. رقية الكبيرة في إعدادية.

لمحت ليلى مسحة حزن في ملامحه. ترددت للحظة قبل أن تقول بخبث:

– موضوع غريب اللي إنت كلمت يوسف فيه ده.

حولت عينها للسلم التي تصعد عليه وانتظرت بترقّب كي تنطلي حيلتها عليه دون أن تنظر إليه. وما هي إلا لحظات حتى رد عليها بلهجته الفلاحية.

– يا ست هانم الرقم اللي آني عارضه دهوه مش هيلاقي حد يديله رُبعه.

وصلا لطابق أنور الذي فتح باب شقته، وكان يبدو عليه أنه كان ينوي الصياح.

– يا ليلى هانم مش معقول إمبارح العيد ميلاد كان مستمر لغاية الساعة اتنين صبا..

تسمّر عاقداً لسانه عندما رأى الفلاح الضخم بصحبتها.

عرفتهما ببعضهما البعض:

– زين، ابن عّم يوسف. القبطان أنور، جارنا وصاحب العمارة.

دون أن ينتظر أنور تعليق أو رد أو حتى يرحب بزين انسحب داخل شقته كلسان ثعبان وأغلق الباب.

ابتسمت لزين بامتنان وتابعا صعودهما.

عند باب الشقة أدخلت المفتاح في القفل والتفتت لزين وسألته مباشرةً:

– إنت وصلت معاه لكام؟

– مليون ومتين. وممكن أزود خمسين باكو كمان لو أقنعتيه نخلّص النهارده.

فغرت فاها مصعوقة، لكنها تداركت نفسها بسرعة وهي تمد يدها للأكياس التي يحملها.

– هحاول حاضر. شكرًا يا زين على تعبك.

فتحت باب الشقة ودفعته برفق وانتظرت أن يعطيها الأكياس.

– واللّه أبدًا. لازم أدخلهملك جوّه.

غيرت ليلي نبرة صوتها بأخرى أكثر حزمًا:

– لا تمام كده. أشكرك.

– واللّه..

حاول أن يدفع الباب ليدخل بالأكياس، لكنها أمسكت بالباب بقوة لتمنعه وقضبت حاجبيها واكتسب صوتها مسحة غضب:

– ميينفعش قُلنا.

تجمّد الموقف وزين يمد رأسه محاولًا النظر داخل الشقة كأنه يبحث عن شئ وليلى ممسكة بالباب حتي توقف عن محاولته واعتذر لها قائلًا:

– أنا آسف واللّه بس ميصحش.

– سيبهم هنا وهخلّي الشغالة تشيلهم. شكرًا.

وأغلقت الباب في وجهه. نادته من وراء الباب.

– سيب الأكياس عندك. مع السلامة.

– أرجو إني مكنتش ضيف تقيل. سلامو عليكو.

لم ترد عليه ليلى، إنما نظرت من خلال العين السحرية.

ما زال واقفًا. يضع أذنه على الباب. لحظة أخري مرّت قبل أن يستسلم ويمضي مبتعداً.

* * *

٣٦

في ظلمة الحمام الخاص في غرفة مكتبه الصغير، اختبأ يوسف. كانت العشر دقائق المنصرمة أطول عشر دقائق في حياته. سمع خلالها أصواتًا خارج غرفة مكتبه يشيب لها الرضيع. من نقيق مئات الضفادع وهمس لا يستبين محواه إلى صراخ أشبه بشجار النسور.

لكن كل شيء هدأ الآن ورغم أنه لا يسمع شيء إلا أنه لا يستطيع الخروج من خلف ستارة البانيو. نظر للمحمول بيده وفكر للحظة أن يتصل بالشرطة أو حتى دكتور شريف لكن نصيحة هارون ما زالت ترن في أذنه: لا تصدر صوتًا أو ضوءاً.

باب غرفة مكتبه فُتِح. انكمش في مكانه كقطيط مبلول وعادت دقات قلبه ترتفع من جديد. هناك من يقف في صمت على أعتاب غرفة المكتب.

هيحصل إيه يعني لو فتحت الباب وخبطها وجريت بكل سرعتي؟

لكن يبدو أن ساقه لا تنوي على الاستجابة له ففضّل أن يظل في مكانه.

إنها تخطو داخل الغرفة. تتجوّل الآن في الغرفة الصغيرة. بالتأكيد ستأتي للحمام عندما لا تجده في المكتب. فعلًا. رأى خيالًا يقف خلف زجاج باب الحمام. يد تمتد للمقبض. تفتحه وتدفع الباب ليرتطم بالحائط ويكاد الزجاج أن ينكسر. صوت الارتطام كاد أن يجعله يفقد البقية القليلة من أعصابه.

تدخل الحمّام وتقف بلا حراك. ينظر يوسف حوله لعله يجد شيئًا يدافع به عن نفسه.

تتقدم ناحية البانيو.

فجأة أضاء نور محموله الصامت. ليلى تتصل للمرة العشرين.

في نفس الوقت الذي حاول السيطرة فيه على يده المرتعشة كي يغلق المحمول، امتدت يد للستارة وفتحتها.

– يوسف؟!

– دكتور شريف؟!

هبَّ واقفًا من جلسته ونظر حول الحمّام فلم يرَ أحدًا غير مديره:

– حضرتك شفتها؟

– شفت مين يا يوسف؟ بتعمل إيه في البانيو؟

أسقط في يد يوسف فوقف كالتمثال لا يدري كيف يفسّر موقفه فأشار له شريف بشيء من الضيق وهو يستدير ليخرج من الحمام:

– اطلع من البانيو. هو انت كنت مستخبّي؟

بسرعة أخرج يوسف قدمًا تلو الأخرى من البانيو والتصق بشريف وهو يغادر غرفة مكتبه.

– هو حضرتك جيت امتى؟

أجاب شريف وهو ينفض يد يوسف من فوق ذراعه:

– من شوية. مالك كده مش على بعضك.

جال يوسف بنظره في المكان بقلق واضح وكرر السؤال:

– أيوه شوية أد إيه يعني؟

توقف شريف فجأة والتفت ليوسف قائلًا بعصبية:

– شوية يعني شوية. جرالك إيه يا باشمهندس؟ إنت شارب حاجة؟

بادله يوسف العصبية ورد بصوت مرتفع:

– أنا مش بهزر يا فندم. البلوة السودة اللي سيادتك رميتها عليّا كانت هنا. وحالتها مش طبيعية خالص.

سأله شريف:

– بلوة إيه يابني؟

فكّر يوسف للحظة، إن كان شريف لم يرَ أي شيء مما حدث، أو حتي سمية نفسها، فمن المستحيل أن يصدقه.

– عمومًا أنا أحب أعتذر عن القضية دي.

صاح به شريف:

– قضية إيه يا بني آدم؟ بتتكلم عن أنهي قضية؟!!!

أمسك يوسف أعصابه ورد ببرود:

– قضية ڤيلا المعادي.

– إنت لسّه مخلصتهاش؟!!

يادي النيلة. أخلّص إيه؟ دي هي اللي هتخلّص عليّا.

كان يوسف على وشك الانفجار في وجه رئيسه، لكنه خطر بباله فكره.

– عندي حاجة أخطر. ورث له العجب.

إنه يعلم مدى شغف شريف بكل ما هو قديم والأماكن التي تفوح منها رائحة الأسرار. بدا له من تعبير وجه شريف الذي لان كالأطفال أنه التقط الطعم.

– ورث إيه؟

نظر يوسف مرة أخيرة حوله محاولًا معرفة أين اختفت تلك العجوز الشيطانية ثم أشار إلى مكتب شريف قائلًا:

– تعال نتكلم في مكتبك.

* * *

٣٧

رن جرس الباب فأسرعت سلمى بارتداء الروب الملقى على الكرسي بين المطبخ وباب الشقة. لم تنسَ، قبل أن تتجه لباب الشقة أن تغلق باب الغرفة الصغيرة في نهاية الردهة القصيرة، لماذا فعلت هذا؟ لا تدري.

نظرت من العين السحرية فوجدت ليلى.

فتحت الباب لتجدها تتلفت حولها وتنظر إلى السلم. ما إن رأتها حتي دفعت الباب لتدخل.

– فيه إيه يا ليلى؟ سألت سلمى بقلق.

نظرت ليلى لمنور السلم مرة أخيرة قبل أن تغلق الباب خلفها.

– معلش يا سلمى. أصل الراجل الغريب ده اللي يوسف جابهولنا البيت إمبارح كان بيحاول يدخل الشقة بالعافية.

– إيه؟! أنهي راجل؟ الفلاح اللي قال أنه إبن عمّنا؟

– أيوه. شافني وأنا طالعه بأكياس البقالة فألح إنه يساعدني.

– المهم جه عند باب الشقة وكان مصمم يدَخّلّي الحاجة جوه. لغاية ماضّطرّيت إزقّه وأقفل الباب وقلتله يحطّ الأكياس على باب الشقة.

– إيه ده إيه ده. طب فين حسن؟

– نايم تحت. الشغّالة الجديدة معاه.

وهزت جهازًا لا سلكيًا في يدها وأضافت:

– جنبه جهاز المراقبة متخفيش.

– ماشي. كلمتي يوسف وحكيتيله؟

ظهر الغضب على وجه ليلى وهي ترد:

– مبيردِّش يا ستّي. أخوكي إتغيّر خالص الكام يوم اللي فاتوا. بقي زي إيهاب مش طايق البيت.

رفعت سلمى حاجبيها من هول ما قالته ليلى. تلعثمت ليلى بعد أن أدركت فداحة ما قالته لتوها.

– مش قصدي والله. يا دي النيلة عليّا. أوف بأة!!

قالتها ليلى ورأت سلمى أن عينيها قد اغرورقت بالدموع.

– خلاص خلاص. أنا متفهمة.

– لأ يا سلمى. أنا بقيت بشعة. شكّاكة وقليلة الذوق ومبعرفش بقول إيه. سامحيني والنبي.

– يا بنتي خلاص. أنا مش ممكن أزعل منك أبدًا. إنتي مش عارفة كدة والّا إيه؟

– عارفة يا سلمى واللّه. بس يوسف تاعبني قوي ومحسسني بعدم أمان فظيع. في دماغه خطط وحاجات عايش فيها لوحده كده. وفي عينيه نظرة غريبة مشفتهاش قبل كده. ده أنا حتى مكنتش أعرف حكاية إبن عمه دي. تصوري، فيه بينهم إتفاق بمليون جنيه وشوية من غير ما أعرف. ده غير الست اللي إسمها سميّة، بيقول عليها عميلة. هو مكتبهم ده عنده عملاء أصلًا؟ مش عميلهم الوحيد هي وزارة الثقافة؟

– يا لهوي.. إيه ده كله؟ طب تعالي أعملك حاجة سخنة وتحكيلي بالتفصيل علي كل بلاوي أخويا.

– لا إعمليها وتعالي ننزل. مش عايزه أسيب حسن لوحده.

– مش معاه اعتماد؟ دي بت زي الفل. مش عارفة أشكرك إزاي يا ليلى. فعلًا بتساعد ونضيفة وطيّبة.

متعرفيش إزاي فيها الصحة دي وهي بالحجم الصغير ده.

– لأ وبتقرأ الفنجان كمان.

– بجد؟ إنتي بتصدقي في الكلام ده؟

– ما هو من حيرتي مع يوسف.

قالتها ليلي وانهمرت الدموع من عيناها فربتت سلمى على كتفها واتجها للمطبخ معًا.

فتحت سلمى الثلاجة وتسمرت أمامها.

– إيه ده؟ فين علبة الكاكاو؟ هي التلاجة فاضية كده ليه؟

سألتها ليلى عما تقصد فقالت:

– مش عارفة الأكل مبقاش فيه بركة اليومين دول ليه. الحاجة مبتلحقش تقعد حرفيًا. عمومًا سيبك. تعالي نعمل حاجة تانية.

ليلى باندهاش:

– تصدقي إحنا عندنا نفس المشكلة. عندي إحساس إن الأكل بيختفي برضه.

– تكون اعتماد؟

– هي اعتماد أصلًا بتاكل؟ دي زي العصايا.

ضحكت سلمى وأشارت لصديقتها أن تتبعها. تباطأت ليلى وسألت وهي تشير إلى الغرفة الصغيرة.

– هي الأوضة القديمة بتاعة حسن جوّه؟

– أيوه. تعالى بس هعملك كوبّاية شاي ماليزي جديد حكاية وننزل لحسن.

ضحكت ليلى وانضمت إليها قائلة:

– آه من إفتكاساتك دي. بس فَكّريني عايزه من الاوضة حاجة نسيتها فيها.

– نسيتي إيه؟ سألتها سلمى بقليل من التوتر لم تلاحظه صديقتها.

قبل أن ترد ليلى صدر صوت من جهاز اللاسلكي، صوت أشبه باحتكاك على خشب. نظرت كل واحدة منهما للأخرى باستغراب.

قالت ليلى:

– إنتي سامعة الصوت ده؟

كانت سلمى قد انتهت من إعداد الشاي فوضعت الملعقة وردت قائلة:

– أيوه. زي ما يكون حاجة بتخربش في خشب.

لم تعقب ليلى، بل انطلقت لشقتها وهي تتمتم:

– دي الحاجة اللي بتخربش في الخشب أدّام أوضة حسن. ربنا يستر. ربنا يستر.

* * *

٣٨

وقفت ليلى وسلمى أمام غرفة حسن تدقّقان النظر في الخدوش السوداء.

– دي زادت متر عن إمبارح. قالت ليلى.

بقلق بالغ سألت سلمى:

– هو إيه اللي عمل الخدوش دي أصلًا؟

بعصبية شديدة ردت ليلى:

– مش عارفة. مش عارفة. اعتماد!! هاتي حتة مبلولة.

جاءت الخادمة بقطعة القماش المبللة وأشارت لها ليلى على الخدوش السوداء فانكفأت الخادمة على تنظيفها.

– اعتماد. إيه اللي بيعمل كده؟ كنتي بِتْجُرّي حاجة؟ شفتي حاجة؟

التفتت لها اعتماد:

– لا واللّه يا ست هانم. لا شفت حاجة ولا جرجرت حاجة.

– طب كمّلي.

عاودت اعتماد محاولتها لإزالة الخدوش السوداء، لكن دون جدوى. أخذت ليلي منها القماشة وحاولت هي الأخرى، لكن اللون الأسود لا يتأثر. أمسكت سلمى بكتفها وقالت:

– خلاص يا ليلى. خلاص.

بدأت دموع ليلى في الانهيار، وزادت حدة محاولاتها لإزالة هذه الخطوط السوداء وهي تقول:

– مش عارفة. مش عارفة اشيلها. مبتروحش. إيه ده يا سلمى؟ أنا بيتي ماله؟ إيه اللي بيحصلنا؟

جذبتها سلمى واحتضنتها بقوة وقالت وهي شاردة الذهن:

– إهدي يا ليلي. إهدي يا حبيبتي.

* * *

بعد أقل من نصف ساعة كانت ليلى وسلمى تجلسان أمام التلفزيون الذي يعرض مسرحية

قديمة. يتجاذبان أطراف الحديث ويتناوبان الاعتداء على طبق لُب. تناولوا موضوعات شتى انتهت بموضوعات أخرى فرعية عجيبة.

لكن النتيجة كانت واضحة: لقد استطاعت سلمى أن تفرج من سريرة ليلى تمامًا.

– يعني هي لو هند كانت سمعت كلام مامتها كان زمانها..

قاطعتها سلمى قائلة بحزم مرح:

– ليلى! مش ممكن يعني. مش عارفين نركز في موضوع واحد لغاية ما نخلّصه.

انفجرت ليلى ضاحكة وشاركتها صديقتها حتى أدمعت أعينهما. عندما هدأت هيستيرية الضحك جففت ليلى دموعها وقالت بنبرة جادة:

– واللّه هَمّ يبكي وهَمّ يضحّك. أنا مش عارفة إيه اللي بيحصلنا ده.

لم ترد سلمى إنما سرحت بعيدًا ولم يخف هذا عن ليلى فأضافت:

– حتى إنتي كمان. شكلك وراكي حاجة اليومين دول. إوعي تكوني لبسه زعلانة مني؟

– لا طبعا. إيه الهبل ده يا بنتي؟ انا اللي كنت في المكان الغير مناسب في الوقت الغير مناسب. كان المفروض لما اشوفك إنتي و يوسف في الحالة دي آخذ ساتر.

– أومّال مالك؟

تنهدت سلمى فرفعت ليلى حاجبيها وقالت:

– ياه. دي حاجة كبيرة بقى. إستني.

هبت واقفة ومدت رقبتها باتجاه المطبخ منادية:

– اعتماد! تعالي.

ثم جلست ونظرت في محمولها. سألتها سلمى:

– عرفتي توصلي ليوسف؟

بنبرة منكسرة أجابت ليلى:

– لأ. متتوقعيش إنه هيعبّرني أصلًا.

ربّتت سلمى على كتفها وهمّت بقول شيئًا لكنها رأت اعتماد واقفة تنظر إليهم.

انتبهت ليلى للخادمة فالتفتت لها قائلة:

– تعالي يا اعتماد. عايزاكي تعملي فنجانين قهوة وتقري فنجان سلمى.

– عينيّا يا ست ليلي. بس متقوليش إني مقلتلكيش إنه حرام.

ثم استدارت متجهة للمطبخ.

مر الوقت سريعًا حتى سمعت المرأتان صوت تقليب كنكة القهوة في المطبخ ثم صوت الخلخال الذي ترتديه اعتماد يقترب.

ابتسمت سلمى وهمست:

– قديمة قوي موضة الخلخال ده.

ليلى باستغراب: خلخال إيه؟

جاءت اعتماد وجلست على الأرض. انتظرت حتى أنهت المرأتان قهوتهما، وأخذت فنجان سلمى وقلبته في الطبق الصغير.

نظرت المرأتان بعضهما لبعض نظرة تحمل في طياتها بعض اللوم، لكن ليلى قالت:

– إحنا بنضيّع وقت بس.

– طيب. بس بسرعة علشان ماشتغلتش في البيت ببصلة النهاردة. كان تعليق سلمى.

– يا ست سلمى هانم فنجانك سهل. فاضي وسهل.

قالت اعتماد وهي تقلب الفنجان في يدها.

– وموضوعك كمان سهل. هي حاجة واحدة اللي شاغلاكي.

ثم رمقت سلمى وهي تقول:

– ربنا ينولّك اللي في بالك.

ثم التفتت للفنجان مجدداً:

– كله بإذن الواحد. وإن شاء اللّه.. أنا شايفه.. إنتي أدّامك.. مِم.. إيه ده؟

رمقت سلمى الخادمة فرأت وجهها تجهّم فهبّت واقفة وقالت:

– أنا المفروض أطلع أحضّر الغذا. بقولك إيه يا ليلي، ممكن اعتماد تطلع تساعدني ساعة كدة؟

– طبعًا يابنتي. اعتماد، أنا هاخد دش وأنام ساعتين كده. إطلعي ساعدي مدام سلمى وتعالي على المغرب نقفّل الشغل هنا.

***

في الحمّام المليء بالبخار، وقفت ليلي تجفف شعرها. أشياء كثيرة تعتصر تفكيرها فحياتها الهادئة التي بذلت جُل طاقتها لتحافظ عليها قد عصفت بها رياح الشك واهتزاز الثقة بينها وبين زوجها. وكمان سلمى. إيه حكايتها؟

استندت بكفّيها على الحوض وتأملت في وجهها الذي يختفي تحت طبقة البخار على المرآه. شعرت بثقل على صدرها، ومدت يدها لتمسح البخار كي ترى ملامحها التي اختفت خلف الضباب.

إيه الصوت ده؟

اتجهت لباب الحمام لتفتحه وأطلّت برأسها ناحية غرفة حسن فوجدته نائمًا على الأرض بين ألوانه. لمحت شيئًا يتحرك خارج نافذة غرفته. أنهت تجفيف شعرها سريعًا واتجهت للشباك فرأت حمامه نافقة وأخرى جريحة. جفلت وتراجعت من الفزع حين ارتفعت الحمامة الجريحة على حين غرة، واصطدمت في الزجاج. ما جعل الأمر عجيبًا أنها لم تفتح

جناحيها. بدا لها أن شيئًا ما أمسك بها ودقّها على الزجاج. يبدو أن رقبتها قد تأذت فقد استقرت بجانب الأخرى النافقة. بحذر اقتربت ليلى من الشباك فوجدتها تنتفض وتتلوى من الألم.

أسرعت بفتح الشباك، وهمّت أن تلتقطها، لكنها فوجئت أن على جوانب الشيش خطوط سوداء عشوائية مشابهه لتلك التي على أعتاب باب الغرفة، فأغلقت الشباك وتراجعت. التفتت لباب الغرفة فوجدت الخطوط السوداء إياها وقد زادت كثافتها وعمقها عما كانت عليه منذ ساعة. بأنفاس متسارعة، انحنت لتلتقط حسن ووضعته على فراشه. ما إن فعلت ذلك حتى سمعت صوت في الشقة.

إنها متأكدة أن اعتماد قد نزلت لسلمى وأنها بمفردها مع حسن. أنصتت للصوت فوجدته يشبه صوت أداة حديدية. ثم توقف الصوت. استمر السكون لمدة دقيقة ثم عاد نفس الصوت. هذه المرة استنتجت مصدره: باب الشقة.

تقدمت إلى باب الشقة حيث تيقنت من استنتاجها. هناك من يحاول فتح باب الشقة بدون المفتاح. والآن ماذا تفعل؟

إن قلبها يكاد يقف.

هل تسأل عن هويته؟ وماذا إن كانت نيته الأذى، وهي الأغلب؟ فمن الممكن أن يقرر اقتحام البيت عنوة بعد أن فُضِح. هل تصرخ؟ نفس النتيجة.

بقدمين مرتعشتين تقدمت للباب واستجمعت شجاعتها لتنظر من العين السحرية. كانت الساعة قاربت على المغرب، ولم يكن نور السلم مضاء مما جعل الرؤية شبه معدومة. لكنها استطاعت رؤية شخص منكب على قفل الباب

دقّة بسيطة من أداة حديدية على شيء محشور بين الباب وإطاره أدّت إلى حركة بسيطة في الباب استنتجت منها أنه قارب على الاستجابة لمحاولات هذا الشخص.

هعمل إيه؟ يا نهار اسود يا نهار اسود. مهو لو ماتصرفتش هيخش علينا. ثم جاءت لها فكرة. مدت يدها لزر نور السلم وأضاءته. ونظرت من العين السحرية لتجد أن هناك من يجري للسلم في اتجاه النزول. حان الآن وقت الصراخ.

هرعت للشباك الذي يطل فوق باب العمارة وصرخت بأعلى صوتها.

– حرااااميييييي!!!! يا عووووداااة!!! الحقونيييييي!!!!!

ثوانٍ وكان عودة البواب ومعه ابنه وأخوه الذي يخدم في العمارة المقابلة يتعاركون مع رجل يرتدي جلبابًا أدكن. هرع سكان المنطقة والعاملين في المحال المجاورة لمساعدتهم فقد بدا عليه القوة المفرطة، ويكاد يتغلب عليهم جميعًا. لكن قبل أن يستطيع الإفلات منهم، توقف هذا الشخص عن المقاومة عندما أمسك بتلابيبه هارون القهوجي وثبته أرضًا بقوة غاشمة. العجيب أن الرجل لم يقاومه بل شرع في بكاء هستيري وعويل أذهلا الجميع.

* * *

٣٩

جلس يوسف أمام شريف وبدأ في الشرح:

– زي ما سيادتك عارف، إحنا من بلد اسمها بر الضيف. وسيبناها انا واختي مع عمتي من حاجة وعشرين سنة.

كان شريف مستندًا إلى مكتبه وهو واقف ثم دار حوله ليجلس على كرسيه قائلًا:

– عارف. عمتك عاشت في نفس العمارة مع أهل إيهاب جوز أختك وبعدين لما أبوه مات ربّته هي. أعتقد أمه ماتت وهي بتولده. عارف القصة كلها لأن عمتك دي هي السبب في إنك تتعين هنا. بس إنت عارف إننا مينفعش نتكلم في الموضوع ده.. دى وصية عمتك.

عض يوسف على شفتيه من الغيظ. لكنه استطرد قائلًا:

– انا طلع ليّا ورث في البلد يا د. شريف. من يومين جالي ابن عمي طه، إسمه زين، وعرض إنه يشتريه مني وهيدفع رقم كبير. دلوقتي المفروض إني أرد عليه النهارده بالليل وعمتي مش موجودة. هنعمل إيه؟

لجزء من الثانية لمح يوسف لمعة غريبة في عين شريف الذي شرد بعيداً. أمسك محموله وقام بمكالمة. لثوانٍ ظل ينصت ثم أنهى المكالمة.

– عمتك موبايلها مقفول. هو عرض يدفع كام؟

– تقريباً مليون وربع في نصيبي وزيهم لسلمى أختي.

– إيه؟!!! ده مبلغ خرافي.

للحظة شعر يوسف بالندم، لكنها كانت الطريقة الوحيدة ليتخلص من الموقف المحرج الذي وجده عليه شريف. عند سماع الرقم سوف يتأكد شريف أن الموضوع حقّا كبير. لكن النظرة التي أطلّت من عين شريف جعلته يفكر في أمر آخر.

– مهو ده اللي ثبّتني. إنت عارف لو ميت ألف أو حتي ربع مليون، كنت خلّصت معاه. إنما المبلغ ده حسسني إني لازم آخد رأي محترف حتى لو بفلوس.

– فعلًا.

قالها شريف وأخد يدق على مكتبه بأظافره وهو يحدق إلى يوسف. ثم كأنه قرر شيئًا، نهض من

على مكتبه وذهب للغرفة الصغيرة الملحقة بالغرفة قائلًا:

– إستنى. عايزك تشوف حاجة.

دق قلب يوسف وهو يلحق بشريف. إن سرًّا كبيرًا يخصه موجود في تلك الغرفة. وجد شريف يصعد على سلم لأعلى رفٍّ في مكْتَبِه تُغَطي الأربع حوائط للغرفة الصغيرة. دس الأخير يده بين الكتب المتربة وأخرج ملفًا من النوع الأسود العتيق المشهور في المصالح الحكومية.

– أهوه. لقيته.

نزل وأشار ليوسف بطرف إصبعه أن يترك هذا المكان المقدس. جلس الاثنان أمام مكتبه، ووضع شريف الملف على المنضدة الصغيرة.

– إيه ده؟ سأل يوسف وهو يعلم مسبقًا.

بفخر أجابه شريف:

– ده يا سيدي ملف الأرض بتاعتك.

رفع يوسف حاجبيه وهتف:

– إيه؟ قضية أرضي أنا؟ هي ليها قضية؟

ابتسم شريف وفتح الملف قائلًا:

– أيوه. أرضك. أرض القطّان. الملف ده فيه أغرب قضية سمعت عنها. غريبة لدرجة إني طلبت نسخة من الوزارة علشان أدرسها وتبقي مرجع لقضايا مشابهة بما إنها كانت الأولى من نوعها. لكنها الحقيقة طلعت الأخيرة. مفيش قضية جت بعديها مشابهة ولا حتى من بعيد للقضية بتاعة أرض القطّان. مافيش غير قضية واحدة بتاعة جنينة في مصر الجديدة.

– مالها الجنينة دى؟

– محظور الكلام فيها لغاية دلوقتى.

قطع كلام شريف محمول يوسف الذي أضاء معلنًا استقبال مكالمة. كان لا يزال على الوضع الصامت. نظر يوسف اليه فقرأ اسم ليلى.

– دي بقالها ساعتين بتحاول تكلمني.

– قولّها كنت في البانيو.

ابتسم يوسف معتذرًا.

– نكمّل والا إيه؟

هز يوسف رأسه موافقًا ووضع محموله على الطاولة الخشبية الصغيرة أمام مكتبه. انكفأ شريف على الملف من جديد وأخذ يقلب صفحاته.

سأله يوسف بلهفة:

– إيه الغريب في قضية الأرض بتاعتي؟ إيه هي القضية أصلًا؟ في حد من الورثة رفع قضية على حد تاني منهم؟

ابتسم شريف وقال بنبرة تستفز فضول يوسف:

– لاا.

احتقن وجه يوسف وكان على وشك أن يقول: (إيه الهيافه بتاعة حضرتك دي؟)

لكن يبدو أن ما يريد أن يقوله وصل لشريف فتنحنح واعتدل في جلسته متخذًا وضعًا أكثر جدّية.

– إحم. لأ. بصراحة عمتك كانت منعاني أتكلم معاك في الموضوع ده.

– سألتها أول ما إنت إتعينت عندي من عشر سنين لأني كنت سمعت عن القضية دي قبل كده.

لكن عمتك كانت مصممة تتمنع عنك التفاصيل دي.

– طب دلوقتي بقي أنا مش بتكلم مع حضرتك كموظف. أنا بتكلم كعميل. ممكن بقي تفتحلي الصندوق الأسود ده قبل ما الورث يروح عليا.

تردد شريف للحظة وداعب بأنامله الملف.

– أنا عارف نسبة المكتب كام على فكرة.

قالها يوسف بابتسامة مهزوزة. إنها مجازفة وهو يعلم ذلك فدكتور شريف لا تهزّه النقود. لكنه فوجئ عندما فتح الأخير الملف وقال:

– الحقيقة دي المرة الوحيدة في التاريخ إن الورثة يرفعوا دعوة لإدراج أرض والمباني اللي عليها تحت الحظر. تفاصيل الدعوة بتقول إنهم كانوا عايزين يحطوها تحت الحراسة الكاملة.

بذهول علق يوسف:

– إيه؟! وده ليه؟ إيه السبب في الجنان ده؟ علشان يخلوها مزار أو فندق أثري بعد كده مثلًا؟ وممكن تتباع أغلى؟

– إيه اللي بتقوله ده؟ دول كده حكموا علي ورثهم بالجمود إلى ما شاء اللّه. أينعم هم هدموا بيت جدك بس برضه محدّش هيشتري الأرض. لا يقدروا يبنوا عليها ولا يجرَّفوها ولا يشيلوا ورقة شجر واحدة منها.

قال شريف ثم التفت إلى الملف ليتصفح فيه حتى وصل لصفحة فقرأ ليوسف محتواها:

– (هذا ولم يُبدِ رافعو الدعوة السبب وراء تقديمها. بما أن هيئة المحكمة لا تملك تخصيص ميزانية لمثل هذه الحالة فإنها ترفض الدعوة لحين ظهور ضرورة).

– طيب ما هي طبيعي لازم تترفض.

فُتِح باب غرفة المكتب ودخل هارون، عامل البوفيه العجوز، ومعه قهوة شريف. التفت له يوسف متعجبًا.

– إيه ده، إنت جيت إمتى يا هارون؟

شريف:

– فيه إيه يا يوسف؟ ما انت عارف إن هارون بيبات هنا.

فتح يوسف عينيه عن آخرهم وتبادل مع هارون نظرة طويلة.

إذاً فقد كان هارون هنا طوال الوقت. أين؟ وماذا كان يفعل؟ ولماذا قال ما قال في التليفون؟

بهدوء استدار هارون مغادراً. عاد يوسف ينظر لشريف عندما قال وقد عادت الابتسامة المستفزة لوجهه:

– ما هي ماترفضتش.

– إزّاي يعني يا دكتور؟ مش قلت إن المحكمة ما وافقتش.

– في حد من الداخلية زَقّ الدعوة وساعدهم إنهم ياخدوا الحكم اللي عايزينه. ده كمان جاب تخصيص بسور شائك داير ما يدور الأرض.

سأل يوسف:

– مين اللي ساعدهم ده؟

– والد إيهاب. الرائد يسري الدماطي اللي بقى بعد كده العميد يسري الدماطي.

– حضرتك بتقول مين؟!!

– حما أختك يا باشمهندس. مش واضح بالظبط إزّاي العميد يسري أقنع هيئة المحكمة بس هو نجح إنه يعمل سور حوالين الأرض وتاني يوم الموضوع كله إتدفن. القضية والأرض والعميد يسري نفسه كأنهم لم يكونوا.

– يعني إيه كأنهم لم يكونوا؟ هو ده اللي بسببه اختفى والد إيهاب؟ هو إيه اللي حصل بالظبط في الأرض دي؟ إيه سبب القصة دي كلها؟

أغلق شريف الملف ورجع ليستند بظهره على المكتب ثم تنهد قائلًا:

– بقية القصة مش هتلاقيها في ملفات ولا كتب. وفيها حتة كده..

– حتة إيه؟

– حتة مخيفة شوية. خيالية آه، بس مخيفة. وغالبًا الحتة دي هي السبب في التعتيم اللي عمتك فرضته على ماضيكوا. في ليلة شهيرة سمّاها أهل الناحية (ليلة القطّان) حصل حاجة..

انتبه يوسف لرسالة أخرى وصلت لمحموله. لمح اسم سلمى فرفع أصبعه لشريف قائلًا:

– ثانية واحدة. أصل دي رسالة من أختي كمان. كده في قلق.

مد يده للمحمول وفتحه ليقرأ الرسالة. انتفض واقفًا وقال:

– إيه ده؟

سأله شريف بقلق: فيه إيه؟

رفع يوسف عينيه لمديره غير مصدق.

– ابن عمي اللي قلتلك عليه.

– ماله؟

– حاول يقتحم شقتي.

* * *

٤٠

كان إيهاب أول من وصل للبيت. وجد حشداً كبيراً من الجيران وزبائن القهوة المعتادين وبعض المارة. أوقف سيارته صفًّا ثانيًا، وترجّل مسرعًا متجهًا للتجمّع. اخترق الصفوف حتى وصل إلى دائرة صغيرة مكونة من أنور وعودة وخليل. وسطهم كان هارون القهوجي جاثيًا على ركبتيه، وبيده حبل غليظ يحكم ربطه حول رسغ زين. كان الأخير يرقد على وجهه مثخنًا بالجراح.

– إيه اللي حصل بالظبط؟ خليتوني أسيب اللي ورايا وقدامي علشان إيه؟

تطوّع خليل لإيضاح ما لا يلم به إيهاب:

– زين إبن عّم باشمهندس يوسف حاول يتدحلب ويدخل بيته النهارده الصبح. ولمّا معرفش حاول بعد الضهر يطفّش كالون الباب بس ليلى هانم سمعته ولمّت عليه الناس.

سمعوا مكابح سيارة تقف بعنف يليه باب يغلق بقوة. التفتوا ليشاهدوا يوسف ينزل من سيارة أجرة متجهًا مباشرةً إلى زين. أمسك بتلابيبه وصرخ بوجهه:

– كنت عايز تدخل بيتي تعمل إيه يا زين؟

أمسك إيهاب بكتف صديقه وقال:

– أنا تصورت إن فيه بينكم موضوع ورث. فهمني إيه اللي جدّ؟

– علشان مخلّصتش معاه البيعة. الحيوان!! حاول يتهجم على بيتي.

إيهاب:

– طب إطلع إنت إتطمّن على مراتك.

هب يوسف واقفًا وقال لإيهاب:

– خليكوا ماسكينه. اوعى توديّه القسم لغاية ما نعرف كان عايز إيه يا إيهاب.

ثم انطلق ناحية العمارة. فالتفت الجمع مجدداً لزين الملقى مقيداً على الرصيف أمامهم.

تجاهل زين نظرات الناس ونادى على ابن عمه:

– يوسف!! مش عايز تبعلي أرضك ليه يابن عمي؟ ده انا عرضت عليك خمس أضعاف تمنها. خمس أضعاف!!! الطمع عمره ما كان طبع أبوك!!

إيهاب لزين:

– مش عايز منك كلام غير الإعتراف. كنت عايز تعمل إيه عند يوسف؟

اغرورقت عينا زين بالدموع وهو يشاهد يوسف يصعد كالطلقة على سلم العمارة ويختفي عن نظره. تعجَّب من في الدائرة الصغيرة رؤية فلّاح صلب مثل زين ينهار بهذه السهولة. وتعجبوا أكثر لما قاله لتوه؛ كيف يهتم بالأرض الآن وهو يواجه خطر السجن؟ كيف يتصور أن يوسف سوف يتعامل معه الآن في أي شيء؟

نظروا لإيهاب فوجدوه ينظر لزين محاولًا استشفاف ما يخفيه.

سأله أنور بتهكّم:

– مش كانت الدورية تنفع دلوقتي يا إيهاب باشا؟ انا بقالي يومين صوتي إتنبح علشانها.

رماه إيهاب بنظرة صارمة قائلًا:

– أنا مش وزير الداخلية علشان أحرك الدورية علي مزاجي. وأنا أصلًا مش هوديّه علي القسم..

انتظر الجمع أن يكمل إيهاب كلامه لكنه التفت لعوده البواب قائلًا:

– في حاجة مريبة بتحصل. نزّلوه الجراچ أحسن.

– إيه؟ الجراچ؟ جنب عربياتنا؟ بس ده مِم..

قال أنور معترضًا لكنه انكمش عندما التقت عيناه بعيني إيهاب الصارمتين.

تدخل أستاذ خليل قائلًا:

– معلش يا إيهاب يا بني، بس إيه الفكرة إننا نخلي مجرم هجّام في الجراچ بتاعنا؟ مش خطر شوية؟

صاح إيهاب:

– لو سمحتوا محدش يتكلّم في اللي ملوش فيه.

ثم انطلق داخل العمارة تاركًا خليل والجمع في صدمة من رد فعله المبالغ فيه. توقف إيهاب عند باب العمارة والتفت لينادي على البواب. ترك عودة اثنان من المارة يساعدان هارون في إيقاف زين على قدمه وذهب لإيهاب.

– أؤمر يا باشا.

– عايزك تصحصح معايا الليلة دي يا عودة. في حاجة مش مظبوطة بتحصل.

قطب عودة حاجبيه ودق بنبّوته الضخم أرض الرصيف قائلًا:

– عيب يا باشا.

* * *

٤١

دخل يوسف شقته مسرعًا ووضع مفتاحه على الطاولة الصغيرة بين باب الشقة والمطبخ. على يساره جلست ليلى في منامتها الخضراء أمام التلفاز وأمامها وعاء ممتلئ بالفشار.

تعجّب من هذا المشهد فقد توقع رؤيتها منهارة لكنه سعد برؤية زوجته بخير.

– فشار؟ ابتدينا السهرة بدري شوية والا إيه؟

سألها مازحًا. خرج حسن من غرفته وارتمى في أحضان أبيه صائحًا بسعادة طفولية:

– بابا!

التقطه يوسف ورفعه عاليًا:

– سوكة حبيب بابا. عملت إيه النهارده؟ الإجازة حلوة؟

– جدًا يا بابا. بعمل رسومات جديدة.

– يا عيني يا عيني. طب إنت خفت من اللي حصل النهاردة؟

– إيه اللي حصل؟ سأل حسن ببراءة.

– غريبة جدًّا. إنت محسّش بحاجة خالص؟

قالها يوسف والتفت وهو يحمل حسن عاليًا ناحية زوجته التي لم تُبْد اهتمامًا بوصوله بعد.

– طيب طمنيني عليكي طيب. إنت كويسة؟

– آه.

اقترب منها ووضع يده على كتفها قائلًا:

– ليلى! الموضوع مش هيّن. ليه مستهيفاه كده؟ في حد حاول يتهجم عليكي في الشقة. ممكن تقوليلي إيه اللي حصل؟

تمنى أن تنظر إليه، ومنّى نفسه برؤية عينيها الواسعتين وغمازتيها تحيطان ابتسامتها التي تضيء وجهها قلبيّ الشكل. لكنها، ودون أن تلتفت له، حركت كتفها كي تزيح يده من عليها، وقالت ببرود:

– ما هو ده إبن عمك اللي بقالك كام يوم معاه. طبعًا ما هو عارف إنك مش موجود في بيتك حتى في أجازتك.

انتفخت أوداج يوسف وكان على وشك الانفجار، لكن حسن لفت انتباهه قائلًا:

– عايز تشوف اللي رسمته؟

التفت له يوسف وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يرد عليه قائلًا:

– هشوف ماما أخبارها إيه وأجيلك.

– لأ روحله أهم من أخباري.

كان هذا تعليقًا أكثر برودًا من ليلى التي لا تزال منهمكة في أكل الفيشار ومتابعة الحلقة المائة بعد العشرة آلاف من المسلسل التركي.

احتقن وجه يوسف لكنه كظم غيظه فهو لا يعرف كيف يتصرف إزاء سلوك ليلى العجيب. التقط يد حسن واتجها معًا لغرفة الأخير.

– وريني رسمت إيه؟

سبقه حسن للغرفة بينما دلف المطبخ دون أن يلاحظه ابنه ليخبئ السيجارة أعلى وحدة الأطباق كعادته. خرج من المطبخ وذهب إلى غرفة حسن ليجده يبحث في أشيائه، لكنه توقف قبل أن يدخل الغرفة.

– ليلى تعالي كده.

على مضض قامت ليلى وذهبت إليه لتجده راكعًا أمام باب غرفة حسن.

– الخربشة السوده عمّاله بتزيد.

قالها ثم التفت إليها وقد بدا الغضب على ملامحه.

– هو الست الكركوبة دي اللي إنتي جبتيها مش المفروض إنها تقلل القذارة مش تزوّدها؟

توقفت في منتصف الممر أمام غرفتهم وعقدت ساعديها أمام صدرها قائلة:

– السواد ده مبيطلعش. وبصراحة مش فارقة معايا يطلع والّا ما يطلعش. ثم مش إنت كمان ساكن في البيت معايا والّا إيه؟ والّا الشغل التاني سَيّطْر عليك خلاص؟ ده أنت حتى مردتش عليا لمّا كنت في مشكلة. جيت بعد الهنا بسنة.

هب يوسف واقفًا وخرج من الغرفة صائحًا:

– جري إيه يا ليلى؟ ما تلمّي الدور العجيب ده. حصلّك إيه؟ ما هو أنا جيت وخلاص. مكنتش هدية من ست أد جدة جدتي.

جاء ردها بصوت أعلى من صوت زوجها:

– هي كمان كركوبة زي اعتماد؟! عمومًا الشغّالة اللي مش عاجباك دي كانت السبب إني آخد بالي من حاجات مكنتش شايفاها.

على نفس الوتيرة أكمل يوسف:

– متقوليش إنك خلاص خرّفتي وبقيتي تصدقي قراية الفنجان؟

صرخت ليلي:

– خرّفت؟!! آه خرّفت يا سي يوسف. لو مش عاجبك جناني ده سيبني وروحلها!!!

صرخ يوسف بدوره:

– ده جنان فعلًا. إنتي لو كنتي شوفتيها كانت عاملة إزّاي النهارده كنت طلعتي تجري منها!!

بأعلى صوتها صرخت ليلى:

– هي كمان جتلك المكتب في يوم أجازتك؟ وطبعًا كانت الدنيا فاضية ومحدش في المكت..

وضع يوسف إصبعه على شفتيه وقال بنبرة هامسة لكن حازمة:

– بس.. بس.. إيه اللي إحنا بنعمله ده؟ وطّي صوتك. حسن..

التفت للغرفة فوجد حسن على الأرض منهمكًا في الرسم وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

– معلش يا حسن. بابا وماما مكنش قصدهم يزعقوا. كنّا بنضحك.

رد حسن باستغراب:

– زعيق إيه يا بابا؟

تقدم يوسف داخل الغرفة وسأل ابنه:

– هو انت مسمعتناش يا سوكة وإحنا بنتكلم برّه؟

– لا يا بابا. بُص بأه دي رسمة لنهر النيل. ودي..

دلفت ليلى الغرفة ووقفت بجانب زوجها وهمست:

– هو إحنا صوتنا مش كان عالي والّا إيه؟ إزاي مسمعناش؟

جثوا معًا بجوار ابنهما:

– سوكة يا حبيبي. إنت مسمعتش حاجة من اللي كنّا بنتكلم فيها أنا وبابا؟

ببراءة شديدة ضحك حسن وسألها:

– حاجة إيه يا ماما؟

– طيب يا حبيبي. خلي بابا يشوف رسوماتك. إنت عارف إن بابا مهندس وفنان.

ضحك يوسف وقال:

– يا ستّي من بعض ما عندكم. تشجيعك إنتي اللي فرق معاه جداً. أنا بشوفه عُشر الوقت اللي بيبقي معاكي. هي بس جيناتي الإبداعية هي اللي عملته كده.

ضحكت ليلى ووقفت بحيوية وقالت:

– معلش يا حبيبي. ما إنت معذور برضه. هروح أسخّنلك الأكل. تصدق الأكل إمبارح إتنسف. مع إني متأكده إن كان فاضل أكل كتير. بس فيه حلة بامية فاضلة.

– ده أنا إتجننت فعلًا لما لقيت التلاجة فاضية الصبح. إفتكرتك وزّعتيه. عمومًا هنزل أشوف إيه قصة زين وأجيلك.

* * *

٤٢

استند إيهاب إلى درابزين السلم أمام شقته وبيده ورقة عليها رقم واسم. طلب الرقم المنقوش بها ووضع المحمول على أذنه:

– آلو. ثروت بيه؟

صوت رزين جاءه من الطرف الآخر:

– أيوه. مين معايا؟

تعمّد إيهاب أن يذكر اسمه كاملًا:

– مقدم إيهاب يسري الدماطي معاك.

صمت ثروت لجزء من الثانية لم تَفُت على إيهاب ثم أجابه:

– أهلًا سيادتك. تحت أمرك.

إيهاب:

– في حد قالك إني هكلمك؟

مرة أخرى تلك الوقفة التي لا تكاد تُلاحظ قبل أن يجيب ثروت باقتضاب:

– لأ.

إيهاب:

– طيب. أنا عندي كام سؤال أرجو أن سيادتك تساعدنا على إجابتهم.

– أساعدكوا؟ إنتوا مين بالظبط؟ وأسئلة سيادتك دي بصفة رسمية والّا ودّية؟

– ودّية طبعًا. ومش هاخد كتير من وقتك. هي بخصوص قرية تبع المركز بتاع سيادتك جتلنا منها مشكلة.

– قرية عندي أنا جبتلك مشكلة؟ إزّاي دي؟ مسكتوا حد منها عامل حاجة؟

– إحنا مسكنا تلاته في ميكروباص كان طالع من عندها.

– معاك. إتفضل كمّل. إيه المشكلة بالظبط؟

– عايزين نعرف هل في حاجة حصلت في البلد دي الشهر اللي فات؟ هل فيه حد مشي أو إختفى منها؟ هل فيه أي بلاغات ليها علاقة بيها؟ والسؤال الأخير، هل فيه مشكلة معينة في القرية دي بالذات؟

كانت لحظة الصمت هذه المرة طويلة حتى إن إيهاب سأل:

– ثروت بيه؟ إنت معايا؟

جاء صوت ثروت محشرجًا بعض الشيء:

– أيوه معاك. ممكن أعرف الغرض الحقيقي من الأسئلة دي؟

خلي بال سيادتك إن المنطقة اللي أنا ماسكها دي منطقة فلاحين مش عادية. ليهم عوايد وتقاليد أعجب من العجب مش موجودة في القطر كله والفضول مرفوض عندهم. يعني اللي بيسأل في اللي مالوش فيه مبيلاقيش قبول.

إيهاب باستنكار:

– سيادتك أنا مش عايز لا أضيع وقتي ولا وقتك وأكيد مش بسأل علشان أتسلّي. إحنا عندنا مشكلة كبيرة وجايّه من عندكوا. فلَو سمحت جاوب باللي تعرفه.

– لأ.

رفع إيهاب حاجبيه غير مصدق وصاح غاضبًا:

– هو إيه اللي لأ يا سيادة الرائد؟ تحب آجيبلك أمر من المديرية؟

ثروت ببرود:

– لأ دي إجابتي على أسئلة سيادتك. وبعدين إتفضل سيادتك هات أمر من المديرية. ومش عايز أقولك إبقى قابلني علشان ميصحّش. محدّش في الوزارة كلها عايز يسمع عن البلد دي والكل عايز ينساها. أنا بس اللي شايل الهمّ ده. ثم فيه حاجة أخيرة قبل ما أضطر أنهي المكالمة علشان فيه مأمورية طالعها، سيادتك اللي ابتديت بعدم الصراحة. مقولتيش غرضك الحقيقي من أسئلتك دي.

انتفضت عروق إيهاب من الغضب وهتف:

– لأ بقى إنت اللي مش صريح معايا و فيه حاجة مش عايز تقولها. عارف ليه؟ لإنك مسألتنيش أصلًا أنهي قرية بتكلم عنها. كده أنا حاسس إما فيه حد قالك إني هكلمك يا إما فيه صلة بين البلد دي باللي بيحصل عندنا. وإنت عارفها.

صمتٌ طويل انتهى بقول ثروت بنفس الصوت البارد الرزين:

– فيه حاجة ممكن أقولهالك. سؤال واحد بس من الأسئلة بتاعتك ممكن أجاوبك عليه. فيه بالفعل بلاغ جالنا ليه علاقة بميكروباص مسروق وغالبًا هو اللي بتتكلم عنه. هحوّلّك المحضر وأبعتلك الولد اللي عمل البلاغ. إسمه شبانة وكان في الميكروباص اللي جالك. ده علشان ترتاح بس رغم إني أشك إنك ممكن تصدق اللي هيقولهولك. غير كده رجاء.. أيًا كان العجب اللي هتسمعه إنهي الموضوع عندك وما تربطش اللي إتقطع من زمان. مع السلامة سيادتك.

تيت.. تيت.

نظر إيهاب في محموله غير مصدق. حاول الاتّصال مجدداً، لكن ثروت لم يرد. عض على شفتيه قائلًا:

– يا ابن الذين.

– هو مين ده؟

جفل إيهاب والتفت ليجد يوسف أمامه.

– إنت.

قالها إيهاب بغضب.

ضحك يوسف وقال:

– إيه؟ خضّيتك؟

– عايز إيه يا سخيف؟

قالها إيهاب مبتسمًا.

اكتسب يوسف الجدية مرة اخري وهو يقول:

– يالّا ننزل للحيوان اللي تحت.

– بلاش تنزل لزين النهاردة. خلّيه يستوي في الجراچ لوحده في الضلمة لغاية الصبح. والّا إنت عايز تحبسه؟

– أنا عايز أعرف كان عايز إيه.

– خلاص سيبهولي.

صمت يوسف واستند إلى الدرابزين محدقًا إلى السلم المظلم.

– مالك؟

سأله إيهاب.

– مش عارف. حاسس إن زين مش لوحده.

– إيه اللي خلاك تقول كده؟

التفت يوسف ينظر في عين إيهاب.

– تصدق إني شفت النور اللي قال عليه أنور. النور اللي بينوّر ويطفئ في البر التاني من النيل مع الأنوار بتعاعتنا؟

– بجد؟!!

سأل إيهاب بدهشة حقيقية.

وصف يوسف المشهد الذي رآه بعد العيد ميلاد.

قطب إيهاب حاجبيه وقال:

– إزّاي يعني؟ في معاه شريك مستخّبي الناحية التانية وهو اللي بيديله الإشارات دي؟

– ممكن. مش عارف. الخلاصة أنا حاسس إنه مجاش لوحده من بر الضيف و ده مخلّيني عندي إحساس رهيب بعدم الأمان.

– صحيح كنت عايز أسألك عن بر الضيف. ممكن؟

صمت يوسف للحظة ثم استطرد:

– ممكن رغم إني لازم أطلع لليلى بسرعة.

– ليه؟ فيه حاجة؟

تنهد يوسف قبل أن يجيب:

– حاسس إني مقصّر معاها واللي حصل ده حصل في توقيت مفيش أسخف من كده.

بُهت إيهاب من الجملة الأخيرة وحدق في صديقه طويلًا حتى التفت له يوسف متسائلا.

– إيه؟ فيه إيه؟

– إنت بتتكلم عن نفسك؟

– أومّال على خالتي؟ مالك إنت كمان؟

– أصل أنا كمان الشغل واخدني من سلمى على الآخر. عندي نفس شعور التقصير ده.

– إنت عمرك ما قصّرت مع سلمى. ده إنت نموذج يابني للزوج المخلص.

– مخلص آه. بس بعيد. وبالذات اليومين دول.

– إشمعنى اليومين دول؟

تنهد إيهاب وقال:

– فاكر موضوع الراديو اللي بصّيت عليه؟ مواضيع كتير داخله في بعضيها من أول بر الضيف للقاهرة.

– آه صحيح. إحكيلي.

لوهلة تردد إيهاب وتذكر علاقة يوسف وسلمى المباشرة بموضوع الميكروباص.

– لسه مافيش صورة كاملة أدّامي. بس إنت فكرتني بمراتي أنا كمان. أنا من الصبح في الشغل ولسّه مدخلتش البيت.

– لسّه مدخلتش؟ طب إدخل بسرعة. أنا هطلع أنا كمان. زمان ليلي خلّصت تحضير الغدا. اللي هو بقي عشا خلاص.

استدار يوسف ليصعد السلم وذهب إيهاب لباب شقته.

– إيهاب.

توقف إيهاب عند الباب ونظر ليوسف الذي استطرد:

– إنت مخبّي عليّا حاجة؟

– هقولك يا يوسف. بس في وقته.

تبادلا الابتسام، واستدار لكن كان هذا دور إيهاب ليلتفت ويسأل:

– صحيح إنت سألت شريف علي بلدكم؟

– أيوه.

– وقالك إيه؟

– هقولك يا إيهاب. بس في وقته.

كان رد يوسف من الطابق الأعلى.

***

دخل يوسف المطبخ على ليلى فوجدها مشغولة بمحمولها.

– طب قوليلي إنتي إيه حكاية زين بقي يا ستي؟

ببرود شديد ردت ليلى دون أن ترفع عينيها عن شاشة المحمول:

– معرفش. إسأله.

ظل يوسف يرمقها لوهلة، ثم لمح حلة البامية الموضوعة على البوتاجاز. بنظرة بسيطة تيَقَّن أنها ما زالت مجمَّدة.

– مش كنتي هتسخّنيها؟

ألقت بنظرة خاطفة تجاهه وقالت بمنتهى السخافة:

– الكبريت عندك أهوه.

ثم قامت لتخرج من المطبخ وعبرت بجانب يوسف المصعوق. أمسك بذراعها قائلًا:

– ليلى. إنتي مستوعبة اللي بيحصل؟ إيه التغيير اللي بيحصلك ده؟ إيه اللي ممكن يكون حصل في الربع ساعة اللي وقفتهم مع إيهاب؟

– واللّه بقي أنا تعبانة. ما هو أنا برضه بشتغل في البيت. روح اقعد مع ابنك شوية.

بدأ الغضب يداعب مشاعره:

– فعلًا واللّه المسلسلات والفيشار متعبين جدًّا. بقولك إيه، أنا..

صمت بعد أن شعر أن الحوار قد فقد معناه، فسحبت ذراعها وخرجت. وقف لحظات يستحضر هدوءه. هز رأسه غير مصدق واتجه لغرفة حسن. ابتسم لابنه الذي كان منهمكًا في لوحته.

- حلوة يا بابا؟

سأله حسن في براءة.

- تحفة يا حبيبي.

- ماما تعالي بصّي رسمت إيه.

جاءت ليلي ووقفت عند باب الغرفة فأشار لها حسن بالدخول. ترددت ليلى بين الدخول وتفادي الجلوس مع يوسف، لكنها حسمت رأيها عندما سأل زوجها وهو يشير للمرأة التي تظهر في لوحته:

- دي ماما دي يا سوكة؟

أجاب حسن قائلًا:

- آه. حلوة؟

- إيه ده، بجد؟ حلوة فعلا. تعالي بصّي يا لول.

قالها يوسف لزوجته التي دخلت لتجلس بجانبهما.

– اللّه يا سوكة. دي جيناتك جامدة يا يوسف فعلًا.

ثم تأملت في الرسمة التي هي عبارة عن بيت صغير من دورين على النيل وحوله رقعة زراعية كبيرة. في نافذة الدور الأول وقفت امرأة بتسريحة شعر مشابهة لليلى.

هم يوسف بالخروج لكنه التفت ليلقي نظرة على ليلى فوجدها تبتسم له بعذوبة وقد أشرق وجهها بالابتسامة التي تذيب قلبه.

وقف يوسف عند باب الغرفة وأخذ يراقب زوجته.

إيه اللي بيحصل؟

مش تغيير المود سريع حبتين؟

تردد إيهاب خارج باب شقته يفكر. لا فائدة من تضييع الوقت فهو سوف يدخل بيته حتمًا. وكلما كان أسرع كلما كانت المشكلة التي في انتظاره أصغر. فتح الباب ودلف الشقة المظلمة لكنه تسمّر على أعتابها. تناهى إلى مسامعه صوت شخص ما يتكلم.

– سلمى، إنتي هنا؟

نظر إلى مصدر الضوء الوحيد بالشقة؛ الغرفة الصغيرة بآخر الممر. اتجه إليها وأضاء الممر في طريقه. فضّل أن ينظر داخل الغرفة قبل ان يفتح بابها على مصراعيه. تكفيه هذه الفتحة الصغيرة. تعجّب مما رآه كثيرًا.

فبداخل الغرفة جلست سلمى على كرسي الأطفال القديم الذي كان يخص حسن. حولها كانت الغرفة صورة من غرفة حسن القديمة. انتشرت قطع أثاثها كما كانت في غرفة ابن أخيها، والتي توجد فوق تلك الغرفة بالضبط. راقب إيهاب زوجته والتي جلست على الكرسي الصغير امام الطاولة الصغيرة التي تتوسط الغرفة. لسبب ما يبدو أن سلمى لم تكمل ارتداء ملابسها فما يقيها شر البرد هو بنطال أسود بسيط وقميص أبيض خفيف. حافية قدميها على الأرضية الخشبية وثمة جاكت رمادي ملقى على الأرض.

ثم رآها تقوم بحركة بيديها وفمها كأنها تحاور شخصًا ما. هنا قرر الدخول.

– سلمى!

كما لو كانت استيقظت من حلم ما، التفتت سلمى لزوجها بحركة آلية بطيئة.

– هه؟

ضمها له وقبّل رأسها متخللًا شعرها البني الطويل بأنامله وقال:

– أنا أسف يا حبيبتي. لو تعرفي المشاكل اللي طِلعتلي اليومين اللي فاتوا دول. معلش، مش قصدي أتجاهلك.

لم ترد وظلت مستسلمة بين ذراعيه.

– بس إيه اللي إنتي عملتيه ده؟ إنتوا هتخلّوا الأوضة دي المعرض والا إيه؟ فرشتي كل ده لوحدك إزاي أصلًا؟

– مكنتش لوحدي.

قالتها بعد أن أبعدت رأسها عن صدره كي تنظر إليه وعيناها البنيتان حمراوان من البكاء.

– مين ساعدك؟

– اعتماد.

– كويس. كانت مسلياكي؟

وقفت وقد دبت الحياة فيها فجأة، وقالت:

– دي بنت لذين يا هوبة. لهلوبة ومتمكنة وبتنضّف كويس وكمان..هاها.. بتقرا الفنجان.

قطب حاجبيه متعجبًا من التغيير العجيب ثم أمسك يدها وقادها خارج الغرفة وهو يقول:

– فنجان؟ ياه. بس خلي بالك مفيش حاجة تتسرق من الاوضة دي، دي مش بتاعتنا.

قبل أن يضغط زر النور فاجأته بردها قائلة:

– لأ بقت بتاعتنا. ما هو انا إشترتها.

التفت اليها بمزيج من الدهشة والألم والحنان، وقال:

– إشتريتها، بجد؟

بحماسة شديدة سحبت يدها من يده وقالت وهي ترقص في أنحاء الغرفة:

– آه وكمان هاخد من ليلي كتب حسن علشان لما نخلّف يلاقي كل حاجة جاهزة. بص بأه هنا هنجيب ترابيزة تانية علشان لو طلع بيحب الرسم زي حسن. وهنا هنحط..

لم يقل إيهاب شيئًا. فقط ظل ينظر إليها وهي تتحدث بهذه الحماسة التي لم يرها عليها منذ الأشهر الأولى في زواجهما. بدأ صوتها يتلاشى تدريجيًا من مسامعه وهو يضع ابتسامة تخفي بكاء جبل.

* * *

٤٣

استغرق الأمر ما يزيد عن الساعات السبع كي ينفضّ المولد من أمام العمارة وتنتهي فقرة القبض على زين. في جراچ العمارة رقد الأخير، في جانب مضاء بمصباح ضعيف وساعداه مربوطان في ماسورة غليظة. جلبابه الأدكن أصبح رماديّا من السحل على الرصيف وكوفيته ملقاة بجواره. أمامه وقف أولاد وبنات تتراوح أعمارهم بين الثالثة والخامسة يراقبونه كأنه نمرة في سيرك.

رفع رأسه لينظر بعين مُجْهَدة لولد صغير وابتسم قائلًا له:

– اسمك إيه يا وله؟

أمسك أخوه الأكبر بيده وقال:

– ماتقولوش على اسمك يا محمد. ده حرامي.

ضحك زين وعلّق من بين أسنان دامية:

– اسمع كلام اخوك يا محمد. إياك تقولي على اسمك.

شهقت فتاة عندما فهمت الخطأ الذي وقعوا فيه وهمست بشيء لهم. تجمع الأطفال كي يتشاوروا في أمر هذا الحرامي خفيف الظل. ثم التفتوا إليه كأن شيئًا لم يحدث، وعكفوا على متابعته بفضول. زادت ابتسامة زين وكان سيقول شيئًا لكن صوتًا ما لفت انتباهه، صوتًا كأنه شخص في ملابس فضفاضة يمشي في الركن المظلم في الجهة المقابلة في الجراچ. أنصت بتركيز لبضع ثوان حاول خلالها اختراق هذا الظلام الدامس ثم التفت للأطفال قائلًا بجدّية:

– محمد، تعال.

تردد الطفل وأمسك أخوه بيده مرة أخرى:

– متروحلوش يا محمد.

هز محمد رأسه بالنفي لزين.

ألقى زين نظرة خاطفة على الظلام الذي بدا له أنه يزحف تجاههم. صوت حفيف الملابس يقترب معه. حاول زين أن يخفي توتره وهو يقول:

– إنت عارف، أنا كان عندي ولد سنُّه من سنك.. إنما..

اغرورقت عيناه بالدموع واختنق صوته وهو يكمل:

– عايز تعرف ليه كنت عايز أدخل بيت المهندس يوسف؟

لم يرد عليه الطفل فاستطرد قائلًا:

– تعال أنا هقولك ليه.

شيء ما في وجه زين وصوته وتعبيره جعل الأطفال يصدقونه فبدؤوا يتحركون باتجاهه.

– تعال يا محمد.

اقترب الطفل من زين. نظر الأخير إلى الظلام الذي بدأ يبتلع نور المصباح الضعيف. لأقل من عشر ثوانٍ ظل زين يهمس في أذنه وعيناه على الظلام القادم يخفي داخله مصدر الحركة.

– لكلام ده لازم تقوله للأستاذ يوسف أو الظابط إيهاب. يالّا إمشي إنت وهو، يالّا.

حدّق الأطفال في وجه زين وقد فاجأهم تغير نبرته. صوت خطوات تأتي إليهم من خلف ستارة الظلام التي تقترب منهم بتؤدّة من كل اتجاه. ليس هناك إلا مسافة صغيرة بينهم وبين الظلام القادم يستطيعون استغلالها لو أرادوا التحرك بسرعة

خارج الجراج. أطلّت من زين نظرة خوف إلى مصدر الصوت الذي كاد أن يظهر للعيان ثم رفع نبرة صوته صائحًا:

– يالا يا واد منك له. روح على أبوك.

استدار ثلاثة من الأطفال وغادروا المكان مسرعين. تبَقّى محمد وأخوه وطفل آخر لم يلاحظه زين من قبل.

– ألعب معاكوا.

خرجت هذه الجملة من الطفل الذي ظهر من العدم خلف محمد وأخيه. كانت مخارج ألفاظ الطفل غير سليمة، وصوته كان (أخنف) كما لو كان يعاني البرد. كان الظلام ملاصقًا للطفل الثالث كأنه جزء منه. بدأ في الانحسار كاشفًا عنه وبدأت ملامح الطفل تظهر.

– ابعدوا عنه يا ولاد.

هتف زين للولدين اللذين بدا أنهما لا يدركان عما يتكلم فاستدارا ليريا طفل أشبه بقزم ضخم الرأس عريض الفم بطريقة مخيفة. ملامح وجهه كلها لا تتوسط رأسه، بل تنحرف لليسار كأن الجاذبية

تجذبه في هذا الاتجاه. تراجع عنه الولدان وقد بدأ محمد بالبكاء وسأل الآخر:

– إنت مين؟

بنبرة صوته (الخنفاء) أجاب القزم وهو يقترب من الطفلين:

– ألعب معاكوا.

– إمشي يا إبن الكلب إنت وهو من هنا.

رجّت هذه الصيحة الصادرة من زين أنحاء الجراج فانتفض الطفلان وهرعا خارج المكان، وقد انضم الكبير لمحمد في البكاء. راقبهم زين حتى اختفيا أعلى المنزلق الصاعد للشارع ثم التفت للقزم. وجده على بُعد أمتار قليلة منه وعيناه اللتان لا تتوسطان وجهه المبتسم كما يجب، محدقتان إليه. اهتز القزم كبندول الساعة وهو يخطو ناحيته بساقيه المقوستين. خطا خطوة ووقف.

– إنت عايز إيه؟

سأله زين وهو لا يكاد يقوى أن يرفع رأسه.

تحرك القزم خطوة أخري وزاد من ابتسامته حتى كادت شفتاه أن تصلا إلى أذنه اليسرى.

– إلعب معايا.

لم يتمالك زين نفسه فانفجر باكيًا. بصوت مخنوق خاطب المخلوق:

– عمري ما هصدق خدعك. أنا عارف إنت إيه. عارف إنتوا إيه.

ثم صرخ فيه:

– حرام عليكو اللي عملتوه في ناصر!!! حرام عليكو اللي عملتوه في رقية أخته.

خطا القزم خطوة أخرى حتى أصبح على مسافة مترين من زين. ثم خطوة أخرى.

– إلعب معايا.

– مش هلعب معاك!! أنا عايز عيالي.

لانت ملامح زين وقال وسط دموعه:

– رجّعلي ناصر ورقية زي ما كانوا ونلعب معاك إحنا التلاتة.

ثم انخرط في بكاء هستيري. ثوانٍ مرت عليه وهو يبكي حتى قاطعه القزم قائلًا بنبرة أكثر غلظة

وصوت أجش لا يخرج إلا من حنجرة رجل بالغ:

– إلعب معايا.

رفع زين رأسه واستطاع بصعوبة أن يميز القزم من بين دموعه المنهمرة، وقد صار على بُعد أقل من خطوة منه. يا لرائحتك العفنة! صوت حشرجة نفسه أقرب لنقيق ضفدع، ضعيفة ومؤرقة. ابتسامته ما زالت على شفتيه العريضتين اللتين تنحرفان عن منتصف رأسه المنبعج.

– إنت عايز إيه؟

قالها زين بصوت يائس وروح منهزمة.

– مش خلاص أخذتوا إبني مني. مش خلاص أخذتوا عيلتي كلها مني. قولتلكم إني أنا اللي غلطان ومستعد أتحمل نتيجة غلطي. عيلتي ملهاش ذنب.

رفع القزم يده فرأى زينًا بكفه حجر.

– العب معايا.

فتح زين عينيه عن آخرهما، ودبت فيه فجأة غريزة البقاء، فحاول أن يتحرر من رباطه فلم يستطع. خبطة قاسية دقت على رأسه فصرخ متألمًا، ورأى

الحجر يتدحرج مبتعداً عنه. ضحك القزم وجري ناحية الحجر بساقيه المقوستين والتقطه. التفت لزين واقترب منه مجدداً ثم رفع يده بالحجر عندما صار على نفس المسافة. بحركة تلقائية حاول زين أن يقي وجهه ورأسه شر ما ينويه القزم.

– إلعب معايا زي ما كنت بتلعب مع ناثر ابنك.

– مش عايز ألع..آي ي ي ي.

تدحرج الحجر مرة أخرى، لكنه هذه المرة ترك خطّاً من الدماء خلفه.

ذهب القزم مرة أخرى ليلتقط الحجر بمشيته البندولية، وعاد به مرة أخرى لنفس المكان. بدأت عينا زين تمتلئان بدموع مختلفة عن سابقها، دموع ألم وقلة حيلة.

– طيب هلعب.

قالها بنَفَس مقطوع، ورفع رأسه ليلتقّى الحجر في فمه مباشرة. صوت تكسير الأسنان وهول الصدمة كان فوق احتمال الفلاح العتيد. حاول الصراخ بأعلى صوته، لكن امتلاء فمه بالدماء الممزوجة بالأسنان منعه من إصدار صوت أعلى من غرغرة غريق.

حاول زين أن يُحرِّر نفسه لكنه لم يستطع وهو بكامل قواه، فما بالك به وقد استنفدت في الألم والرعب.

وسط البكاء والدموع والدماء رأى القزم يقترب منه مرة أخرى ومعه الحجر الدامي. وقف أمامه ورفع الحجر قائلًا:

– العب معايا.

وكم تمنّى زين أن تكون هي القاضية.

* * *

٤٤

يستند يوسف إلى الحوض وهو سارح في المياه التي تنهمر من الصنبور وفرشاة الأسنان بيمينه. نجحت سرينة الإسعاف التي بدا له انها توقفت قريبًا من العمارة أن تخرجه من هذه الحالة. طرقات على باب الحمام تنبهه فيهتف:

– حاضر ثواني.

جاءه صوت ليلى من وراء الباب:

– حسن صحي. ابقى فَطَّره قبل ما تنزل.

لوى يوسف شفتيه وقطب حاجبيه متعجبًا:

– يعني إيه؟ أنا اللي هعمل ده كله؟ وإنتي فين؟

لم يأته رد فأغلق عينيه وأخذ نفسًا عميقًا محاولًا الحفاظ على هدوء أعصابه. أغلق الصنبور وخرج من الحمام ليسمع صوت محموله يدق. ذهب مسرعًا لغرفة نومه ونزع المحمول من الشاحن ورد قائلًا:

– أيوه. مين معايا؟

ليلى تحت الغطاء تتذمر قائلة:

– مش في حد نايم هنا؟

– صباح النور. ثواني.

كان هذا رد يوسف لمحدثه قبل أن يخرج من الغرفة ويغلق بابها.

– واللّه يا سميّة هانم أنا مش مرتاح للمكالمة دي الصراحة.

– ..

– أولًا الساعة سبعة الصبح. ثانيًا حضرتك عملتيلي مشاكل بالفعل. ثالثًا حضرتك مش فاكرة آخر مرة جيتي المكتب كنتي عاملة إزّاي؟

– ..

– إرتفاع السكر يعمل كده برضه؟ لو سمحتى يا فندم لو إتصلتى تانى هبلغ البوليس!!

أنهى المكالمة بعنف واتجه لغرفته. فتح الباب بحذر لكنه ارتطم بليلى التي تقف خلفه.

– مش قلتلي الست دي مش طبيعية ومش هتتعامل معاها تاني؟

تنبه لها يوسف وقال بغضب:

– بقولك إيه يا ليلى. مش طالبه هبل على الصبح. خشّي نامي.

بادلته غضبه بنظرة نارية وأغلقت باب الغرفة بعنف. زفر يوسف بغضب وفتح الباب صائحًا:

– لا إستني هلبس و أنزل. بعد كده إعملي اللي إنتي عايزاه.

في غمرة ثورته، لم يلاحظ يوسف هذا الظل المنكب أمام غرفة حسن.

***

في جراج العمارة وقف يوسف مذهولًا. وسط البوابين وبعض الجيران ينظر لسيارة الإسعاف المتوقفة أسفل المنزلق. اقترب من طاقم المسعفين المحيطين بجسد مغطى ببطانية غارقة في الدماء. كانوا يتناقشون بصوت خافت فيما بينهم. أمام الجثة وقف إيهاب يراقب الحوار دون تدخل وخلفه يقف عوده في وَجل. يقف المتفرجون على بعد مناسب من الجثة ويظهرون شجاعة غير حقيقية.

– الكلام ده بجد يا إيهاب؟ دي جثة زين؟

التفت إيهاب:

– خلّيك عندك يا يوسف. أيوه بجد.

وقف يوسف مكانه غير مصدق وعقله تعصف به الأفكار بعد أن عرف هوية القتيل. مين؟ إزّاي؟ ليه؟

اقترب أنور من إيهاب بحذر دون ان ينظر للبطّانية التي تحولت من أزرق إلى النبيتي بسبب الدماء.

– إيهاب باشا. أنا مش فاهم ليه نستنّى حد من المديرية؟ ليه مش من القسم بتاعك؟

– مش عارف الناس ليه مصمّمة تتدخل في حاجة مش شغلها.

رد إيهاب بعصبية.

بإحراج شديد تنحنح أنور والتفت لجيرانه وبوابي العمارات المجاورة. ابتلع ريقه وحاول أن يقول شيئًا لكن قاطعه محمد ابن البواب الصغير. أمسك ببنطال إيهاب مناديًا إياه:

– إيهاب باشا، إيهاب باشا.

لم يسع إيهاب إلا أن يبتسم للطفل. ذابت ملامحه المتصلبة بسرعة أدهشت الموجودين. أما يوسف فقد ابتسم هو الآخر متفهمًا فهو يعلم كم يرق قلب إيهاب للأطفال. انحنى الأخير ليصبح في مستوى عين الطفل ناسيًا مكانته وهمومه:

– إيه يا محمد، في إيه؟

– الراجل اللي مات ده قالي أقولك حاجة إنت والأستاذ يوسف قبل ما يمشّينا.

اكتسب ملامح إيهاب بعض الجدية ونادى على يوسف.

– خير يا إيهاب؟

أشار إيهاب للطفل محمد وقال:

– زين قال حاجة لمحمد قبل ما يمشوا من قدّامه.

ثم التفت الطفل:

– إيه؟ قالك إيه يا حبيبي؟

– قالي أقولّكم إنه آسف بس مش على حكاية شقة أستاذ يوسف.

تبادل إيهاب ويوسف النظرات ثم التفت للطفل متعجبًا:

– أومّال على إيه؟

– بيقولك هو حاول يشتري الأرض علشان يصلح غلطته بس يوسف بيه مرضيش.

نظر إيهاب ليوسف ثم بمجهود كبير رسم ابتسامة على وجهه وهو يربت على كتف الطفل.

– ماشي روح انت يا حبيبي. ثم اعتدل واقفًا وصاح به مازحًا:

– يالّا يا وله امشي.

شرد محمد في الجراچ حولهم وأشار للركن المظلم وقال:

– في حد في الجراچ ياما.

هتفت امرأة من وسط التجمع الواقف عند منزل الجراچ:

– وله يا محمد تعالى هنا. إيه اللي بتقوله ده؟ مش قلتله خلاص؟

– أنا كمان شفته إمبارح يامّا. قالها أخوه من وسط الجمع وأضاف:

– في حاجة هنا يامّا واللّه.

سأله إيهاب باهتمام:

– حاجة زي إيه؟

– كان فيه واد معانا إمبارح منعرفوش. واد شكله يُخَوِّف ورأسه كبيرة. كان هذا رد الأخ الكبير.

– بس يا وله بلاش كدب.

نظر الطفلان لأمهما التي استطردت مخاطبة إيهاب:

– شغل عيال يا باشا متاخدش في بالك. يالا ياواد إنت وهو.

أسرع محمد إلى أمه التي سحبت في يدها أخاه وصعدوا المنزلق مغادرين الجراچ. أما أغلبية الواقفين فظلوا يحدقون إلى المشهد بفضول ويتبادلون التحليلات العبقرية. لكن ما هو مؤكد، أن القلق قد بدأ يتفشى فيهم. أعينهم تجول في الأركان المظلمة من الجراچ كأنهم يتوقعون خروج وحش مخيف.

التفت إيهاب ليوسف الذي كان يرمق جثة زين المغطاة وقال:

– إيه الجنان ده؟ غلطة إيه اللى زين يقصدها؟

لم يرد يوسف بل ظل في تفكير عميق.

– قالك إيه يا إيهاب بيه؟

سأله أنور متناسيًا الإهانة التي تعرض لها منذ قليل. لم يرد إيهاب، إنما ظل واقفًا يفكر في عمق. تردد أنور قبل ان يستطرد:

– أنا كمان عندي حاجة أقولها.

ألح أنور قائلًا:

– إيهاب بيه؟

التفت إيهاب اليه تارة اخرى:

– إتفضل حضرتك. معاك. في حاجة تانية حصلت غير موضوع الأنوار اللي في البر التاني.

– آه فيه. حاجة تأكد كلام العيال دي.

– كلام إيه؟

– إن كان فيه حد إمبارح في العمارة. بالليل..

كنت نايم في سريري، وسمعت خبط بسيط بره. كانت حوالي واحدة وشوية. قمت أشوف إيه مصدره. وقفت بره الأوضه وركّزت لغاية ما سمعته واضح. شخير سوسن مراتي مكنش مخلي الموضوع سهل بس طبعًا خبرتي في البحرية سهلتلي الوصول للمصدر بدقة.

بضجر شديد قال إيهاب:

– طلع فين الصوت؟

– باب الشقة. في حد كان بيخبط على باب الشقة.

– إيه ده؟ انا كمان كان فيه خبط على باب شقتي. قال خليل وهو يقترب من دائرة الحوار.

– رحت شفت مين؟

وجّه إيهاب سؤاله لأنور.

– بصراحة حسي الأمني كان بيحذرني بس قررت أروح اشوف مين. وقفت ورا الباب وحطيت ودني.

كان بعض المتابعين قد اقتربوا ليسمعوا الحكاية. لاحظ أنور زيادة عدد متابعيه فأعطاهم اهتمامه،

وصار كأنه يخطب فيهم.

– الخبط كان خفيف، زي ما يكون حد ماسك حاجة طرية وبيخبط بيها على الباب. بصيت من العين السحرية لقيت الدنيا ضلمة. لسه الخبط كان شغال فمديت أيدي أولع النور اللي بره. أول ما عملت كده لقيت الخبط وقف. بصيت تاني ملقتش حد. وقفت لأقل من دقيقة وبرضه مش شايف حد. قررت أرجع أنام بس سمعت خبطة تانية. بصيت من العين السحرية ودست علي زرار النور علشان ميطفيش وبرضه ملقتش حد. الصراحة ابتديت أقلق خصوصاً إن في خبطة تانية على الباب حصلت قدامي وأنا باصص من العين.

جال بنظره في الحشد الصغير أمامه وأضاف:

– وبرضه مكانش فيه حد بره.

سأله إيهاب:

– يعني كان فيه حد بيخبط وإنت مش شايفه؟

– أيوه. بس بعديها شفته.

سأله يوسف:

– إزّاي؟

– رجع الخبط تاني على الباب ياخد نفس الوتيرة. فقررت حاجة من الإتنين. يا إما افتح الباب مرة واحدة واللي يحصل يحصل أو أخبط جامد عليه يمكن اللي بيخبّط يظهر ويخاف ويجري.

– وعملت إيه؟

– ولا دي ولا دي.

إيهاب: أومال إيه؟

استطرد أنور بحماسة:

– فجأة الكلاب في الشارع صوتهم ارتفع لدرجة هيستيرية وقربوا قوي من العمارة لدرجة إني حسّيت إن في شوية منهم دخلوها. في نفس اللحظة النور بتاع السلم طفي رحت دست تاني على الزرار وشفته.

– شفت إيه؟ سأله خليل بمزيج من الفضول والخوف.

– طفل صغير برأس كبيره وشعر أسود بيلمع مشيته غريبة كأنه لا مؤاخذة قرد. راح عند باب شقتك.

كان موجهًا كلامه لجاره خليل. تبادل الواقفون نظرات من بين المتشكك والمتوجّس.

– أول ما وصل لحد الباب أعد يخبط براسه.

– هو ده الصوت اللي كنت بتسمعه يا أستاذ خليل؟

سأله عودة.

– وأنا إيش عرفني. ممكن. أنا قفلت باب الاوضة عليا وحطيت مخدّات علي راسي. ده كان كفاية صوت الكلاب.

كان رد خليل.

كلاب تاني.. سأل إيهاب نفسه.

ثوانٍ طويلة مرت والجمع في صمت. يتأملون في ما قاله أنور والذي أعطاه المصداقية كان مشاركة خليل في تلك الرواية. بالإضافة إنه كان نفس وصف محمد وأخيه ولدي البواب.

دق هاتف يوسف ليقطع تفكيرهم فقام بالرد واضعًا يده على فمه كي لا يزعجه أحد. تابعه إيهاب وهو يخرج من الجراچ ثم هتف به:

– يوسف!

التفت إليه يوسف ووضع كفه على السماعة. استطرد إيهاب:

– كلمني ضروري.

هز يوسف رأسه موافقًا وانطلق خارج الجراچ وهو يقول لمحدثه:

– أنا عندي معاينات لمواقع كتير متاخرة وهبقي طول اليوم بره المكتب. بس هحاول أكون في المكتب على ميعادنا. شكرًا مع السلامة.

وقف ليستقل سيارة أجرة في نفس وقت وصول بوكس المديرية ومعه سيارة نجدة متطورة. نزل من السيارة ضابط برتبة عميد. ابتعد يوسف عنهم وأشار لتاكسي.

في الجراچ كان الحشد منخرطًا في نقاش حاد لتفسير رواية أنور وخليل. اقترب الطبيب الذي جاء مع الإسعاف من إيهاب وفي يده الحجر الذي قُتِل به زين وقال له:

– مش محتاج طبيب شرعي على فكرة. المجني عليه توفي بسبب ضربات متتالية بالحجر ده.

بنظرة يطل منها الذكاء المصطنع سأل أنور:

– سيادتك أنا حاسس إن الموضوع ليه علاقة بالأنوار اللي بتولع وتطفي في البر التاني من النيل. القزم ده أكيد من العصابة واختلفوا مع زين لما فشل يقتحم شقة يوسف. قتله علشان ميعترفش عليهم.

– سيادة القبطان!

صاح إيهاب. مش هطلب من سيادتك تاني. خلينا إحنا نشوف شغلنا. أوعدك لو طلع إنه مات غريق هطلب مساعدتك.

احمر وجه أنور ونظر حوله ليرى أعين الناس عليه فقال:

– عمومًا أنا كنت عايز أساعد. بالتوفيق.

قبل أن ينصرف أنور ناداه إيهاب:

– أستاذ أنور. سؤال لو سمحت.

التفت له أنور وهو يلوي شفتيه. تجاهل إيهاب رد الفعل هذا وسأله:

– أول إمبارح لما شفتك في الجراچ، كنت بتكلم مين بعد ما أنا طلعت السلم؟

قطب أنور حاجبيه محاولًا التذكر:

– إممم. مكلمتش حد غيرك.

– إزّاي؟ بعد ما انا ما مشيت كنت بتتكلم مع حد على عربيتك

– آه. ما هو ده كان إنت برضه. الحقيقي أنا أستغربت لما شفتك لأني كان بيتهايألي إنك طلعت السلم. بس شفتك تاني جنب العربية.

فكر إيهاب للحظة قبل أن يقول:

– ماشي شكرًا يا فندم.

– العفو.

قالها أنور بعصبية وانطلق لسلم الجراچ.

تراجع إيهاب من المشهد واستند إلى سيارة يفكر بعمق. نظر للجراچ حوله المليء بالسيارات والظلال.

أنا مارجعتش تاني. مين اللي كان أنور بيكلمه؟

مين اللي في العمارة بتاعتنا؟

* * *

٤٥

جلس إيهاب في استقبال القسم يراقب الأمور. يوم الأحد يكون دوماً مليئاً بالأحداث والمشاحنات، وهذا ما يريده بالضبط. هو يتمنى أن يشغل تفكيره عن النزلاء الثلاثة والميكروباص وما يحدث في بيته. خصوصاً أن الرجل الذي قدم البلاغ في مركز العلاتمة عن الميكروباص، في طريقه إليه. هذا ما قاله له ثروت. الآن هو يريد أن ينشغل بشيء الآخر فالتفكير فيما قد يقوله هذا الشخص يكاد يدفعه للجنون. فهو، على حد قول ثروت، كان مع الركاب الثلاثة في ذلك اليوم. إذاً فهو قد رأى ما أصابهم.

ترى ماذا تم في موضوع زين؟ فكر أن يهاتف العميد ماجد كي يسأله عن الأخبار، فلا بد أنهم بدؤوا في معاينة الجثة. نظر لمحموله فلم يجد ما تمنى أن يراه؛ لم يهاتفه يوسف حتى الآن. فاتصل به.

– آلو. أيوه يا يوسف.

– ..

– مش قلتلك تكلمني يابني. قولي بأه إيه حكاية زين ده؟ كنت وصلت معاه لايه في موضوع الورث ده؟

– ..

– معاينات طول اليوم؟ طيب. لو سمحت كلمني لما تروّح. سلام.

يوسف مخبّي عليّا حاجة. في حاجة غريبة في موضوع الورث بتاعه ده. يا ترى توحيدة هيكون رد فعلها إيه؟ بس كلام يوسف صح برضه، أنا كمان مخبّي عليه حاجة. اللي بيحصل ده كله مربوط ببعضه.

قطع تفكيره صياح النقيب وليد. انتبه إليه فوجده يتحدث مع رجل عملاق الجثة كلاعبي كمال أجسام. بدا وليد بجانبه كطفل رغم حجمه الضخم. يلتفت وليد إلى إيهاب كل حين وآخر.

– فيه إيه يا وليد؟

ذهب إليه وليد ليقول بصوت منخفض:

– فيه حاجة أعتقد انها هتهم سيادتك.

تنهد إيهاب وقال: قول يابني.

تنحنح وليد ثم قال:

– فيه سواق جه يبلغ عن الست اللي مشغلاه.

– الواد ده؟ سأله إيهاب وهو يشير لبرج العضلات إياه.

– بالظبط. بيقول إنه وَصّل الست لمكان ومشافهاش لغاية دلوقتي.

– وإيه المشكلة؟ هتهمني في إيه القصة دي؟

– المشكلة إن ده مش بيتها. عمارة عادية راحتلها زيارة لشخص ما. لحد كده وبرده ممكن يكون بلاغ عادي. الحاجة اللي سيادتك هتهتم بيها إن العمارة دي هي عمارة سيادتك.

– إيه؟!!

– زي ما بقول لسيادتك كده. سيادتك عايز تفاصيل أكتر؟

نظر إليه إيهاب وبدأت أوداجه تنتفخ.

– إنت شايف إيه؟

– حاضر سيادتك. السواق بيقول إنه إبتدى يلاحظ عليها التغيير من إمبارح السبت. وصّلها لمكتب استشاري في العجوزة ولمّا نزلت منه كانت، على حد ما قوله، واحدة تانية تمامًا. نظراتها مجنونة وكلامها مش مفهوم. حتى مظهرها ضَرَب خالص.

بعد كده وصّلها عمارة سيادتك زي ما طلبت ومظهرتش لحد دلوقتي.

شرد إيهاب عن الحوار للحظات ثم استطرد بعد تفكير عميق:

– اسمها إيه الست دي؟

– سميّة الدهشوري.

صُدم إيهاب عند سماع الاسم وتذكر كلام عادل مع يوسف في شرفة الأخير ليلة العيد ميلاد. (سميّة الدهشوري على سن ورمح).

– طيب روح كمّل البلاغ. إعرفلي منه عنوان مكتب الاستشاري ده واسم المكتب إيه.

كان رد إيهاب أن هبّ بعدها واقفًا وذهب إلى مكتبه، لكن ليس دون نظرة أخيرة للسائق. هاله ما رآه في عينيه.

هذا الرجل مرعوب.

* * *

شارداً فى النيل الذى يجرى بجواره، جلس يوسف فى مؤخرة سيارة الأجرة متجهاً إلى المكتب.

تساؤلات عدة تتصارع فى رأسه لكن واحد بالأخص يكاد يفتك بالبقية الباقية من عقله:

ما الذى يحدث لليلي؟ ما هذه التغيُّرات التى تطرأ على سلوكها بدون أى عامل خارجى ملحوظ؟ و هو أيضاً، لا يدرى ما الذى يجعله ثائراً فى لحظات ثم تخبو ثورته بدون سبب.

هل هناك شيئاً لا يراه؟

كله بسبب بنت الّذين اللى إسمها سمية دى. ده أنا لو شفتها ه..

رن هاتفه فأخرجه من جيبه و قرأ الأسم: (سمية الدهشورى). جفل سائق التاكسى جراء صياح يوسف.

– مش قلتك لو سمحتى ما تتصليش تانى!! – .. يا فندم مش عايز مشاكل أكتر من كده. –

– ..

– شيك إيه؟

– ..

تردد عند سماعه جملة محدثته الأخيرة، وحانت منه نظرة للسائق فى المرآة ثم قال بنبرة خافتة:

– لأ مبرفضش الهدايا ولا حاجة.

تنهد و هرش فى رأسه بعصبية و أخذ يفكّر.

– أيوة معاكى.

– ..

– طيب خلاص. نتقابل في المكتب الساعة إتنين.

هذه المرة أنهى المكالمة بهدوء ثم مد بصره عبر النيل و تذكر كلام هارون السائق:

(كل برّ بيحسد البر التاني)

***

جلس إيهاب خلف مكتبه يرمق الشاب الجالس أمامه بنظرات ثاقبة. شاب رفيع ذو شارب خفيف يبدو عليه القلق البالغ.

– كنت فين اليومين اللي فاتو يا شبانة؟

رد عليه شبانة قائلًا:

– واللّه يا باشا بِعدت شوية عن الشغل. زي سيادتك متقول كده أَخدت أجازة.

فتح إيهاب الملف المُلقَى أمامه على المكتب وأخذ يتصفح فيه.

– ممكن يا باشا اعرف إيه المشكلة؟ ما هو أنا قلت كل اللي عندي لثروت بيه.

رد عليه النقيب سعيد الجالس في الكرسي المقابل له:

– مقولنا مفيش يا شبانة. إسمع أسئلة إيهاب باشا ورد بمنتهي الأمانة وهتروّح على طول.

بتوتر واضح أجاب:

– حاضر يا باشا. تحت أمرك.

أغلق إيهاب الملف وقال:

– أحكلنا كل اللي شفته في الميكروباص. كل اللي قلته في المحضر أودّام ثروت باشا وكل اللي ما ذكرتوش.

قطب شبانة حاجبيه وقال:

– ده كان يوم منيّل.

سعيد:

– أيوه. هو اليوم المنيّل ده. إحكي كل صغيرة وكبيرة.

تنحنح شبانة وقال:

– هقول لسيادتك. أنا كنت نازل مصر أجيب حاجة علشان خطوبتي، أصلها الخميس اللي جاي عقبال عندكم. المهم ركبت الميكروباص من على الطريق قبل بر الضيف بكام كيلو، من ترماش. ده إسم بلدنا. لما وصلنا عند بر الضيف ركب تلات رجالة، اللي عندكوا في الحجز دول.

– كانت حالتهم صعبة آخر حاجة يا باشا؛ متبهدلين وتعبانين وشكلهم جايب آخرهم. دخلوا ركبوا في الكنبة ورا من سكات وقالوا للسواق يطلع بسرعة. حسّينا زي ما يكون فيه حد بيجري وراهم خصوصًا إنهم فضلوا يبصوا علي الغيط اللي طلعوا منه. حتى لما السواق طلع بالعربية فضلوا يبصوا وراهم.

إيهاب:

– كان مين اللي معاك في الميكروباص؟

– اتنين رجالة قاعدين أودّام التلات رجالة اللي لسه راكبين و اتنين ستات قاعدين جنبي. أنا قلت كل ده لثروت باشا. كلنا كنّا قلقانين من التلاتة دول بس سكة كل واحد فينا كانت قصيرة فقولنا إننا هننزل قريب وكبّرنا دماغنا. على الأقل ده كان تفكيري انا.

– وصلتوا للبلد اللي بعديها بسلام؟

تردد شبانة قبل أن يجيب:

– للأسف لأ ياباشا. قبل ما نمشي حتى ميت متر لقينا حد بيشاورلنا. مكنتش مركّز بصراحة في اللي بيحصل بس من هنا الحكاية لَبّشت.

اعتدل إيهاب في جلسته وقد بدا الاهتمام عليه.

– حلو قوي. من النقطة دي بقي مش عايز ولا تفصيله واحدة متقولهاش.

بدأ شبانة يحكي بالتفاصيل ما وجده السامعون أغرب ما سمعوا..

توقف الميكروباص عند الملف وأشار السائق لشبانة الجالس بجوار الباب كي يفتحه.

– افتح للبرنسيسة اللي واقفة لوحدها دي يا عريس لو سمحت.

صرخ أحد الركاب الثلاثة الذين ركبوا لتوهم وكان أعرضهم:

– لأ بلاش تركّب حد!!

التفت له الجميع باستغراب فاستدرك قائلًا:

– مفيش مكان. ميصحش بت تتحشر وسطينا إكده.

– مافيش مكان إزّاي؟ ملكش صالح يا جدع إنت. عايزنا نسيبها لوحديها هنا والا إيه؟ ما تفتح يا عريس.

قالها السائق بنفاد صبر.

ابتسم شبانة من نعت السائق له بالعريس وتخيل لو كان يعلم مدي صحة هذه اللقب. فخطبته، كما قال لإيهاب، على عايدة الخميس الذي يلي القادم.

صاح راكب آخر من الثلاثة:

– بلاش تركّب حد. إحنا هنأجّر منك الميكروباص كله.

هتف به السائق:

– واللّه هنزّلكوا يا جدع إنت وهو. خليكوا في حالكوا قولنا.

مد شبانة يده ليفتح الباب وعقله في وادٍ آخر.

عايدة.. وحشتيني يا بتّ الإيه.

– إقفل الباب بأه يا عريس.

كان هذا النداء من السائق قبل أن يشعل المحرك مرة أخرى وينظر في المرآة بعين ذئب بشري. غمز للتبّاع الجالس بجانبه لكن الأخير لم يتجاوب معه. بل لوى شفتيه باستياء وهو يرمي نظرة خاطفة على آخر الراكبين التي اتخذت من الكرسي خلف شبانة مقعد لها.

التبّاع:

– إيه يا عّم القرف ده؟ ده انت زوقك رِمّة. اطلع اطلع.

تحركت السيارة وما زالت عين السائق مثبّتة على الراكب الأخير.

– هتنزلي فين يا قمر؟

علّق التبّاع بامتعاض:

– قمر مين يا عّم انت؟ دي قد جدتك.

قهقه السائق وقال:

– إتلهي.

مدت المرأة البدينة، التي كانت تجلس بجانب شبانة، يدها له بخمسة جنيهات قائلة:

– والنبي يابني إدي للتبّاع وهاتلي الباقي.

أضافت الفتاة التي تجلس بجوارها:

– نفرين مش واحد.

– حاضر. أجاب شبانة ومدّ يده للتبّاع بالورقة المالية قائلًا:

– نفرين.

التبّاع: نازلين فين؟

– المنيب. أجابت المرأة الأكبر سنًا.

التبّاع: والحاج اللي ورا. نازل فين؟

سمع شبانة صوت رجل كبير في السن يرد من الخلف قائلًا:

– البحر الأعظم.

– والرجالة؟

سأل السائق الرجال الثلاثة لجالسين في الخلف. لم يأته ردٌّ منهم فنظر في المرآة ليجدهم يرمقون الفتاة التي ركبت مؤخرًا بنظرة لم يفهمها. فالتفت إليها وسألها بنفس أسلوب عادل أدهم الخطير:

– والقمر نازل فين؟

لم يأتِ ردٌّ منها هي الأخرى.

فتح السائق (جاعّورته) قائلًا:

– هو محدِّش بيرد علّيا ليه؟ هو انا موَطّي الفوليوم ولا مؤاخذة؟

سمع شبانة صوت الشاب الذي يجلس بجانب الشيخ وهو يقول:

– إنت قصدك مين؟

ثم باستنكار سألت الفتاة التي تجلس بجانب المرأة:

– هو بيعاكس ياامّه ده والّا إيه؟

هتفت أمها:

– فيه إيه ياسطي؟ مقولنالك المنيب.

السائق:

– فيه إيه يا ست إنتي؟ انا جيت جنبك؟ انا بكلم القطة اللي لسه راكبة.

مرت نصف دقيقة لم ينبس أحد خلالها ببنت شفة. فقط صوت زئير محرك الميكروباص العجوز والتفاتات الركاب كل واحد منهم يتفحص وجوه الآخرين. ثم سمع شبانة الرجل العجوز يقول:

– قطة مين يابني؟ إنت شارب حاجة؟

بدأ شبانة ينتبه للحوار العجيب وحدس ما يحدثه بأن هناك شيئًا مريبًا يحدث حوله.

التبّاع:

– معلش يا جدعان، سواقنا نفسه حلوه حبتين.

السواق، وقد بدأ يفقد أعصابه:

– فيه يا جدعان؟ أنا بكلم البِت اللي لسه راكبة. رايحة فين يا عروسة؟

التفت الركاب للراكب الذي جلس خلف شبانة وعاد الصمت مجدداً ليقطعه التبّاع الذي التفت لينظر لمن يجلس خلف شبانة ويقول:

– يا عّم عروسة مين؟ دي تيجي بتاع مية سنة.

كل هذا وشبانة لم يلتفت ليرى من يجلس خلفه. لكن لماذا لا ترد على السائق؟

تدخلت المرأة البدينة صائحة:

– هي مين دي يا عّم المسطول انت وهو؟ مش بتتكلموا على اللي لسه راكب دلوقت؟ ده لا ست كبيرة ولا صغيرة، ده واد صغير.

فرملة عنيفة جعلتهم يحتضنون الكرسي الذي أمامهم. تلاها صيحة من السائق وسباب من التبّاع.

– واد مين يا أمي!!؟ إنتي هتشتغليني؟ ما هي بت أهي؟ متنطقي يا بتّ.

الآن شبانة خائف أن يلتفت. مين اللي قاعد وراه؟ قام من جلسته ليقف بجوار الباب والتفت لينظر لمن يجلس وراءه.

لم يَرَ الفتاة ولا المرأة العجوز ولا الولد، بل رأى رجلًا ضخمًا الجثة يتلفّحُ بغُطرة دكناء.

قال الشاب الجالس بجوار الرجل المسن:

– واد إيه وبت إيه يا بشر؟

رآه شبانة يمُد يده ليربتّ على كتف الراكب الأخير قائلًا له:

– يا حاج، رد على الناس دي.

بصوت مهزوز قال الرجل العجوز:

– أنتم بتكلموا مين؟ هو فيه حد قاعد هنا أصلًا؟

مشيرًا إلى الكرسي الذي يجلس عليه الراكب الأخير، أيًّا كانت هويته.

بحذر مد شبانة يده يتحسس مقبض الباب.

السائق:

– يعني إيه الكلام ده؟ يعني اللي قاعد على الكرسي ده مش بت؟

التبّاع، وقد انخفضت نبرته دليلًا على تسلل الخوف إليه:

– ولا ست كبيرة؟

الفتاة، واضعة كفها على صدرها:

– هو الواد مبيردش ليه؟ أمّا. ما تنزلي ياما.

فتح شبانة باب الميكروباص وقفز على الأرض الطينية خارجه. خلفه نزلت المرأة مسرعة وبنتها خلفها ثم الشاب والرجل المسن. سمع صوت الباب يغلق خلفه يتبعه توسل أحد الركاب الثلاثة:

– والنبي سيبنا ننزل. والنبي. أحبّ على إيدك. إحنا غلطانين مكانش المفروض ندخل أرضكوا. زين إبن القطّان هو اللي قال لنا نفتح السور. هو المخ وإحنا نفّذنا بس.

أتى صوت التبّاع:

– إنت بتقولوا إيه؟؟ يا عم أنا هنزل.

هنا توقف شبانة عن السرد ليتفحّص وجوه المستمعين. رآهم يتابعونه جميعًا بتركيز، لكن إيهابًا قطب حاجبيه بقوة وسأله:

– إنت متأكد من إسم زين القطّان ده؟

شبانة:

– طبعًا يا باشا. ده محفور في مُخّي.

إيهاب:

– طب كمّل.

استطرد شبانة:

– ساعتها كنت أنا والركاب الأربعة والتبّاع بنبعد عن الميكروباص بس كنّا بنبص عليه من بعيد. التلاتة اللي ورا فضلوا في مكانهم مركّزين مع الراكب الأخير ده اللي كان كل واحد فينا شايفه حاجة مختلفة.

سمعت السواق بيقول:

– إيه اللي بتعمليه ده؟ إيه القرف ده يا بت إنتي؟

ما كنّاش شايفين الراكب الأخير، اللي السواق كان شايفه بنت، بيعمل إيه. سمعنا صوت باب السواق يرفض الفتح وسمعنا أغنية (القمح الليلة الليلة ليلة عيده..) طلعة من الراديو.

تبادل الضباط النظرات مما جعل شبانة يسأل:

– في حاجة يا باشا؟

إيهاب:

– لأ. كمل.

– حاضر. بعدنا عن الميكروباص بتاع خمسين متر ولقينا الراكب اللي كنت شايفه راجل ضخم بيلف جوه الميكروباص وراجع للتلاتة ورا. بعديها سمعنا صوت زي الجاموسة كده بس أقوي بكتير وشفنا الميكروباص بيتحرك والسواق بيرمي نفسه من الشباك.

تبادل إيهاب وسعيد النظرات ثم سأل إيهاب:

– عملتوا إيه بعد كده؟

– البِت وأمها قعدوا يولولوا ويصرخوا برعب يا باشا. الرجالة قعدت تحسبن وتستعيذ باللّه. كنّا

عارفين إيه اللي شفناه بس محدش كان عايز يقول. محدش كان قادر يتكلم أصلًا.

– كان إيه؟ وإيه اللي خلّاك تروح تعمل محضر بعد كده رغم إنك مش صاحب الميكروباص؟

– بص يا باشا بقي. أنا هقول واللي يحصل يحصل. محدش هيصدقني أنا عارف بس يا روح ما بعدك روح. أنا كان لازم أبلّغ ياباشا. أنا هتجوز الخميس اللي جاي واللي شفته ده مش هيسبني في حالي وهينطّلي في بيتي اللي لسه ما شافش النور. أنا عملت محضر لأنكوا لازم تلاقوا حل يا باشا. اللي شفناه ده ضيف، ضيف جه زار أرض القطّان من سبعة وعشرين سنة وممشيش من ساعتها. والضيف ده..

قاطعه اقتحام سعفان للغرفة.

– إيه يابني آدم اللي بتعمله ده؟!!!

صاح إيهاب.

– معلش يا باشا. بس فيه حاجة غريبة جدًا بتحصل.

قال سعفان وعلى وجهه أعتى آيات الهلع ثم أكمل وهو يشير لشاشة المراقبة:

– التلاتة اللي في الزنزانة ٦.

التفت إيهاب لما يشير إليه.. إلى شاشة المراقبة. تسمرت عيناه عليها فسأل سعيد بقلق:

– مالهم؟

بصوت مرتعش رد سعفان:

– بقوا أربعة.

* * *